السهل المفيد
فى
تفسير القرآن المجيد

الجزء الثالث

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

{ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ١]

هذه فاتحة سورة الرعد المدنية .
و{المر} هى من الحروف المقطعة، التى افتتحت بها بعض السور، وقد تحدثنا عنها سابقاً.
تلك آيات الكتاب أى : هذه السورة آيات بينات من الكتاب وهو القرآن الكريم.
والذى أنزل إليك كله يا محمد من ربك هو الحق الذى لا شك فيه، ولا جدال حوله.
ولكن أكثر الناس من أهل مكة وغيرهم ٠٠ لا يثقون أنه أنزل إليك من ربك، ولذلك : فهم لا يؤمنون بنبوتك.

* * *

وبعد هذه المقدمة ٠٠ يسوق الله عز وجل الدلائل على قدرته، وعلى ضرورة الإيمان به ٠٠ من العالم العلوى.
فيقول :

{ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ }
[الآية ٢]

أى : هو الله الذى ينبغى الإيمان به، والخضوع له، هو الذى رفع السموات بغير عمد كما ترونها.
وذلك دليل قدرته عز وجل ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله، من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.
و الله، الذى سخر الشمس والقمر بقدرته؛ لمنافع عباده، ومصالح بلاده.
وكل منهما يجرى لأجل مسمى عنده، وهو وقت انقضاء الدنيا بقيام الساعة.
وذلك : دليل قدرته عز وجل.
وهو الذى يدبر الأمر أى : أمر ملكوته كله، بما فيه ومن فيه.
وهو الذى يفصل الآيات أى : يبينها ويوضحها، ويرشد إليها، سواء كانت الآيات المنظورة، أو المسطورة.
وذلك : دليل قدرته عز وجل.

وكل ذلك لعلكم بلقاء ربكم أى : بالإيمان به، واليقين بالرجوع إليه توقنون فتعملون بموجب هذا الإيمان، وتستعدون لواجب هذا اللقاء.

* * *

ثم يسوق عز وجل أيضاً : دلائلا على قدرته، وضرورة الإيمان به من العالم السفلى.
فيقول :

{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآية ٣]

أى : وهو الله الذى ينبغى الإيمان به، والخضوع له، هو الذى مد الأرض طولاً وعرضاً.
وذلك : دليل قدرته عز وجل.
و هو الله الذى جعل فيها أى فى الأرض، جبالاً رواسى ثابتة فى أماكنها وأنهارا تنتفعون بها، وخلق من كل الثمرات أصنافاً، وأنواعاً، وألواناً.
وذلك : دليل قدرته عز وجل.
وهو الله الذى جعل فيها أى الأرض من كل زوجين اثنين السالب والموجب، والذكر والأنثى إلى غير ذلك.
وذلك دليل قدرته عز وجل.
وهو الله الذى يغشى الليل النهار أى يلبس النهار ظلمة الليل.
وذلك : دليل قدرته عز وجل.
إن فى ذلك كله لآيات دالة على قدرة الله وعظمته لقوم يتفكرون فيهتدون.

* * *

كذلك :

{ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }
[الآية ٤]

أى : وفى الأرض كذلك من دلائل قدرته : أنه توجد قطع متجاورات فى المكان، ولكنها مختلفات فى المواصفات، فهذه سوداء، وهذه صفراء، وأرض رقيقة وأخرى سميكة ٠٠ إلى غير ذلك.

وذلك : دليل قدرته عز وجل.

وفى الأرض كذلك من دلائل قدرته جنات حدائق وبساتين من أعناب وزرع ونخيل بعضها صنوان أى : لها فروع كثيرة وأصل واحد، وبعضها غير صنوان أى : لا فروع لها، والكل مع اختلاف أنواعه يسقى بماء واحد ومع ذلك .. فالطعم مختلف، واللون مختلف، والشكل مختلف، كما أننا نفضل بعضها على بعض فى الأكل فهذا حلو، وهذا حامض .. إلخ.

وذلك : دليل على قدرة الله عز وجل.

حقاً .. إن فى ذلك كله لآيات دالة على قدرته سبحانه، وعظمته لقوم يعقلون هذه الدلائل؛ فيهتدون، فيؤمنون.

* * *

هذه كلها دلائل واضحة أمامهم على قدرة الله عز وجل ..

ومع ذلك : فلهم مواقف فى غاية الغرابة والتعجب.

مثلاً : إنكارهم البعث.

يقول تعالى :

{ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[الآية ٥]

يعنى : وإن تعجب يا محمد من تكذيب الكفار لك، وعدم إيمانهم بقدرة الله عز وجل فعجب كل العجب قولهم أئذا كنا تراباً بعد الموت أئنا لفى خلق جديد أى : بعث مرة أخرى .. وبذلك : فهم ينكرون البعث واليوم الآخر بما فيه من حساب وثواب وعقاب.

أولئك الذين يكذبونك، وينكرون قدرة الله، ولا يؤمنون باليوم الآخر .. هم الذين كفروا بربهم إذّ لو كانوا يؤمنون به .. لآمنوا باليوم الآخر.

و هم أولئك الذين توضع الأغلال وهى القيود فى أعناقهم

وأولئك هم أصحاب النار كذلك، وهم فيها خالدون مقيمون لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبداً.

* * *

ومن مواقفهم العجيبة أيضاً : أنهم يستعجلون العذاب استهزاءً.

يقول تعالى :

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية ٦]

أى : هؤلاء المكذبون المعاندون ٠٠ من شدة كفرهم يستعجلونك بالسيئة وهى العقوبة، فقد قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأسقط علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال : ٣٢] مثلاً.

وذلك قبل طلبهم الحسنة وهى العاقبة والنجاة من غضب الله.

ولم يعتبروا بما نزل من العذاب بمن قبلهم، حيث قد خلت أى : سبقت ومضيت من قبلهم المثلات وهى العقوبات الشديدة، التى جعلت المكذبين قبلهم عبرة ومثلاً.

وعلى كل حال ٠٠ فهم لا يعلمون أن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ولذلك ٠٠ لم يوقع بهم العذاب سريعاً مع تكذيبهم.

ولكن فى ذات الوقت إن ربك لشديد العقاب لا يفلت منه معاند، ولا ينجو من عذابه هارب.

* * *

ومن مواقف هؤلاء الكافرين العجيبة ثالثاً : أنهم يطلبون منك آية، مع أن الآيات المنزلة عليك كثيرة.

يقول تعالى :

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }
[الآية ٧]

أى : يقول الذين كفروا تعنتاً وعنادًا لولا أى : هلا أنزل عليه آية وعلامة تؤيد صدقه من ربه الذى يدعيه.

لا تهتم بما يقولون، وليست الآيات وفقاً لهواهم إنما أنت يا محمد منذر لهم بالعذاب، ومخوف لهم منه، وناصح لهم بالهداية.

و من قبلك كان لكل قوم هاد يهديهم، ومعه آية تخصه، وأنت معك الآيات والآيات، ولكنهم لا يهتدون ٠٠

* * *

ولم ينزل الله تعالى عليهم آية مما اقترحوا ٠٠ حيث إنهم اقترحوا للعناد وليس للاسترشاد وطلب الهداية.

وإلا ٠٠ فإن الله قادر على إنزال ما اقترحوا ٠٠ بدلالة : كمال علمه سبحانه، وقدرته عز وجل، وشمول قضائه وقدره.

حيث بين ذلك قائلاً :

{ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ }
[الآية ٨]

يعنى : هو الله الذى لا يؤمنون به ٠٠ يعلم وحده ما تحمل كل أنثى أى : من جميع الإناث، يعلم : عدده، ونوعه، وجنسه، وحاله، ووضعه، ومصيره بعد ذلك ٠٠ إلخ.

ويعلم سبحانه وتعالى كذلك ما تغيض ما تنقص الأرحام وما تزداد من هذا الحمل أو ذاك.

وكل شىء عنده سبحانه، من هذا وغيره بمقدار بتقدير دقيق، وعلم محيط ٠٠

ومن الضرورى ٠٠ أنه من كان كذلك : فهو يعلم الحق، ويهدى إليه .

فهل من مستجيب ٠٠؟

* * *

وهو سبحانه أيضاً :

{ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ }
[الآيتان ٩ ، ١٠]

أى : هو الله الذى لا يؤمنون به ٠٠ عالم الغيب وهو كل ما غاب عن الخلق والشهادة أى : يشاهدونه ويعرفونه كذلك.

وهو سبحانه الكبير العظيم الشأن، الجليل القدر، الذى لا يماثله شىء، وهو أكبر وأعظم من كل شىء المتعال المترفع عن كل شىء.

وسواء فى علمه سبحانه من أسر القول منكم ومن جهر به حيث إنه يسمعه ولا يخفى عليه منه شىء فهو { يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور } [غافر ١٩] .

و سواء فى علمه سبحانه من هو مستخف بالليل لا يراه أحد، وسارب بالنهار أى : ذاهب فى طريقه جهاراً نهارًا.

ومن الضرورى ٠٠ أنه من كان كذلك : فهو يعلم الحق، ويهدى إليه ..

فهل من مستجيب ٠٠؟

* * *

وهو سبحانه أيضاً يقول :

{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ }
[الآية ١١]

أى : جعل الله لم أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار ٠٠ جعل له معقبات أى : جماعات من الملائكة تتعاقب فى حفظه من بين يديه من أمامه و حفظه من خلفه.

يعنى : مهمتهم أنهم يحفظونه من أمر الله أى : يحفظونه بأمر الله حتى يسلمونه للذى قدر الله له.

ولذلك ٠٠ فـ إن الله لا يغير ما بقوم فيسلبهم نعمة، أو ينزل بهم نقمة حتى يغيروا هم ما بأنفسهم بالمعصية، أو الطاعة.

كما أنه عز وجل إذا أراد بقوم سوءاً نقمة، أو عذاباً يستحقونه فلا مرد له من أحد، أى : فلا يمنعه أحد وما لهم فى هذه الحال من وال يتولى أمورهم، ويدفع عنهم ما قدر لهم.

ومن الضرورى ٠٠ أنه من كان كذلك : فهو يعلم الحق، ويهدى إليه.

فهل من مستجيب ٠٠؟

* * *

كما أنه سبحانه :

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ }
[الآيتان ١٢ ، ١٣]

أى : هو الله، الذى لا تؤمنون به ٠٠ يريكم البرق فى السماء، خوفاً أى : تخافون منه أى يهلكهم وطمعاً أى : تطمعون فى نزول المطر معه.

و هو – كذلك – الذى ينشئ أى : يخلق السحاب الثقال أى: المحملة بالماء، تنتفعون به.

و هو سبحانه، الذى يسبح الرعد بحمده كما يسبح كل شىء فى الوجود بحمده سبحانه.

و هو الذى يسبح الملائكة كذلك من خيفته أى : هيبة منه، وإجلالاً وتعظيماً له.

و هو الذى يرسل الصواعق جمع صاعقة فيصيب بها من يشاء من خلقه انتقاماً منه.

و مع كل هذه الأدلة على قدرته وعزته، وعلمه، وإحاطته بكل شىء : فـ هم أى : هؤلاء الكفار يجادلون فى الله فى وحدانيته، وقدرته ٠٠إلخ.

و لا يعلمون أنه عز وجل شديد المحال شديد الأخذ، شديد القوة، شديد الانتقام ممن كفر به وعانده وعصاه.

* * *

ولذلك ، وإذا كان فيهم بقية من عقل : فعليهم أن يعلموا أنه سبحانه :

{ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ }
[الآية ١٤]

يعنى : له وحده فقط دعوة الحق أى : كلمة الحق، وهى (لا إله إلا الله) وهو وحده الذى يُدْعى ٠٠ فيستجيب لمن دعاه.

و أما الذين يدعون هم من دونه، ويعبدونهم فلا ينفعونهم ولا يضرونهم، بل لا يستجيبون لهم بشىء أبداً إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه أى : فمه وما هو ببالغه.

وما دعاء الكافرين آلهتهم التى يعبدونها إلا فى ضلال أى : فى ضياع.

* * *

وعلى هؤلاء الكفار – كما على أهل الدنيا كلها – أن يعلموا، كذلك : أن سلطانه تعالى قهر كل شىء، وأنه سبحانه قد دان وسجد له كل شىء.

حيث يقول تعالى مبيناً ذلك :

{ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ }
[الآية ١٥]

أى : ولله سبحانه، الذى لا يؤمنون به يسجد من فى السموات والأرض سجود خضوع وتذلل طوعاً كالمؤمنين والملائكة، و سجود قهر لسننه وقوانين كونه كرهاً كالمنافقين والكافرين وظلالهم جميعاً، مؤمنين وكافرين، وهذه آية من آيات الله، حيث تسجد معهم بالغدو أول النهار والآصال آخر النهار، بل فى كل وقت وحين.

أليس من الضرورى ٠٠ أنه من كان كذلك : فهو يعلم الحق، ويهدى إليه ٠٠؟

بلى ٠٠ وألف بلى ٠٠

فهل من مستجيب ٠٠؟

* * *

أيها السادة الفضلاء ٠٠

بعد أن قرر ربنا عز وجل : أن جميع الكائنات تنقاد له وتسجد وتخضع إجلالاً لعظمته.

عاد إلى الرد على المشركين ..
حيث يقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }
[الآية ١٦]

والمعنى : قل لهم يا محمد واسألهم من رب السموات والأرض؟
ثم قل مجيباً عنهم بما يقرون به ويعرفونه الله حيث لا جواب عندهم غير ذلك.
ثم قل لهم ٠٠ بالرغم من علمكم بذلك، وإقراركم به فى أنفسكم أفاتخذتم من دونه أى : الله أولياء تعبدونهم، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً وبالتالى : لا يملكون لكم ذلك.
فأى ضلال هذا الذى أنتم عليه.
قل لهم يا محمد مبكتاً هل يستوى عندكم الأعمى عن هداية الله، وهو الكافر والبصير المهتدى بهداية الله، وهو المؤمن ٠٠؟
أم هل تستوى عندكم الظلمات الموقعة فى التخبط والضلال والنور الهادى إلى الطريق المستقيم ٠٠؟
أم أنهم، أى هؤلاء الكفار جعلوا لله شركاء وهؤلاء الشركاء خلقوا خلقاً كخلقه سبحانه فتشابه الخلق عليهم فعبدوا شركاءهم نتيجة لذلك.
لا هذا، ولا هذا، ولا ذاك.
وما دام الأمر كذلك يا محمد :
قل لهم الله وحده خالق كل شىء وهو الواحد القهار فاعبدوه، ووحدوه، وعظموه، ولا تشركوا معه أحداً.

* * *

وحتى تعبدوه، وتوحدوه، وتعظموه ٠٠ اسمعوا وافهموا هذه الأمثال للحق والباطل :

{ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ }
[الآية ١٧]

المثل الأول : للحق والباطل أنزل من السماء أى : السحاب ماءً مطراً فسالت به أودية بقدرها أى : كل واد بمقدار من هذا الماء، الذى قدره الله له، فاحتملهذا السيل زبداً، وهو ما على وجه الماء من الفقاقيع الهوائية، والأشياء التافهة الطافية رابياً أى : عالياً.

المثل الثانى : للحق والباطل ومما يوقدون عليه فى النار أى : ما يوقد عليه النار من الذهب والفضة ابتغاء صناعة حلية أو متاع منه .. عليه أيضاً زبد مثله أى مثل زبد الماء.

فالماء، والذهب والفضة .. مثال الحق.

والزبد فى هذا وذاك .. مثال الباطل.

كذلك يضرب الله الحق مثالاً والباطل كذلك.

فأما الزبد من هذا وذاك فيذهب جفاءً يرمى به، ولا ينتفع منه.

وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكث فى الأرض ولا يضيع، ولا يرمى به.

كذلك يضرب الله الأمثال ويوضحها للحق والباطل.

فمن يفهمها، وينتفع بها : فهم المؤمنون، الذى يستجيبون لربهم.

ومن لا يفهمها، أو لا ينتفع بها، فهم الكافرون، الذين لا يستجيبون لربهم.

* * *

وعلى هذا .. يقول تعالى :

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ }

[الآية ١٨]

يعنى : للذين استجابوا لربهم وانقادوا لأمره، وأطاعوا رسوله، وأفادوا من ضربه الأمثال الحسنى وهى : الجنة؛ جزاءً طيباً لهم.

و أما الذين لم يستجيبوا له ولم ينقادوا لأمره، ولم يطيعوا رسوله، ولم يفيدوا من ضربه الأمثال .. فهؤلاء لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً يملكونه، وتحت أيديهم ومثله معهم يوم القيامة لافتدوا به من هول ما يرونه من العذاب.

حيث إن أولئك الذين كفروا لهم سوء الحساب على كل ما عملوه، لا يغفر لهم منه شىء.

وليس هذا فقط، بل مأواهم سكنهم، ومقر إقامتهم الدائمة جهنم.

حقاً .. وبئس المهاد مهادهم، والمكان مكانهم.

* * *

وهكذا ضرب الله تعالى الأمثال التى توضح الحق من الباطل، وتبين الهدى من الضلال.

وعلى هذا ٠٠ فمن لا يهتدى بها، ولا يتبع هداها : فهو أعمى عن الحق بعيد عن الهداية ٠٠ فهل يستوى هو ومن يؤمن بها، ويهتدى؟

ولذلك يقول ربنا عز وجل منكراً على من لم يهتد بها :

{ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ }
[الآية ١٩]

يعنى : أفمن يعلم أن الذى أنزل إليك من ربك وهو القرآن هو الحق الواجب الاتباع، والذى لا شك فيه كمن هو أعمى عن معرفة ذلك، وإذا عرف لا يتبعه ٠٠؟

كلا ٠٠ لا يستوى هذا مع ذاك.

إنما يتذكر ويستفيد، ويتعظ، ويتبع ما نزل : هم أولو الألباب أى أصحاب القلوب الطاهرة، والنفوس الزكية فقط.

* * *

ومن أوصاف هؤلاء الذين هم أولو الألباب : أنهم ٠٠

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }
[الآيات ٢٠ – ٢٢]

هذه أوصاف ثمانية ٠٠ وصف الله بها أولو الألباب أصحاب العقول الكاملة.

الصفة الأولى : الوفاء بالعهد ٠٠ الذين يوفون بعهد الله من أداء الفرائض واجتناب المحارم ولا ينقضون الميثاق وهو العهد، أياً كان ٠٠ مع الله، أو مع الناس.

الصفة الثانية : صلة ما أمر الله به أن يوصل ٠٠ الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام، والإحسان إليهم، وإلى الفقراء، ونصرة المؤمنين، والدفاع عنهم ٠٠ إلخ.

الصفة الثالثة : خشية الله ٠٠ ويخشون ربهم أى : يخافونه، فلا يعصونه، بل ينفذون أوامره.

الصفة الرابعة : خوف سوء الحساب ٠٠ ويخافون سوء الحساب فى يوم القيامة، حيث يدفعهم ذلك إلى محاسبة أنفسهم وتزكيتها أولاً بأول.

الصفة الخامسة : الصبر ابتغاء مرضاة الله ٠٠ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم أى : صبروا على الطاعات، وصبروا عن المعاصى، وصبروا فى المحن والابتلاءات، وصبروا فى ميادين الجهاد، وكل ذلك رجاء رضوان الله فقط.

الصفة السادسة : إقامة الصلاة ٠٠ وأقاموا الصلاة أى : أدوها على وجهها الصحيح، وداوموا على ذلك.

الصفة السابعة : الإنفاق سراً وعلانية فى سبيل الله ٠٠ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية فى الطاعة، ولوجه الله، وابتغاء رضوانه.

الصفة الثامنة : يقاومون السيء بالحسن ٠٠ ويدرءون بالحسنة السيئة أى : يدفعون السيئة من القول والفعل بالحسنة كذلك من قولهم وفعلهم.

يقول ربنا تبارك وتعالى : أولئك لهم عقبى الدار أى : من تحلى بهذه الصفات ٠٠ فله العاقبة الحسنى التى تنتظر المحسنين من أهل الدنيا.

* * *

وهى :

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ }

[الآيتان ٢٣ ، ٢٤]

أى : عاقبتهم، ونتيجة صلاحهم جنات عدن أى : جنات إقامة يدخلونها لا يخرجون منها، ولا يبعدون عنها، هم ومن صلح أى : آمن واستقام من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

هذا ٠٠ والملائكة يدخلون عليهم أول دخولهم، وفى كل وقت كذلك من كل باب يقولون لهم سلام عليكم دائم من الله تعالى بما صبرتم أى : بسبب صبركم فى الدنيا فنعم عقبى الدار أى : أنعم بها من عاقبة طيبة كانت لكم بعد الدنيا، وهى الجنة.

* * *

هذا ٠٠ أيها الأحبة فى الله .. جزاء أولى الألباب الذين يعلمون أن ما نزل من الله هو الحق، ويعملون به ٠٠!!

وأما الأعمى عن ذلك، أو المتعامى عنه؛ فيقول الله تعالى بخصوصه :

{ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }

[الآية ٢٥]

وهذه أوصاف ثلاثة ٠٠ وصف الله تعالى بها من لا يؤمنون، ولا يهتدون بما جاء من عند الله، وكل واحدة أسوأ من الأخرى.

الصفة الأولى : عدم الوفاء بالعهد ٠٠ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه أى : لا يؤمنون، ولا يؤدون فرائض الله، ولا يجتنبون محارمه.

الصفة الثانية : يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الإحسان إلى الأرحام، ونصرة المؤمنين، وغير ذلك.

الصفة الثالثة : الإفساد فى الأرض، وذلك بأى صورة من صور الفساد، كالكفر، والظلم، والمعصية ٠٠ إلخ.

يقول تعالى عن هؤلاء أولئك لهم اللعنة أولاً ٠٠ وهى الطرد من رحمة الله ولهم سوء الدار ثانياً وهى الإقامة فى جهنم.

* * *

وهنا ٠٠ قد يرد على الذهن سؤال ٠٠ وهو :

هؤلاء الكفار، والعصاة، الذين لهم اللعنة ولهم سوء الدار نراهم وقد فتح الله عليهم فى الدنيا أبواب النعيم وملذات الحياة.

فكيف يكون ذلك ٠٠؟

والجواب.

{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ }
[الآية ٢٦]

يعنى : مرد ذلك، وحكمته عند الله، فهو الذى يبسط الرزق أى : يوسعه لمن يشاء من عباده ويقدر أى : يضيقه على من يشاء من عباده، دون راد لمشيئته، ولا معقب لحكمه سبحانه.

كذلك ٠٠ فإن من حكمة الله فى هذا ما يقوله سبحانه من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها أى فقط، وعملوا لها نوف إليهم أعمالهم فيها أى جزاء أعمالهم هذه وهم فيها لا يبخسون.

ثم يقول عنهم أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون [هود : ١٥ ، ١٦].

ولذلك يقول ربنا هنا وفرحوا بالحياة الدنيا أى : فرح بطر وطغيان، لا فرح شكر لله وعرفان بالفضل.

وعلى كل حال ٠٠ فما هم فيه حقير تافه بالنسبة لما عند الله لعباده الصالحين فى الآخرة وما الحياة الدنيا بكل ما فيها فى الآخرة أى : بالنسبة لها إلا متاع أى : شىء قليل يتمتع به صاحبه سريعاً، ثم يذهب ويزول.

* * *

ثم يحكى الله تعالى بعض أقوال الكافرين، وصور تعنتهم ٠٠

فيقول :

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ }
[الآية ٢٧]

أى : يقترح الكافرون، من أهل مكة، عليك ٠٠ نزول آية : كالعصا واليد لموسى، والناقة لصالح؛ حتى يؤمنوا.

قل لهم ٠٠ إن الآيات لا تفيد شيئاً من أراد الله إضلاله؛ حيث إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ورجع بقلبه إليه، ولم يعاند، كما تعاندون.

* * *

ثم بين ربنا من ينيب إليه ويستحق هدايته ٠٠ بقوله تعالى :

{ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ }
[الآيتان ٢٨ ، ٢٩]

وصفهم رب العزة بثلاث صفات :

الصفة الأولى : الإيمان ٠٠ الذين آمنوا بالله ورسوله، واتبعوا وحيه، والتزموا بشرعه، وهذه رأس كل خير.

الصفة الثانية : اطمئنان قلوبهم بذكر الله، أى : عدم قلقها، أو اضطرابها فى المكاره والأزمات؛ لأنسها بالله، واعتمادها عليه.

حقاً ألا بذكر الله تطمئن وتهدأ قلوب المؤمنين.

الصفة الثالثة : اتبعوا إيمانهم بالعمل الصالح، وهو كل ما صلحت به البلاد، وسعدت به العباد.

هؤلاء ٠٠ طوبى لهم أى : أصابوا خيراً، ونالوا طيباً وحسن مآب أى : مرجع حسن لهم كذلك.

* * *

وبعد أن بين ربنا عز وجل أيها الأحبة فى الله ٠٠ أنه يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب وأن العبرة ليست بالآيات بل بالهداية ٠٠

يقول :

{ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }

[الآية ٣٠]

أى : كما أرسلنا الأنبياء لأممهم قبلك يا محمد ‥ أرسلناك ختاماً للرسل فى أمة هى آخر الأمم قد خلت أى : سبقت فى الزمن من قبلها أمم كثيرة.

وقد أرسلناك لتتلو عليهم الكتاب الذى أوحينا إليك وهو القرآن، فتبلغهم بذلك رسالة الله.

وقد بلغتهم هذه الرسالة، وأديت لهم هذه الأمانة ‥

وهم مع ذلك يكفرون بالرحمن حيث إنهم ‥ لما قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا أى : به وزادهم نفوراً [الفرقان : ٦٠].

قل لهم : هذا الرحمن، الذى تكفرون به هو ربى الذى أومن به، وأسجد له، وأدعو إليه لا إله إلا هو رباً، خالقاً، رازقاً عليه توكلت فى كل أمورى وإليه متاب أى : الرجوع للحساب، والثواب والعقاب.

* * *

ولما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ‥ قالوا له : إن كنت نبياً فأبعد عنا جبال مكة، واجعل لنا فيها أنهارًا لنزرع ما نشاء، وابعث – كذلك – لنا آباءنا الذين ماتوا، بحيث يقولون لنا إنك نبى ‥ وبهذا : نؤمن لك.

ولما قالوا له ذلك ‥ رد الله عليهم بقوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

[الآية ٣١]

أى : ولو أن الله تعالى ‥ أنزل قرآناً سيرت به الجبال كما يقترحون أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ليؤمنوا : لما آمنوا.

بل لله الأمر جميعاً فى إيمانهم وعدم إيمانهم، ولا تعلق له بإجابة مقترحاتهم، فهو سبحانه يهدى من يشاء، ويضل من يشاء.

ولذلك : فلا ينبغى أن يستغرب المؤمنون من عدم إيمان الكافرين، حيث طلب بعض المسلمين تحقيق هذه الآيات ليؤمن الكافرون.

ومن هنا قال تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان جميع الخلق، ويعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك.

ثم يقول ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وظلمهم قارعة أى : داهية ومصيبة أو تحل هذه المصيبة قريباً من دارهم ليتعظوا ويعتبروا حتى يأتى وعد الله وهو يوم القيامة إن الله لا يخلف الميعاد.

* * *

وبعد هذا البيان ٠٠ يقول الله تعالى لحبيبه :

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ }
[الآية ٣٢]

يعنى : إن كذبوك، واستهزءوا بك، فلست وحدك فـ لقد استهزئ برسل من قبلك ولك فيهم الأسوة والقدوة ٠٠ أى : لا تهتم بهذا.

وأما أمم هؤلاء الرسل فأمليت للذين كفروا منهم، وأجلت عقابهم ثم أخذتهم بعقابى، وياله من عقاب فكيف كان عقاب كان أليماً شديداً.

والمكذبون من أمتك ٠٠ مصيرهم : مصير هؤلاء.

* * *

وبعد هذا ٠٠ يذكر سبحانه سنته فيمن يريد إضلاله وعدم هدايته، فيقول :

{ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }
[الآية ٣٣]

أى : أفمن هو قائم رقيب على كل نفس بما كسبت من خير، أو شر، وهو الله سبحانه وتعالى ٠٠ كالأصنام التى يعبدونها؛ حيث إنهم جعلوا لله شركاء من هذه الأصنام.

قل لهم يا محمد سموهم أى : أعلموننا بهذه الأصنام التى أشركتموها مع الله، وقولوا لنا : ماذا تفعل من النفع والضر ٠٠؟

ثم قل لهم: أم تنبئونه وهو الله وتعلمونه بما لا يعلم من هؤلاء الشركاء فى الأرض كلها، وهى لا وجود لها ٠٠؟

وقل لهم – كذلك – أم تسمونهم بظاهر من القول فقط، يعنى أسماء فى الخيال لهذه الأصنام، لا وجود لها فى الحقيقة ٠٠؟

إنه ٠٠ لا هذا، ولا ذاك.

بل زين للذين كفروا مكرهم وحبب إليهم كيدهم للإسلام وصدوا عن السبيل أى : صدوا عن الهداية، وهى سبيل الله فقط.

والحقيقة أنه من يضلل الله فما له من هاد غير الله تعالى.

ولذلك : فمن أراد الهداية ٠٠ فليطلبها من الله ، فهو الهادى وحده إلى سواء السبيل.

* * *

هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، وزين لهم كيدهم للإسلام، وصدوا عن سبيل الله ٠٠

{ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ }
[الآية ٣٤]

أى : لهم عذاب فى الحياة الدنيا بالقتل والأسر، وأنواع البلاء والمحن، ولعذاب الآخرة الذى ينتظرهم، وصائرون إليه، وواقع بهم أشق من عذاب الدنيا وأصعب.
وما لهم من الله أى من عذابه فى الدنيا، أو فى الآخرة من واق يقيهم منه، ويبعدهم عنه.

* * *

ثم تكون البشارة لأهل الإيمان، الذين اتقوا ربهم ٠٠
والتخويف لأهل الكفر ٠٠ الذين عصوا ربهم ٠٠
بقوله سبحانه :

{ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ }
[الآية ٣٥]

أى : صفة الجنة التى وعد بها المتقون فيما نتلوه عليكم من الكتاب العزيز، وما فيه من أخبار الصالحين ٠٠ أنها تجرى من تحتها أى : من تحت غرفها الأنهار كما أنها أكلها أى : ما يؤكل منها وفيها من مطعومات دائم لا ينقطع أبداً وظلها لا ينسخ، ولا يفنى أبداً.
تلك الجنة ٠٠ هى عقبى أى : عاقبة، وجزاء الذين اتقوا ربهم بالإيمان، وعمل الطاعات، والبعد عن المعاصى.
و أما عقبى الكافرين ومصيرهم، ومقر إقامتهم : فهى النار لا يخرجون منها، فيهربون، ولا يموتون فيها فيستريحون.

* * *

وإذا كان هذا الكلام عن المؤمنين والمشركين ٠٠

فإن هناك فريقاً آخر من الناس ٠٠ يقول عنهم ربنا :

{ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ }
[الآية ٣٦]

يعنى : وأهل الكتاب الذين آتيناهم الكتاب كالتوراة والإنجيل ٠٠ منهم فريق يفرحون بما أنزل إليك من القرآن؛ لموافقته ما عندهم فى كتبهم.

ولكن من الأحزاب أى : من أحزابهم وفرقهم التى تعاديك وتعادى دعوتك من ينكر بعضه كإنكارهم نبوتك.

ونحن نُعْلِمك بهؤلاء وهؤلاء.

قل لهم يا محمد إنما أمرت فيما أنزل إلىَّ أن أعبد الله وحده ولا أشرك به غيره، مما لا ينفع ولا يضر، وإليه وحده، وإلى دينه وشريعته أدعو الدنيا كلها وإليه مآب أى : مرجعى فى يوم القيامة.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل :

{ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ }
[الآية ٣٧]

أى : و كما أنزلنا الكتب السابقة على الأنبياء السابقين بلغات أقوامهم أنزلناه أى : هذا الكتاب عليك حكماً عربياً بلغة العرب، لتحكم بين الناس كلهم بما جاء فيه، حتى ولو خالفت ما فى الكتب السابقة.

ولئن اتبعت أهواءهم ولم تحكم بما جاء فى القرآن بين الناس بعد ما جاءك من العلم الثابت، وضرورة الحكم به ما لك أى : ليس لك فى هذه الحالة من ولى ينصرك ولا واق يدفع عنك ما يحل بك.

وفى هذا تهديد لكل من لا يعمل بكتاب الله، ويتبع ما جاء فى غيره.

* * *

ولما عاب أهل الضلال النبى صلى الله عليه السلام بزواجه، وأنه لو كان نبياً لتفرغ لعبادة ربه، وترك الدنيا.

رد الله عليهم بقوله :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ }
[الآية ٣٨]

أى : لا تهتم بأقوالهم هذه يا محمد ، فلست بدعاً من الرسل، فلقد أرسلنا رسلاً من قبلك يجرى عليك ما جرى عليهم؛ حيث جعلنا لهم أزواجاً وذرية لأنهم بشر وقدوة، وأنت كذلك ٠٠ جعلنا لك أزواجاً وذرية.

ثم إنهم كما عابوا عليك ذلك ٠٠ وليس لهم.

وطلبوا منك أن تأتى بما اقترحوا من آيات ٠٠ وليس لهم أيضاً.

إذ إنه ما كان لرسول حتى ولا أنت أن يأتى بآية يطلبها قومه إلا بإذن الله فى ذلك.

ولما كان صلى الله عليه وسلم يخوفهم بعذاب الله : استعجلوه إتيان هذا العذاب، ليقضى عليهم، إن كان صادقاً فيما يدعيه.

رد عليهم المولى بقوله لكل أجل أى : نهاية كتاب مكتوب فيه تلك النهاية، لا يزاد عليه، ولا ينقص منه، وليست بطلبكم أيها الكافرون.

* * *

وكذلك : لما قالوا إن محمداً يأمر أصحابه اليوم، ثم يأمرهم غداً بخلافه، كما حدث فى استقبال القبلة مثلاً، ولو كان نبياً ما فعل ذلك.

رد عليهم المولى بقوله :

{ يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ }
[الآية ٣٩]

أى : يمحو الله بالنسخ ما يشاء من الأحكام ويثبت فيبقيها كما هى؛ لعلل وحكم، قد تعلم وقد لا تعلم، فمرد الأمر فى هذا وذاك إلى الله وحده، وليس إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ولا إلى غيره.

كما أن عنده أى : المولى أم الكتاب أى : أصل المكتوبات كلها، وذلك فى اللوح المحفوظ.

* * *

ثم يواسى الله نبيه والمؤمنين معه، ويشد من عزائمهم، بقوله :

{ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ }
[الآية ٤٠]

يعنى : وإما نرينك فى حياتك بعض الذى نعدهم به، من العذاب أو نتوفينك قبل أن ترى ذلك فيهم : فلا يهمنك إعراضهم عنك، وعدم إيمانهم بك، وتصديقهم لك.

فإنما فقط عليك البلاغ لرسالتنا وعلينا الحساب والجزاء لهم، على مواقفهم هذه.

* * *

إنهم ليسوا عقلاء.

{ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }
[الآية ٤١]

يعنى : أ عموا ولم يروا بعيونهم أنا نأتى الأرض أى : أرضهم؛ أرض الكفر ننقصها من أطرافها من جوانبها، بما يفتح المسلمون منها، فتزيد أرض الإيمان، وتنقص أرض الكفر ٠٠؟

والله عز وجل ٠٠ هو الذى يحكم بذلك، ويقضى به، وينصر دينه ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

وهو سريع الحساب فى الآخرة، بعد انقضاء هذه الدنيا.

* * *

وهل يظن أولئك ٠٠ أنهم أصحاب المكر والكيد والدهاء وحدهم ٠٠؟

لا ٠٠ فقبلهم كثير.

{ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ }
[الآية ٤٢]

أى : وقد مكر الذين من قبلهم من الأمم السابقة، وكادوا، وعادوا دعوة الله ٠٠ فما فلحوا، وما نجحوا، فيما أرادوه.

وهؤلاء كذلك ٠٠ لا يفلحون مهما مكروا.

ومكرهم لا قيمة له، ولا أثر، ولا وزن، فلله وحده المكر بهم، والكيد الحقيقى لهم جميعاً.

لأنه سبحانه يعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر، ولا يعلمون هم شيئاً.

وسيعلم الكفار يوماً ما، حيث لا يفيد العلم صاحبه شيئاً لمن عقبى الدار لمن العاقبة الحسنة، لهم أم للمؤمنين أتباع الرسل ٠٠؟

* * *

ختاماً ٠٠

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ }
[الآية ٤٣]

يعنى : ويقول الذين كفروا لك يا محمد صراحة لست نبياً مرسلاً من عند الله، إنما أنت مدع للنبوة والرسالة ٠٠

قل لهم كفى بالله شهيداً بينى وبينكم أى : تكفينى شهادة الله لى أنى رسول إليكم، وأنكم تكذبونى.

وأيضاً : شهادة من عنده علم الكتاب من أهل الكتاب الذين قرءوا فى كتبهم أنى الرسول الخاتم، فأسلموا، وآمنوا لى واتبعونى.

وبهذا تنتهى السورة الكريمة.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }
[الآية ١]

{الر} سبق بيان معناها .. فارجع إليه عند تفسير أول سورة البقرة .
كتاب أنزلناه إليك وهو القرآن .
وذلك لتخرج الناس بما فيه من الهدى ، والدعوة إليه ، والتربية على تعاليمه من الظلمات الكثيرة .. كالضلال ، والشهوات ، والشرك إلى النور أى: نور الإسلام وهديه .
كل ذلك بإذن ربهم أى : بتوفيقه ، وتيسيره ، وهدايته .
نعم .. إلى هذا النور ، إلى الإسلام ، إلى صراط العزيز الذى لا يمنع هديه أحد الحميد المحمود فى شرعه ، وهديه ، ودينه .

* * *

نعم .. إلى هذا النور ، إلى الإسلام ، إلى صراط ..

{ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }
[الآية ٢]

الذى له ما فى السموات وما فى الأرض خلقا ، وملكا ، وتصرفا .
وإن إلهًا كهذا .. عزيز ، حميد ، غنى : لهو أولى بالطاعة ، وأحق بالإيمان به، والخضوع له ، واتباع نبيه .
والنعيم .. لمن أطاعه ، وآمن به ، وخضع له ، واتبع نبيه وويل للكافرين به ، الذين لا يطيعونه ، ولا يؤمنون به ، ولا يخضعون له ولا يتبعون نبيه من عذاب شديد لهم يوم القيامة .

* * *

هؤلاء الكافرون به ، الذين لا يطيعونه ، ولا يخضعون له ، ولا يتبعون نبيه .. هم :

{ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ }
[الآية ٣]

أى : يتصفون بصفات ثلاث :

الأولى : أنهم يفضلون الدنيا على الآخرة ؛ فيعملون لها ، ويتركون الآخرة وراء ظهورهم نسيا منسيا .
الثانية : أنهم يصدون عن سبيل الله ، وعن دينه ، وعن الدعوة إليه ، إما بالتحريف ، أو بالتخويف ، أو بالمنع .
الثالثة : أنهم يريدون دعوة الله على هواهم ويبغونها عوجا أى : منحرفة عن المنهج الذى أراده الله .
أولئك فى ضلال بعيد عن الحق ، ولن يصلوا مما يريدون إلى شيء ؛ لأن دعوة الله مستقيمة فى نفسها ، لا يضرها – بإذن الله – من خالفها ، إلا من خذلها .

* * *

ومن نعم الله تعالى أنه .. كما يقول رب العزة :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ٤]

يعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول من إخوانك المرسلين إلا متحدثا بلسان قومه أى : بلغتهم ليبين لهم رسالة الله ؛ ويفهموه .
فيضل الله بعد هذا البيان من يشاء الضلال ويحبه ويهواه ، ويهدى من يشاء الهداية ويحبها ويختارها .
وكل ذلك بإذنه ومشيئته وهو العزيز الحكيم فى هذا وذاك .

* * *

وهذا .. واحد من الرسل ، الذين أرسلناهم بلسان قومهم ، ولغتهم .
يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }
[الآية ٥]

يقول الإمام ابن كثير فى معنى هذه الآية : وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم ، وتدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور .. كذلك : أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل بآياتنا ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

ثم قال له ربه – أى لموسى – وذكرهم بأيام الله أى : بنعمه عليهم ، من إخراجهم من أسر فرعون وقهره لهم ، ومن إنجائهم من الغرق ... إلى غير ذلك من النعم الكثيرة .

حيث إن فى ذلك أى : فيما حدث لبنى إسرائيل لآيات وعبر وعظات لكل صبار على البلايا شكور على العطايا ، يتعظ بها ، ويفيد منها ، لو كان ممن يعقلون ..!!

* * *

ثم يقول ربنا للمصطفى صلى الله عليه وسلم :

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ }
[الآية ٦]

يعنى : و اذكر يا محمد لقومك ؛ لعلهم يعتبرون إذ قال موسى لقومه بنى إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم واشكروه إذ أنجاكم سبحانه وتعالى من عذاب آل فرعون حينما كانوا يسومونكم أى : يذيقونكم وينزلون بكم سوء العذاب أسوأ ألوانه ، وأشد أنواعه ، كما كانوا يذبحون أبناءكم لتعجيزكم ويستحيون نساءكم لخدمتهم ، وإذلالكم .

وفى ذلكم الذى كان يحدث لكم بلاء واختبار لكم من ربكم عظيم أى: هل ترضون بالذل والهوان ، أو تنشدون الحرية مع الإيمان ..؟

وهل تشكرون على النعمة والسراء ، أو تكفرون على النقمة والضراء ..؟

* * *

واذكر أيضا يا محمد لقومك ما قاله موسى لقومه ..
حيث قال :

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }
[الآية ٧]

وإذ تأذن ربكم أى : وعدكم ربكم بقوله لئن شكرتم نعمى عليكم لأزيدنكم إنعاما وفضلا ولئن كفرتم أى : جحدتم هذه النعم ، ولم تشكرونى عليها بمزيد الطاعة إن عذابى لكم فى هذه الحالة لشديد الوقع والإيلام .

* * *

{ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ }
[الآية ٨]

يعنى : وقال موسى لهم أيضا إن تكفروا بنعم الله عليكم يا بنى إسرائيل، ولا تشكروه عليها أنتم ومن فى الأرض جميعا معكم فى هذا الكفران : فإن الله لغنى عن شكركم وشكرهم حميد أى : محمود فى ذاته ، لا يحتاج إلى حمد من ينعم عليهم من عبيده .

* * *

وبعد أن ذكر الله طرفا من قصة موسى .. ليتعظ بها كفار مكة ..

أتبع ذلك بقصص بعض الأمم التى عاندت رسلها ، وكفرت بربها ، لينتبه كفار مكة إلى ما حدث منهم ولهم ؛ وليحذروا مصيرهم .

حيث يقول لهم مباشرة على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم :

{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ }
[الآية ٩]

يعنى : ألم ياتكم يا كفار مكة نبأ أى : خبر الذين من قبلكم من الأمم السابقة .. مثل قوم نوح عليه السلام وعاد قوم هود عليه السلام وثمود قوم صالح عليه السلام .

و كذلك نبأ الذين من بعدهم وهم أمم كثيرة لا يعلمهم إلا الله .

هؤلاء جميعا جاءتهم رسلهم بالبينات من الله على دين التوحيد ، وعبادة الله .

فـــ ما كان من هذه الأمم ، إلا أنهم ...

ردوا أيديهم فى أفواههم بالتكذيب ، بدل من أن يمدوها إلى رسلهم بالمبايعة والتصديق والمتابعة .

وقالوا لهم ، بعناد ومكابرة ، وجهل إنا كفرنا بما أرسلتم به من التوحيد، وعبادة الله .

وإنا كذلك لفى شك مما تدعوننا إليه مريب لا تطمئن إليه النفس ، ولا يستريح له البال .

* * *

وهنا .. أيها الإخوة والأخوات ...

{ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }
[الآية ١٠]

أى : قالت لهم رسلهم متعجبين من مقالتهم ، ومنكرين عليهم صدورها منهم أفى الله شك وأدلة وجوده وألوهيته كثيرة فى الوجود ، ظاهرة للعيان .
ومن هذه الأدلة الظاهرة .. أنه فاطر السموات والأرض أى : خالقهما ، وهذا أمر لا يدعيه أحد أبدا .
وهو سبحانه يدعوكم إلى الإيمان به ، وتوحيده ، وعبادته ليغفر لكم من ذنوبكم إذ آمنتم .
وكذلك يؤخركم بلا عذاب ، أى : يجعلكم تعيشون فى سلام وأمان إلى أجل مسمى وهو الموت .
أتدرون .. أيها الأفاضل ماذا قالت لهم أقوامهم ..؟
قالوا لهم إن أنتم أى : ما أنتم إلا بشر مثلنا لا ميزة لكم علينا ، فكيف نتبعكم ونحن مثلكم سواءً بسواء .؟
بل أنتم فقط تريدون أن تصدونا وتمنعونا عما كان يعبد آباؤنا ..
على كل حال فأتونا بسلطان مبين بعلامة واضحة ، وآية بينة على نبوتكم ونحن نتبعكم .

* * *

وهنا أجابت الرسل عليهم بكل وضوح .. حيث :

{ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }
[الآية ١١]

والمعنى : أن الرسل لم تنكر بشريتها ، ولم تدع ما ليس لها ، ولكن ردوا الفضل لله ، واعترفوا بالنعمة لله ولكن الله يمن بالنبوة والرسالة على من يشاء من عباده وكنا نحن من هؤلاء الذين تفضل عليهم بها .
ولذلك : ولأن النبوة فضل من الله ما كان لنا وما نستطيع أن نأتيكم بسلطان أى : بآية تقترحون علينا أن نأتى بها إلا بإذن الله ومشيئته .
وعلى الله فليتوكل المؤمنون ويثقوا به فى كل أحوالهم ، ويصبروا فى معاداتكم ، ونحن كذلك : نتوكل عليه ، ونحتمى به سبحانه .

* * *

ثم قالوا ..

{ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ }
[الآية ١٢]

أى : ولم لا نتوكل على الله ونثق فيه ، ونحتمى به وقد فعل بنا ما يدعونا إلى هذا التوكل عليه .. ومن ذلك : أنه هدانا سبلنا أى : الطرق التى نعرفه سبحانه بها.
و على كل حال لنصبرن على ما آذيتمونا به من الأقوال والأفعال ، ولنتوكل عليه ، ونحتمى به وعلى الله فليتوكل المتوكلون أى : من أراد التوكل الحقيقى ، والاعتماد الراسخ .. فعلى الله تعالى ، لا على غيره .

* * *

ولما وصل الأمر إلى هذا الحد ، الذى انقطعت فيه حبال الكافرين فى عنادهم مع الرسل ، وعجزوا عن النقاش ، ورأوا صلابة هؤلاء الرسل الدعاة فى مواقفهم : لجئوا إلى التهديد والتخويف .
يقول تعالى :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ }
[الآيتان ١٣ ، ١٤]

يعنى : لجأ الطغاة إلى آلات بطشهم وظلمهم ، كما هى عادتهم عند عجزهم عن الحوار والمناقشة ..
حيث قالوا لرسلهم مهددين لنخرجنكم من أرضنا أى : بلادنا ، وننفيكم ونبعدكم عنها ، ما دمتم مصرين على دعوتكم أو لتعودن فى ملتنا أى : فى ديننا ، وتتركون دعوتكم .
وأمام هذا التهديد ورغبة البطش ..
وما دام الأنبياء .. قد بلغوا رسالتهم ، وأدوا مهمتهم ..
تدخلت العناية الإلهية ..
فأوحى إليهم ربهم بما يثبتهم ، ويرد عنهم كيد الظالمين قائلا لهم لنهلكن الظالمين ونحفظكم ولنسكننكم الأرض أى : البلاد من بعدهم .
وذلك الاستخلاف .. لمن تحققت فيه صفتان :
الأولى : خاف مقامى أى : خاف من الوقوف أمام ربه فى يوم الحساب .
الثانية : وخاف وعيد أى : خاف وعيدى بالعذاب ، للكافرين والعصاة .

* * *

وبهذا حمى وطيس الخلاف بين الفريقين ، وانقطع حبل النقاش .

{ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ }
[الآية ١٥]

أى : واستفتحوا جميعا ، يعنى : استنصروا ، وطلب كل فريق النصر على الفريق الآخر .
وكانت النتيجة .. أنه خاب الكافرون .
حيث إن الله يخذل كل جبار متجبر فى نفسه ، وعلى غيره عنيد معاند للحق ، متكبر عليه .

* * *

ومع خيبة كل جبار عنيد .. أيها الأحباب ..!!
فإنه :

{ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ }
[الآيتان ١٦ ، ١٧]

يعنى من ورائه أى : أمام هذا الكافر الجبار العنيد جهنم تنتظره ، ليعذب ويخلد فيها ..
ويسقى وهو فيها من ماء صديد وهو ما يسيل من جلود أهل النار يتجرعه يشربه جرعة جرعة ولا يكاد يسيغه وهو يبلعه لقبحه ونتنه وكراهته .
و فى ذات الوقت يأتيه الموت أى : أسبابه وآلامه لو كان سيموت ، و لكن ما هو بميت حتى يستريح من هذه الآلام .
ومن ورائه أى : ينتظره عذاب غليظ ، أشد مما هو فيه .

* * *

أيها الفضلاء ..
إن الذى قرأناه .. هو مثل الذين كفروا ..
فما مثل أعمالهم ، التى نراها ، وقد نبهر بها ..؟
يجيب ربنا قائلا :

{ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ }
[الآية ١٨]

أى : مثل الذين كفروا بربهم هو ما تلوناه عليكم .

أما مثل أعمالهم .. فهى كرماد حمله الهواء واشتدت به الريح وذلك فى يوم عاصف بذر هذا الرماد ، وفرقه فى كل ناحية ، حتى أصبحوا لا يقدرون على جمعه مرة ثانية .

وهكذا .. ثواب أعمالهم التى عملوها فى الدنيا .. من صلة الأرحام ، والعطف على الفقراء .. إلخ لا يقدرون يوم القيامة على الحصول مما كسبوا من ثواب ما عملوا على شيء يفيدهم .

ورحم الله شاعر البؤس .. حينما اقتبس هذا المعنى وصاغه فى هذه الأبيات التى صور بها حاله .. قائلا :

إن حظى كدقيق بين شوك نثروه
ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه
صعب الأمر عليهم قال قوم اتركوه
إن من أشقاه ربى كيف أنتم تسعدوه

ثم يقول ربنا عز وجل على ضياع ثواب أعمال الكافرين :
ذلك هو الضلال البعيد .

* * *

ويخاطب ربنا كل أحد .. فيقول :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ }
[الآيتان ١٩ ، ٢٠]

يعنى : ألم تر أيها الإنسان أن الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق لغاية وحكمة ، ولم يخلقهما عبثا .. فيدفعك هذا إلى الإيمان به ، وتوحيده ، وعبادته .

إن يشأ سبحانه يذهبكم بعدمكم بالموت ، أو الإهلاك ؛ إن لم تؤمنوا ، وتوحدوا ، وتطيعوا ويأت بدلا منكم بخلق جديد يفعلون ذلك وما ذلك الإعدام ، والمجيء بالخلق الجديد بعزيز على الله تعالى .

* * *

ثم يحدثنا ربنا ، ويعرض علينا ، مشهدا من مشاهد يوم القيامة .. فيقول :

{ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ }
[الآية ٢١]

أى : وبرزت الخلائق كلها لله فى يوم القيامة ، لا يسترهم شيء ، ولا تخفى على الله منهم خافية .
ويدور هذا الحوار بين الكفار وبعضهم البعض .
يقول تعالى :
فقال الضعفاء فى الرأى ، وهم الأتباع للذين استكبروا عليهم ، وعلى عبادة الله ، واتباع الرسل : إنا كنا لكم تبعا أى : تابعين لكم ، نفعل ما تريدون ، ونطيعكم فيما تأمرون به ، ونحن نعذب الآن بسبب هذه الطاعة لكم .
فهل أنتم مغنون ومبعدون عنا من عذاب الله هذا الذى ينزل بنا من شيء ولو يسيرا ..؟
قالوا أى : الذين استكبروا ؛ جوابا لهم .. اسكتوا عنا ، فنحن نعذب مثلكم ، ولو هدانا الله إلى طريق النجاة من العذاب لهديناكم إليه .
ولكن سواء علينا وعليكم أجزعنا من العذاب أم صبرنا عليه ما لنا من محيص أى : مهرب من هذا العذاب .

* * *

ومن المشاهد كذلك .. أنه بعد أن يدخل المؤمنون الجنة ، ويزج بالكافرين فى النار : يقف إبليس عليه لعنة الله خطيبا فى الكافرين ؛ ليزيدهم حزنا على حزن وحسرة على حسرة .
يصور ذلك .. قوله تعالى :

{ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ٢٢]

أى : وقال الشيطان أيضا لما قضى الأمر وفصل بين الخلائق ، ودخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ..!!
قال للكافرين : مبكِّتا إن الله وعدكم خيرا .. إن آمنتم به ، ووحدتموه ، وعبدتموه ، وكان وعده وعد الحق الذى لا خلف فيه .. وأما أنا ، فـــ وعدتكم خيرا .. إن لم تؤمنوا ، وتوحدوا الله ، وتطيعوه ، وكان وعدى كاذبا

فأخلفتكم وضيعتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان أى : قوة أرغمكم بها على اتباعى ومطاوعتى ، حين دعوتكم إلا أن دعوتكم فقط بوسوستى فاستجبتم لى بمجرد الدعوة .

وعلى هذا .. فلا تلومونى على خيبتكم ، وضياعكم ، وعذابكم ، و لكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم ؛ حيث إنكم اتبعتمونى على الباطل بمجرد دعوتى لكم .

واعلموا جيدا .. أنه ما أنا بمصرخكم أى : بمغيثكم ، ولا بمنقذكم وما أنتم بمصرخى كذلك ، من عذاب الله .

إنى كفرت اليوم ، وتبرأت من عبادتكم لى ، ومطاوعتكم لوسوستى ، كما كفرت بما أشركتمون من قبل مع الله ، فى عبادتكم .

وقد ظلمتم أنفسكم بهذا الذى فعلتموه .

وإن الظالمين لهم عذاب أليم .

* * *

أيها المؤمنون الكرام ..

لما شرح ربنا بعض أحوال الكفار الأشقياء ..

أتبع ذلك ببيان مصير المؤمنين السعداء ، جعلنا الله وإياكم منهم ، فقال :

{ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ }
[الآية ٢٣]

أى : وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات أى : أدخلتهم الملائكة جنات تجرى من تحتها الأنهار ينعمون بها حيث ساروا فيها ، وحيث أقاموا خالدين فيها أبدا ، لا يُحوَّلون عنها ، ولا يزولون منها بإذن ربهم كل ذلك .. من إدخال الملائكة لهم ، والخلود فيها تحيتهم فيها من الله لهم ، ومن الملائكة ، وفيما بينهم سلام .

* * *

ثم ضرب الله مثلا للكلمة الطيبة التى تدخل صاحبها الجنة فقال :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }
[الآيتان ٢٤ ، ٢٥]

يعنى ألم تر أى : ألم تعلم كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة أى : مثلا للكلمة الطيبة ، وهى "لا إله إلا الله" ..؟

إن كنت لا تعلم .. فاعلم أن مثلها كشجرة طيبة أصلها ثابت راسخ ، لا يهتز ، ولا يتزعزع وفرعها فى السماء عال مرتفع ، يزهو بشموخه وعزته .

وهذه الشجرة تؤتى أكلها كل حين ثمارها ، التى ينتفع بها ، بإذن ربها وتيسيره ، وتكوينه لها .

و هكذا يضرب الله الأمثال الموضحة للناس لعلهم يتذكرون فيفهمون ؛ فيزدادون إيمانا .

* * *

وبعد هذا المثل ..

أتبع ربنا فى آياته ضرب مثل آخر للكلمة الخبيثة التى تدخل صاحبها النار ..

فقال :

{ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ }
[الآية ٢٦]

أى : ومثل كلمة خبيثة .. وهى : كلمة الشرك والكفر والضلال .. مثل : شجرة خبيثة لا أصل لها ، ولا ثمر ، ولا نفع منها اجتثت قطعت من فوق الأرض بسهولة ؛ حيث ما لها من قرار أى : أصل ، أو جذور ، أو ثبات .

وهكذا : كلمة الكفر .. لا أصل لها فى الفطرة البشرية ، ولا قرار لها فى النفس الإنسانية الصافية ، ولا بركة فيها لأحد .

* * *

ثم يعقب ربنا على هذين المثالين بقوله :

{ يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء }
[الآية ٢٧]

يعنى : يثبت الله بمشيئته الذين آمنوا بالقول الثابت وهو قول لا إله إلا الله ، ويديمهم عليه فى الحياة الدنيا لا يتزعزعون فيه ، ولا يتحولون عنه وفى الآخرة أى : فى القبر ، وهو بداية مراحل الدار الآخرة ، يلقنون الجواب ، ويمكنون من الصواب .

هذا ..

و من جهة أخرى يضل الله الظالمين بمشيئته ، فلا يهديهم إلى الحق ، ولا يوفقهم إليه .

ويفعل الله فى هذا وهذا ما يشاء لا يسأل عما يفعل ، ولا اعتراض عليه .. لا فى تثبيت المؤمنين ، ولا فى إضلال الظالمين .

* * *

ثم يتعجب الله من أفاعيل الكافرين ، التى لا تصدر عمن له أدنى وعى وإدراك ..
فيقول :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ }
[الآية ٢٨]

يعنى : ألم تر أى : تنظر أيها العاقل المتدبر إلى الذين بدلوا أى : غيروا نعمة الله كفرا أى : بدل من أن يشكروا الله على نعمه كفروا به سبحانه ، وغيروا شريعته ، ولم يعملوا بتعاليمه .
و بذلك أحلوا قومهم يعنى : أسكنوا أتباعهم دار البوار .

* * *

ولكن ..
ما دار البوار هذه ..؟
إنها :

{ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ }
[الآية ٢٩]

أى : جهنم هى دار القرار ، التى يقيمون فيها مع أتباعهم ويستقرون .
يصلونها يدخلونها ، وهم يحترقون .
و حقا بئس هذا القرار لهم قرارا .

* * *

وهؤلاء لم يبدلوا نعمة الله كفرا فقط .
بل يقول عنهم ربنا عز وجل :

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ }
[الآية ٣٠]

يعنى : أنهم جعلوا أيضا لله أندادا شركاء يعبدونهم ليضلوا هم ، ويُضلوا غيرهم عن سبيله وهو دين الإسلام .

لا تهتم بهم ، ولا تحزن عليهم ، وقل لهم مهددا ومخوفا :

تمتعوا بدنياكم ، ولهوكم فيها فإن مصيركم ونهايتكم إلى النار فيها تعذبون ، وفى دركاتها تخلدون .

* * *

وإذا كان هؤلاء : قد انحرفوا ، وضلوا ..!!

فإن غيرهم يسعدون بتلقى أوامر الله ، وتنفيذها .

يقول تبارك وتعالى لحبيبه :

{ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ }
[الآية ٣١]

أى : قل يا محمد لعبادى الصالحين الذين آمنوا :

يقيموا الصلاة بالمحافظة على أدائها كاملة ، فى أوقاتها .

وينفقوا مما رزقناهم من أموال وجهد وعلم وغير ذلك سرا وعلانية بما يناسب كل وقت وحال ..

وذلك .. أى إقامتهم للصلاة ، وإنفاقهم من قبل أن يأتى عليهم يوم القيامة، الذى لا بيع فيه ولا إنفاق ، ولا صلاة ، ولا أى عمل ولا خلال أ ى : صداقات تنفع ، ولا قرابات تشفع .

* * *

وهذا التهديد للكافرين ، الذى قرأناه .

وكذلك هذا التشريف للمؤمنين بالأوامر العلوية .

هذا .. وذاك : من الله تعالى .

الذى يقول عن نفسه :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ }

[الآيات ٣٢ - ٣٤]

في هذه الآيات الكريمة : يبين ربنا تبارك وتعالى أنه أنعم على عباده بسبعة أشياء ، فيها الدلالة الكاملة – لمن أراد أن يفهم – على وحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، سبحانه وتعالى .

حيث يقول عز وجل :

الله ربكم ، هو الذى اختص بهذه الأشياء ، ويعلمها لا غيره ، ويقدر عليها لا غيره .. فوحدوه ، واعبدوه .

الأول : خلق السموات والأرض على هذا الشكل البديع النافع .

الثانى : وأنزل من السماء أى : السحاب ماءً لكم ، على الأرض فأخرج به من الثمرات الكثيرة ، المتنوعة رزقا من الله لكم .

الثالث : وسخر لكم الفلك أى : السفن لتجرى فى البحر فتنتفعون بها بأمره وإذنه ، بعد أن ألهمكم صنعها .

الرابع : وسخر لكم الأنهار تنتفعون بها فى الشرب ، وسقى الزروع والثمار.

الخامس : وسخر لكم الشمس والقمر دائبين يجريان دائما فى مصالح العباد، لا يهدآن ولا يقفان إلى آخر الدهر .

السادس : وسخر لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا فيه من فضل الله، وهما يتعاقبان فى نظام دقيق لا يختل .

السابع : وآتاكم من كل ما سألتموه على حسب مصالحكم ، وهيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى حياتكم .

هذا .. وإن تعدوا نعمة الله أى : إن تحاولوا عد نعم الله إجمالا لا تحصوها أبدا ، فكيف لو حاولتم عد أنواعها تفصيلا .

كل ذلك .. وقليل من عباد الله الشكور ..!!

كل ذلك .. وهناك من لا يوحده ، ولا يعبده ، ولا يطيعه .

حقا إن الإنسان جنس الإنسان لظلوم كفار فى الشدة : يشكو ، وفى النعمة : يجمع ويمنع ، ولله لا يطيع ويخضع .

* * *

أيها الأحبة فى الله ..

يقول ربنا لحبيبه صلى الله عليه وسلم : يا محمد .. قومك بدلوا نعمة الله كفرا ولم يشكورا الله على ما آتاهم من النعم الوفيرة .

ذكرهم بإبراهيم ، الذى كان وجوده فى هذه المنطقة ، سبب وجودهم ، وسبيل إنعام الله عليهم .. لعلهم يعتبرون ؛ فيؤمنون .

قل لهم يا محمد :

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ }
[الآية ٣٥]

أى : اذكر لقومك .. وذكرهم إذ قال إبراهيم يوم أن ترك زوجه وولده ، فى هذا المكان الذى تقيمون فيه ، وكان قفرا خاليا من ألوان الحياة رب اجعل هذا البلد آمنا ذا أمن لأهله ، ومن دخله واجنبنى وأبعدنى وبنى أولادى وذريتى من أن نعبد الأصنام .

* * *

ثم تحدث عن هذه الأصنام وخطورتها قائلا :

{ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٣٦]

يعنى : يا رب إنهن أى : الأصنام أضللن كثيرًا من الناس لذا سألتك العصمة ، واستعذت بك من إضلالهن .
فمن تبعنى واجتنبهن ، وابتعد عنهن ، ولم يعبد سواك فإنه منى .
ومن عصانى وضل بسببهن ، أو بغير ذلك : فالأمر مفوض إليك فإنك غفور رحيم إن شئت هديته ، فآمن ، فغفرت له ورحمته .

* * *

وبعد أن تحدث عن الأصنام ، واستعاذ بالله منها ..
تحدث عن ذريته ، وصار يدعو لهم ..
حيث قال :

{ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }
[الآية ٣٧]

أى : يا ربنا إنى أسكنت بناءً على أمرك ووحيك من ذريتى أى : بعض ذريتى بواد غير ذى زرع وهو : مكة عند بيتك المحرم .

وقد أسكنتهم فى هذا المكان ، يا ربنا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ، فوفقهم إلى ذلك ، وأعنهم عليه .

يا رب .. ولأن المكان خال موحش فاجعل أفئدة قلوبا من بعض الناس وهم المؤمنون تهوى أى : تسرع وتطير شوقا إليهم وإلى مكانهم هذا، حجاجا ، وعمارا ، وزوارا .

يا رب .. ولأن المكان بواد غير ذى زرع ارزقهم بفضلك من الثمرات التى يحتاجون إليها ، ويعيشون بها . لعلهم يشكرون النعمة ، عندما تهوى إليهم هذه القلوب ، ويرزقون من الثمرات .

* * *

وبعد أن أسكنهم إبراهيم عليه السلام فى هذا المكان .. !!

وبعد أن دعا لهم بهذا الدعاء .. !!

أراد أن يعود – بأمر ربه – إلى الشام ، تاركا لهما ..!!

قالت له زوجه : إلى من تتركنا وتكلنا ..؟

قال : إلى الله .

قالت : الحمد لله .. إذا لن يُضيّعَنا .

وهنا : دعا ربه قائلا :

{ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء }
[الآية ٣٨]

أى : قال : ربنا إنك تعلم أحوالنا ، وما يصلحنا ، وما يفسدنا ، وأنت أرحم بنا ، وتعلم ما نخفى وما نعلن فلا حاجة بنا إلى الطلب ؛ لأنه ما يخفى عليك من شيء فى الأرض ولا فى السماء .

وإنما ندعوك إظهارًا للعبودية لك ، وتخشعا لعظمتك ، وتذللا لعزتك ، وافتقارًا لما عندك .. فلا تكلنا إلى غيرك ، ولا تترك أمورنا لسواك .

* * *

وسافر إبراهيم عليه السلام إلى الشام ..!!

وعاشت هاجر مع ولدها إسماعيل عليه السلام فى هذا المكان ..!!

واستجاب الله دعاء إبراهيم .. وعمر المكان ، وسيظل عامرا بأهله وحجاجه ، وعماره ، وزواره إلى آخر الزمان ، ورزق الله الجميع من أطيب الثمرات .

ومرت الأيام .. ورزق إبراهيم ، بعد ذلك من سارة بإسحق عليه السلام .

وشكر إبراهيم ربه قائلا :

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ }
[الآية ٣٩]

أى : قال شاكرا لربه .. الحمد لله الذى وهب لى أعطانى على الكبر ولدىَّ إسماعيل وإسحق .
إن ربى كريم عظيم وإنه لسميع الدعاء الذى سألته إياه .. حينما قلت رب هب لى من الصالحين [الصافات ١٠٠] .

* * *

ثم دعا لنفسه وذريته قائلا :

{ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ }
[الآية ٤٠]

يعنى : يا رب اجعلنى مقيم الصلاة أى : مواظبا عليها ، محافظا لها ومن ذريتى كذلك .
يا ربنا وتقبل دعاء هذا ، وغيره .
لاحظ أخى المسلم : بماذا دعا .. ؟
إنه لم يدع ربه إلا بأن يجعله مقيما للصلاة .. !!
اللهم ارزقنا إجابة ما دعا إبراهيم يا رب ..

* * *

ثم ختم دعاءه .. بالدعاء لنفسه ، ولوالديه ، وللمؤمنين ..
قائلا بما نتعلم منه الدعاء الطيب :

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ }
[الآية ٤١]

أى : يا ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين مغفرة تنفعنا ، وننعم بها يوم يقوم الناس للحساب .

* * *

أيها الكرام ..
ولأن السورة تعطى جزءا كبيرا من اهتمامها للحديث عن :
الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا [الآية ٣] .
الذين قالوا ويقولون للدعاة إلى الله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا [الآية ١٣] .
الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار [الآية ٢٨] .
الذين جعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله [الآية ٣٠] .
وكل هؤلاء : من الظالمين ..
فهى تتحدث عن الظالمين ، وفعل الله بهم فى يوم الحساب ، الذى طلب فيه إبراهيم عليه السلام مغفرة ربه ..

يقول تعالى :

{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء }
[الآيتان ٤٢ ، ٤٣]

يعنى : ولا تحسبن يا محمد ، أو يا أيها العاقل ، أو يا أيها المظلوم لا تحسبن الله سبحانه غافلا عما يعمل الظالمون بسبب إمهاله لهم ، وتأخيره عذابهم .
فهو عز وجل إنما يؤخرهم أى : يؤخر عذابهم ، والانتقام منهم ليوم القيامة ، وهو يوم تشخص فيه الأبصار تفتح ولا تغلق من هول ما ترى .
ساعتها .. يكونون خارجين من قبورهم مهطعين أى : مسرعين مقنعى رافعى رءوسهم إلى الأعلى لا يرتد إليهم طرفهم أى : لا تنطبق على بعضها البعض جفونهم .
و تكون أفئدتهم أى قلوبهم هواء كالهواء ، خالية من العقول ، أو الفهم ؛ لفزعهم .

* * *

ثم يقول ربنا للنبى عليه الصلاة والسلام :

{ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ }
[الآية ٤٤]

يعنى : وأنذر الناس يا محمد ، وخوفهم يوم القيامة يوم يأتيهم العذاب وينزل بهم .

فيقول الذين ظلموا ساعتها ربنا أخرنا أى : أخر عذابنا وردنا إلى الدنيا مرة ثانية ، وقتا نستدرك فيه ما فاتنا ، ونصلح فيه أخطاءنا ، ونكفر فيه عن سيئاتنا ، ونجب دعوتك فنؤمن بك ، ونوحدك ، ونعبدك ، ونعمل بشريعتك ، ونتبع الرسل الذين أرسلتهم لنا ، ونسير على طريقتهم .

فيقال لهم توبيخا وتبكيتا أو لم تكونوا أقسمتم وحلفتم من قبل ذلك ، وأنتم فى الدنيا ، قائلين ما لكم من زوال عن الدنيا إلى الآخرة أى : لا بعث لكم بعد هذه الحياة الدنيا ؟

* * *

ثم يقال لهم كذلك توبيخا وتبكيتا :

{ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـــاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ }
[الآية ٤٥]

أى : وسكنتم أنتم فى الدنيا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من قبلكم من الأمم السابقة .
وتبين لكم وظهر وعرفتم كيف فعلنا بهم من الإهلاك نتيجة ظلمهم .
و كذلك ضربنا لكم الأمثال فى القرآن ، للعظة والاعتبار .
ولكنكم .. لم تتعظوا ، ولم تعتبروا ، ولم تؤمنوا .

* * *

ثم يقول ربنا عن كفار مكة ..

{ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ }
[الآية ٤٦]

يعنى : وقد مكر كفار مكة بالنبى صلى الله عليه وسلم مكرهم المعروف؛ حيث أرادوا : قتله ، أو حبسه ، أو طرده وإخراجه من مكة .
وعند الله عز وجل .. جزاء مكرهم لا يفوتهم .
وإن كان مكرهم هذا .. لا مثيل له ، ولا أسوأ منه .. حيث مكرهم لتزول منه الجبال وهى جبال العقيدة الإسلامية الراسخة ؛ بتخلى محمد عنها ، وانصراف المؤمنين عن التمسك بها .

* * *

ثم يقول لحبيبه ، ولكل داعية إلى الله مطمئنا ، ومثبتا ، ومبشرا بالنصر .

{ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ }
[الآية ٤٧]

أى : اطمئن ، وثق فى نصر الله يا كل داع إلى الله ، ولا تحسبن أبدا ، أن الله تعالى مخلف وعده بالنصر رسله ودعاته إلى دينه على أعدائهم إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [غافر ٥١] .

حيث إن الله عزيز لا يغلبه أحد ، ولا يفلت من عقابه أحد ذو انتقام لأوليائه من أعدائهم .

* * *

وهذا الانتقام من الظالمين .. إن لم يكن فى الدنيا فإنه يكون ..

{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ }
[الآيات ٤٨ – ٥٠]

يعنى : يكون هذا الانتقام من الظالمين .. فى يوم القيامة يوم تبدل الأرض فيه ، وتكون أرضا غير الأرض التى نعرفها ، وتبدل السموات فيه ، وتكون سموات غير التى نعرفها .
وبرزوا أى : خرجوا من قبورهم ، امتثالا لأمر الله الواحد القهار .
وترى فى ذلك اليوم المجرمين وهم مقرنين مقيدين مع بعضهم البعض ، أو مع شياطينهم ، أو من أيديهم وأرجلهم فى الأصفاد أى : السلاسل والقيود .
وتكون سرابيلهم أى : ملابسهم من قطران يلذع جلودهم ، ويساعد فى إشعال النيران بأجسادهم .
وتغشى وجوههم التى هى أعز شيء ، وأهم شيء عندهم النار .

* * *

نعم .. وبرزوا لله جميعا من قبورهم ..

{ لِيَجْزِي اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

[الآية ٥١]

أى : يكون هذا الإخراج من القبور ، والبعث ليجزى الله تعالى كل نفس صالحة ، أو شريرة ما كسبت أى : جزاء ما كسبت وعملت فى الدنيا ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .
إن الله سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب ، كما أنه يتم بقدرة الله فى لمح البصر ، ولكنه طويل عسير على أهل الضلال .
نجانا الله من أهواله ، وخفف عنا من أثقاله .

* * *

ختاما ..

{ هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ }
[الآية ٥٢]

أى : هذا الكتاب ، الذى أنزلناه إليك يا محمد لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .
بلاغ وموعظة للناس ينتفعون به .
و أيضا لينذروا به ويخافوا من عذاب الله .
وليعلموا بما جاء فيه .. أنه أنما هو الله فقط إله واحد لا غيره يستحق أن يعبد .
و كذلك ليذكر ويعتبر ويفيد مما جاء به ، ويعمل به أولوا الألباب أى : أصحاب العقول الواعية الصافية .

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحى الفرماوى
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحجر

الحمد لله وكفى * وسلام على المصطفى * وعلى عباده الذين اصطفى .
أما بعد ..

فهذه سورة الحجر المكية ، والتى يدور محورها حول المصير المخيف للظالمين فى الآخرة ، وبعض ما نالهم فى الدنيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ }
[الآية ١]

{الر} هى من الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور،
وقد سبق الحديث عنها .
تلك آيات الكتاب أى : هذه معجزات الكتاب .
وقرآن مبين وهو : قرآن كثير التوضيح ، عن الله ، وصفاته ، ورسله ، وشرعه ، وحلاله ، وحرامه ، وعلل الإنسان وعلاجها .. إلى غير ذلك .

* * *

ثم يخبر ربنا فى مطلع السورة عن أن الكفار يوم القيامة سيندمون ، ويتمنون – لما يرون – أن لو كانوا مسلمين .
يقول تعالى :

{ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ }
[الآية ٢]

أى : سيتمنى الكفار يوم القيامة لما يرونه من العذاب الواقع بهم ، والنعيم يتمتع به المسلمون لو كانوا مسلمين فينجون ، ويسلمون من هذا العذاب .

* * *

ثم يقول ربنا لمحمد صلى الله عليه وسلم عن كفار مكة :

{ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٣]

يعنى : دعك من هؤلاء الكفار يا محمد ، واتركهم يأكلوا ويشتغلوا بلذاتهم ويتمتعوا بدنياهم ويلههم الأمل بطول العمر ، ودوام الصحة ، عن الإيمان وطاعة الله ، ولا تحزن عليهم .
فسوف يعلمون عاقبة أمرهم ، وسوء مآلهم .

* * *

ولما أمره ربه سبحانه بتركهم ، وعدم الانشغال بهم .
ذكر له علل ذلك وأسبابه ..
فقال فى السبب الأول :

{ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ }
[الآيتان ٤ ، ٥]

فى هاتين الآيتين : يبين ربنا أنه لم يؤخر العذاب عنهم إهمالا ، ولكن ليبلغوا أجلهم المقدر لتعذيبهم هذا .
والمعنى : أنه ما أهلكنا من أهل قرية لكفرهم إلا ولها كتاب أى : موعد مكتوب معلوم عند الله تعالى ، فى اللوح المحفوظ .
وفى حكمنا وسنتنا .. أنه ما تسبق من أمة ظالمة أجلها المحدد وما يستأخرون عنه .
وعلى هذا فدعهم يا محمد ، وسنتولى نحن أمرهم .

* * *

ثم قال سبحانه فى السبب الثانى :

{ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآيتان ٦ ، ٧]

أى : لأنـهم ..

أولا : قالوا استهزاءً بك يا أيها الذى نزل عليه الذكر أى : القرآن ، ولم يقولوا : يا محمد احتراما وتقديرا .

ثانيا : وصفوك بالجنون ؛ حيث قالوا إنك لمجنون لأنك تدعى النبوة ، وهذا قول المجانين .
ثالثا : أنك تهزأ بنا وتكذب علينا ؛ إنك لو ما تأتينا بالملائكة تشهد لك فأت بها إن كنت من الصادقين .

* * *

وقد رد الله عليهم .. بقوله :

{ مَا نُنَزِّلُ المَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }
[الآيتان ٨ ، ٩]

يعنى : نحن ما ننزل الملائكة لمجرد اقتراحهم بنزولها ، وما ننزلها إلا بالحق وهو العذاب ، والعذاب له أجل محدد .
ولو نزلت الملائكة كما يقترحون ما كانوا إذا أى : حين نزولها منظرين مؤخرين العذاب ، بل لهلكوا فى ساعتها .
كما أن إنزال القرآن عليك .. قد تم بطلبك ، أو أنه من صنعك كما يزعمون ، بل إنا نحن الذين نزلنا الذكر أى : القرآن ، بوحينا وأمرنا وإنا له لحافظون كذلك ، من التحريف ، والتبديل ، والزيادة أو النقص .
وعلى هذا .. فدعهم يا محمد ، وسنتولى نحن أمرهم .

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى ، فى السبب الثالث ، لأمره للنبى بتركهم ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ }
[الآيات ١٠ – ١٣]

أى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلا فى شيع فوق الأولين من الأمم السابقة .

هذه الفرق من الأمم السابقة .. كانوا ما يأتيهم من رسول من هؤلاء الرسل يبلغهم عن الله ، ويدعوهم إلى الإيمان به إلا كانوا به وبدعوته يستهزئون كما يفعل الكفار من قومك معك .

وكذلك الكفر والاستهزاء الذى كان فى قلوب السابقين نسكله أى: ندخله فى قلوب المجرمين من قومك .

حيث إنهم لا يؤمنون به بالقرآن ، وما فيه من إنذارهم بالعذاب وقد خلت أى : سبقت سنة الأولين بتعذيبهم على كفرهم ،وهؤلاء مثلهم سيعذبون إن ظلوا على عنادهم وكفرهم .

وعلى هذا .. فدعهم يا محمد ، وسنتولى نحن أمرهم .

* * *

ثم يقول المولى فى السبب الرابع :

{ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ }
[الآيتان ١٤ ، ١٥]

يعنى : هؤلاء لو فتحنا عليهم بابا من السماء آية ؛ ليؤمنوا فظلوا فيه أى : فى هذا الباب يعرجون يصعدون فى السماء ، آية ؛ ليؤمنوا أيضا .. لما آمنوا ، ولقالوا عنادا وكفرا وتكذيبا إن الذى نراه ، ويحدث لنا ما هو إلا خيال ، ونحن قد سكرت حبست أبصارنا عن الرؤية الحقيقية .. ، لا بل نحن قوم مسحورون سحرنا محمد لنؤمن به ، ونتبع دعوته .

وعلى هذا .. فدعهم يا محمد ، وسنتولى نحن أمرهم .

* * *

وبعد أن استقر هذا الأمر الإلهى لمحمد صلى الله عليه وسلم فذرهم يأكلوا.. .

وبعد أن اتضحت علله وأسبابه ..

يحدثنا رب العزة عن بعض الظواهر الكونية الدالة على وجوده ، بما لا يقبل إنكارا ، ولا يحتمل جدلا ..

فيقول سبحانه :

{ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ }
[الآيات ١٦ – ١٨]

أى : ولقد خلقنا فى السماء بروجا يعنى : منازل للنجوم ، والكواكب ، ومسارات تنزل بها ، وتسير فيها .

وزيناها أى : السماء بالكواكب والنجوم للناظرين إليها بأبصارهم ، والمعتبرين بها ببصائرهم .

وحفظناها بقدرتنا من دخول كل شيطان رجيم إليها .

إلا أى : لكن من استرق السمع منهم ، أى : حاول سرقة المسموع من أخبار الغيب فأتبعه ولحقه ، ودمره شهاب أى : شعلة نار، أو جزء من مادة النجوم مبين ظاهر للناظرين .

* * *

كذلك من هذه الظواهر الكونية الدالة على وجود الله بما لا يقبل إنكارا ، ولا يحتمل جدالا .. ما يذكره سبحانه فى قوله :

{ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ }

[الآيات ١٩ – ٢١]

أى : و لقد خلقنا الأرض لسكناكم ، ومددناها بسطناها ، وجعلناها صالحة لمعيشتكم عليها وألقينا فيها رواسى أى : جبالا راسيات ؛ لئلا تهتز بأهلها ، فى حركتها .

و من إنعامنا عليكم ؛ أننا أنبتنا فيها من كل شيء تحتاجونه بقدر موزون بميزان الحكمة .

و كذلك جعلنا لكم فيها معايش من المطاعم والمشارب التى يعيش بها وعليها الإنسان .

و رزقنا من لستم له برازقين أى : رزقنا ما تنتفعون به من الدواب والأنعام وغيرها ، حيث إن الرازق لكم ولهم هو الله .

وليكن معلوما ..

أنه ما من شيء فى الكون إلا عندنا مفاتيح خزائنه التى هو محفوظ فيها.

كما أننا ما ننزله من هذه الخزائن ، لمن نرزقهم به إلا بقدر معلوم مقدر ، على حسب المصالح .

* * *

وثالثا : من هذه الظواهر الكونية ، الدالة على وجود الله ، بما لا يقبل إنكارا ، ولا يحتمل جدالا ..
ما يبينه سبحانه وتعالى فى قوله :

{ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ }

[الآية ٢٢]

يعنى : وأرسلنا لكم بقدرتنا الرياح فى الجو لواقح أى : تلقح السحاب ؛ فيمتلئ ماءً .

فأنزلنا لكم بقدرتنا من السماء أى : من السحاب هذا الماء ، مطرا .

فأسقيناكموه يعنى : جعلناه سقيا لكم ، ولأرضكم ، ومواشيكم وما أنتم له بخازنين أى : ليست مفاتيح خزائنه بأيديكم ، بل بأيدينا نحن .

* * *

ورابعا : يدل ربنا على وجوده ، وقدرته ، بما لا يقبل إنكارا ، ولا يحتمل جدالا .. بظاهرة الإحياء والإماتة ، وموضوع البعث .

فيقول تبارك وتعالى :

{ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }
[الآيات ٢٣ – ٢٥]

أى : وإنا فقط لنحن الذين نحيى بالخلق الخلائق كلها ، ونميت بقدرتنا من جاء أجله منهم .

ونحن فقط الباقون الوارثون حيث يزول كل مالك ، ويبقى ملك المالكين لنا .

وإن ربك هو الوحيد ، القادر ، الذى يحيط بجميع الخلائق ، ويعرف حصرهم يحشرهم للحساب يوم القيامة .

إنه سبحانه حكيم فى صنعه عليم بخلقه .

* * *

وخامسا : يدل ربنا عز وجل على وجوده وقدرته بما لا يقبل إنكارا ، ولا يحتمل جدالا .. بخلق الإنسان ، وخلق الجان .

فيقول ربنا عز سلطانه :

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ }
[الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

يعنى : ولقد خلقنا بقدرتنا الإنسان أى : أصله ، وهو آدم عليه السلام من صلصال من حمأ أى : من طين أسود مسنون أى : مصبوب مفرغ .

يقول الإمام النسفى : كان ترابا ، فعُجن بالماء فصار طينا ، فمكث وغاب هكذا ، فصار حمأ ، فخلص فصار سلالة ، فصور ويبس فصار صلصالا ، ومنه خلق آدم .

والجان كذلك خلقناه بقدرتنا من قبل خلق آدم ، لكن .. ليس من طين، بل خلقناه من نار السموم أى : من النار الشديدة الحرارة ، النافذ حرها إلى المسام .

* * *

هذا ..

ولما ذكر ربنا عز وجل ، خلق الإنسان الأول ، واستدل بذكره على وجود الإله ، وقدرته : ذكر بعد ذلك واقعة أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس فإنه أبى وتمرد .

يقول تعالى :

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ }

[الآيتان ٢٨ ، ٢٩]

أى : اذكر يا محمد لقومك وللدنيا كلها إذ وقت أن قال للملائكة ربك إنى خالق بشرا أى : إنسانا من جسم كثيف يباشر ويلاقى ، بخلاف أجسامكم اللطيفة، التى لا تباشر ، ولا تلمس .

فإذا سويته أى : صورته ، وسويت خلقه بالصورة الإنسانية ، والخلقة البشرية ونفخت فيه روحا ، هى بعض من روحى أى : الأرواح التى خلقتها فقعوا له ساجدين سجود تحية وانحناء .

* * *

تسأل عزيزى القارئ .. ماذا فعلت الملائكة ؟

والجواب :

{ فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ }

[الآيتان ٣٠ ، ٣١]

نعم .. فسجد الملائكة فورا كلهم أجمعون لهذا الأمر الإلهى ؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون [التحريم ٦] .

إلى إبليس وهو أبو الجن ، والذى كان بين الملائكة أبى وامتنع أن يكون مع الملائكة الساجدين بأمر الله لآدم عليه السلام .

* * *

وماذا حدث بعد ذلك ..؟

{ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }
[الآيتان ٣٢ ، ٣٣]

أى : قال الله تعالى يا إبليس مالك لم تسجد ، ما الذى منعك ألا تكون مع الملائكة الساجدين لآدم ..؟
قال إبليس لم أكن لأسجد أى : لا ينبغى لى ولا يصح منى بحال من الأحوال ، أن أسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون .

* * *

ماذا قال ربنا لإبليس .. أمام تكبره وغطرسته وعناده .. ؟

{ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ }
[الآيتان ٣٤ ، ٣٥]

قال رب العزة لإبليس ، عقابا له فاخرج منها أى : من الجنة ، أو من السماء فإنك رجيم أى : مطرود من رحمة الله ، وإن عليك بسبب عصيانك اللعنة أى : الطرد من رحمة الله إلى يوم الدين أى : يوم القيامة ، وبعدها .. يكون العذاب الذى ينسيك هذا اللعن تماما لشدته .

* * *

ماذا كان موقف إبليس اللعين .. ؟

{ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }
[الآية ٣٦]

أى : قال إبليس لربه رب ما دمت طردتنى من جنتك ، وأبعدتنى عن رحمتك فأنظرنى أى : أخرنى ، وأمهلنى ، ولا تهلكنى إلى يوم يبعثون أى : إلى وقت النفخة الثانية ، التى لا موت بعدها ، وذلك حتى لا يموت أبدا .

* * *

هل وافقه رب العزة على ما طلب ..؟
أبدا .. بل :

{ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ }
[الآيتان ٣٧ ، ٣٨]

يعنى : قال ربنا لإبليس اللعين .. قد أجبتك إلى ما طلبت فى الإمهال والتأخير فإنك من المنظرين .
ولكن لا إلى يوم البعث ، بل إلى الوقت المعلوم وهو النفخة الأولى ، التى يموت فيها الخلائق ، ثم يبعثون ، فتموت معهم ، ثم تبعث مع الناس للحساب إذا بعثوا .

* * *

وهنا .. طلب إبليس طلبا عجيبا ..
حيث :

{ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }
[الآيتان ٣٩ ، ٤٠]

أى : قال إبليس رب بما أغويتنى أى : بسبب أمرك لى بالسجود لآدم ، وعصيانى ، وطردك لى لأزينن لهم فى الأرض المعاصى ولأغوينهم أى : أحملهم على الغواية والضلال أجمعين حتى يستجيبوا لى ، ويضلوا .
وهم سيستجيبون لى إلا عبادك منهم المخلصين فهم لا يستجيبون ؛ لأن كيدى وإغوائى لهم .. لا يؤثر فيهم .

* * *

ولما أشهر إبليس سلاحه ، وأعلن بدأ حربه مع خلق الله ، وأنه لن ينجح فى حربه مع عباد الله المخلصين .

أعلن الله تعالى حمايته لهؤلاء المخلصين .
حيث :

{ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ }
[الآيات ٤١ – ٤٤]

يعنى : قال الله تعالى : هذا أى : تخليص المخلصين من إغواء إبليس.. صراط أى : طريق يؤدى إلىَّ ، وإلى مرضاتى ، وهو حق على مستقيم أن أراعيه ، وأراعيهم فيه .

حيث إن عبادى المخلصين يا إبليس ليس لك عليهم سلطان أى : قوة فى الإغراء توقعهم بها فى الكفر ، أو المعاصى .

إلا من اتبعك فى إغرائك من الغاوين العاصين .

وإن جهنم التى نعذب فيها الكفار والعصاة لموعدهم أجمعين معك للعذاب فيها .

وجهنم هذه لها سبعة أبواب أى : طبقات هى : جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

ولكل باب من أبوابها هذه منهم أى : من الكفار والعصاة جزء مقسوم نصيب محدد معلوم .

* * *

وبعد أن تحدث المولى عن جهنم وأهلها ..
بشر بالجنة وأهلها .. فقال :

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ }
[الآيات ٤٥ – ٤٨]

أى : إن المتقين ربهم .. يدخلون ويقيمون فى جنات وعيون .

ويقال لهم ادخلوها بسلام آمنين فيها من الخوف ، أو الآفات ، أو الفزع، أو الخروج منها .

وإن كان لأحدهم غل على آخر فى الدنيا : نزعه الله من قلبه ، وطهر روحه قبل الدخول .

يقول تعالى :

ونزعنا ما فى صدورهم من غل فلا يتحاسدون فيها ، بل يتوادون ، ويتحابون ، ويكونون إخوانا مترابطين ، يجلسون فى الجنة على سرر متقابلين لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ، بل يكون النظر الدائم إلى الوجوه لدوران هذه السرر ، أو بكيفية لا يعلمها إلا الله .

وكذلك لا يمسهم فيها أى : فى الجنة نصب أى تعب وما هم منها بمخرجين أبدا .

وهذا .. من تمام إنعام الله عليهم .

جعلنا الله وإياكم منهم .. إنه ولى ذلك ، والقادر عليه .

* * *

وبعد أن ذكر الله تعالى – فيما قرأناه – بعضا من دلائل : التوحيد ــ والقدرة الإلهية ..

وبعد أن أوعد العصاة ، ووعد الطائعين ، فى نهاية قصة آدم عليه السلام..!!

أتبع ذلك بقوله :

{ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ }

[الآيتان ٤٩ ، ٥٠]

أى : أخبر يا محمد عبادى المعترفين بعبوديتى ، الطائعين منهم ، والعصاة أنى أنا الغفور لذنوبهم إذا رجعوا إلى تائبين الرحيم بهم ، فى الدنيا والآخرة .

وأخبرهم كذلك أن عذابى للكافرين ، والعصاة هو العذاب الأليم المؤلم ، الشديد الإيلام .

وكان ذلك الوعد والوعيد – أيها الأحبة فى الله – ليختار كل إنسان طريقه ، وليبدأ كل إنسان من الآن .

* * *

يا محمد ..

هذه سنتنا فى الأولياء ، وفى الأعداء .

وقد بينا لك تطبيق ذلك فى الآخرة .. عند ذكر قصة آدم عليه السلام ..

ونبين لك ، وللدنيا كلها ، تطبيق هذه السنة فى الدنيا ، فى هذا القصص التالي ..

فابدأ ..

{ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ }

[الآيات ٥١ – ٦٠]

المعنى : أخبر الدنيا كلها يا محمد عن ضيف إبراهيم عليه السلام إذ وقت أن دخلوا عليه منزله فقالوا له من التحية سلاما أى : عليك .

فرد عليهم – كما فى سورة هود – و قال سلام أى : عليكم .

فما لبث أن جاء لهم بعجل حنيذ مشوى ، من باب الضيافة ؛ ليأكلوا ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه أى : إلى الأكل ، أى : لا يأكلون نكرهم يعنى : استنكر ذلك منهم وأوجس منهم خيفة لعدم قبولهم تحيته.

وقال لهم إنا منكم وجلون أى : خائفون .

فردوا عليه ، وقالوا لا توجل لا تخف منا إنا رسل ربك جئناك نبشرك بأمر الله بغلام عليم ذو علم كثير .

قال لهم أبشرتمونى بالولد على أى : بعد أن مسنى الكبر وهذا مستبعد فبم تبشرون وهذا من العجائب ..؟

قالوا له : نحن بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين أى : من الآيسين من ذلك ، فإن الله قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين ، فكيف من شيخ كبير، وامرأة عجوز عاقر ..؟

قال أنا لا أقنط من قدرة الله ، كيف ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون الكافرون ، ولكنى : أتعجب من ذلك ، وأستغربه بحكم العادة .

ثم سألهم صراحة .. عما جاءوا له أصلا .. حيث :

قال لهم فما خطبكم أى : أمركم الذى جئتم أساسا من أجله أيها المرسلون ؟

قالوا يجيبونه إنا أرسلنا من ربنا إلى قوم مجرمين وهم قوم لوط الكافرون ؛ لإهلاكهم بأمر الله إلا آل لوط فقط وهم أتباعه ، والمؤمنون به إنا لمنجوهم أى : أهله هؤلاء أجمعين .

إلا أمرأته أى : لكن امرأته لا ننجيها ، بل نهلكها مع الهالكين ، حيث قدر الله ، وأخبر نا أنها من الغابرين أى : المهلكين .

* * *

وذهبت الملائكة إلى لوط عليه السلام .

{ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ }
[الآيات ٦١ – ٦٥]

أى : لما وصلت الملائكة إلى لوط عليه السلام ، ودخلوا عليه قال لهم إنكم قوم منكرون لا أعرفكم ، ولا أعرف من أين جئتم ، ولماذا جئتم ، وأخاف أن تمسونى بسوء مثل باقى القوم هنا .

قالوا له : لا تخف ، ولسنا من هؤلاء القوم بل نحن رسل ربك جئناك بما كانوا أى : قومك فيه تمترون أى : بعذابهم ، الذى خوفتهم منه ، وأنذرتهم به ، وكانوا فى مجيئه يشكون .

و قد أتيناك بالحق الذى تبصره بعيونك من عذابهم وإنا لصادقون فى كلامنا هذا ، وسوف ترى .

ولهذا .. نقول لك :

فأسر بأهلك أى : اخرج من هذا البلد ، ومعك أهلك المؤمنون بك ، وسر بهم بقطع من الليل أى : فى آخر الليل ، بعد أن ينام قومك ، فلا يشعرون بخروجك ، يروى : أنه لم يخرج معه إلا بنتاه ، حيث كانتا هما المؤمنتان فقط واتبع أدبارهم أى : سر خلفهم ، لتطمئن عليهم ولا يلتفت منكم أحد إذا سمعتم صيحة تعذيبهم ؛ لئلا تروا ما ينزل بهم ، صيانة لعيونكم وأعصابكم وامضوا أى: وسيروا إلى حيث تؤمرون أى : إلى المكان الذى يأمركم الله تعالى بالتوجه إليه .

* * *

وسمع لوط عليه السلام من الملائكة هذا الكلام ..
وعرف منه قرب نزول العذاب بالكافرين من أهل بلده .
وكأنه : رق لحالهم ، ورغب فى إيمانهم ، ونجاتهم .
لذلك .. يقول تعالى :

{ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ }
[الآية ٦٦]

يعنى : وقضينا أى : وأوحينا إليه ذلك الأمر وأعلمناه به .. وهو أن دابر هؤلاء مقطوع أى : هالكون عن آخرهم ، ولا يبقى منهم أحد ، حال كونهم مصبحين يعنى : فى الصباح .
وفهم لوط الأمر ، ورضى لوط بالوحى ..
فهل انتهت القصة .. ؟
لا .. لم تنته بعد .

* * *

اقرأ معى – نفعنى الله وإياك – إلى ما يقوله رب العزة :

{ وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ }
[الآية ٦٧]

أى : بعد وصول الملائكة إلى بيت لوط عليه السلام ، ودخولهم فيه جاء أهل المدينة إلى لوط يستبشرون يبشر بعضهم بعضا بضيوف لوط ، الذين سيفعلون معهم الفاحشة .
ووصلوا إلى لوط ، ودخلوا بيت لوط ..
وفهم لوط .. ماذا يريدون ..؟

* * *

{ قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ }

[الآيتان ٦٨ ، ٦٩]

يعنى : قال لوط لقومه ، المتجمهرين عنده إن هؤلاء ضيفى وواجب الضيف إكرامه فلا تفضحون بالإساءة إلى ضيوفى .

قال ذلك : مجاراة لهم ، وهو يعلم أنهم لن يصلوا إليهم ، وذلك لحثهم على ترك الفاحشة ، وتعليم واجب إكرام الضيف واحترامه ، لعل وعسى .

ثم قال لهم واتقوا الله بالبعد عن الفاحشة ولا تخزون أى : ولا تذلونى بإذلال ضيفى .

* * *

وهنا أغلظوا له القول .. حيث :

{ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٧٠]

أى : قالوا له أولم ننهك قبل ذلك ، أن تستضيف أحدا من العالمين أبدا..؟

* * *

فرد عليهم .. لتعليمهم حكم الإسلام ، وسنة الله فى خلقه ..

{ قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ }
[الآية ٧١]

أى : قال لهم هؤلاء بناتى فأسلموا وتزوجوهن أو : فتزوجوهن وكان فى شريعته جواز أن يتزوج الكافر بالمسلمة .

إن كنتم فاعلين ما تريدون من قضاء الشهوة .

* * *

وهنا .. يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يخبره بنهاية القصة ؛ ليعتبر أمثالهم :

{ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ }
[الآية ٧٢]

لعمرك يعنى : بحياتك يا محمد إنهم لفى سكرتهم غوايتهم وضلالهم الذى أذهب عقولهم يعمهون يترددون ، ولا يعرفون ما فيه صالحهم ، فليعتبر أمثالهم .

* * *

ثم يخبره سبحانه عن نهاية القصة ، ونزول العذاب بهم .
قائلا :

{ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ }
[الآيتان ٧٣ ، ٧٤]

يعنى : وخرج لوط من هذه القرية ، ومعه ابنتاه ، وطوى الله له الأرض ، حتى نجا ومن معه .
وهنا يقول المولى :
فأخذتهم الصيحة أى : أهلكت قوم لوط صيحة جبريل عليه السلام مشرقين ساعة طلوع الشمس من مشرقها .
فجعلنا بهذه الصيحة عاليها سافلها حيث رفعها جبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض .
وأمطرنا عليهم أى : على من كان منهم خارج قراهم ، فى سفر أو غيره حجارة من سجيل من طين قوى متحجر مطبوخ بالنار .

* * *

ثم يعلق ربنا على هاتين القصتين ، قصة إبراهيم عليه السلام ، وقصة لوط عليه السلام .. بما يلفت النظر إلى ما فيهما من عبر ودروس .
قائلا :

{ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ }
[الآيات ٧٥ ، ٧٧]

أى : إن فى ذلك القصص لآيات وعبر ودروس كثيرة للمتوسمين المفكرين ، الناظرين بعين البصر والبصيرة .. فهل من معتبر ..؟

وإنها أى : قرى قوم لوط لبسبيل مقيم أى : بطريق ثابت باق ، يراه المسافر ، والدارس ، وكل من أراد .

إن فى ذلك القصص لآية كافية للمؤمنين يعتبرون بها ، ويفيدون منها.

* * *

وعن القصة الثالثة .. يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ }
[الآيتان ٧٨ ، ٧٩]

يعنى : وإنه كان أصحاب الأيكة أى : أصحاب بقعة الأشجار الكثيفة ، وهم قوم شعيب عليه السلام لظالمين بتكذيبهم شعيبا وعدم إيمانهم .

ماذا حدث لهم بسبب ظلمهم وعنادهم ..؟

يقول تعالى :

فانتقمنا منهم بالصيحة ، والرجفة ، وعذاب يوم الظلة .

ثم يقول ربنا عز وجل عن قرى قوم لوط ، وأيكة قوم شعيب :

وإنهما أى : هذه وتلك لبإمام مبين أى : بطريق واضح ، ثابت ، باق ، يراه المسافر ، والدارس ، وكل أحد .

يعنى : فهل من معتبر ..؟

* * *

وعن القصة الرابعة – والتى سميت بها السورة – يقول سبحانه :

{ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }
[الآيات ٨٠ – ٨٤]

أى : ولقد كذب كذلك أصحاب الحجر وهم ثمود ، وبلادهم بين الشام والمدينة المنورة ، وآثارهم لا زالت موجودة إلى اليوم .. كذب هؤلاء المرسلين إليهم ، وهو صالح عليه السلام .

وآتيناهم ما طلبوا من آياتنا وهى الناقة ، التى أخرجها الله لهم من الصخرة فكانوا عنها لاهين ، وعن الإيمان بالله معرضين .

و هؤلاء كانوا لقوتهم التى أعطيناها لهم ينحتون من الجبال بيوتا لهم، يقيمون فيها آمنين حيث يحسبون أنها تقيهم من عذاب الله ، الذى خوفهم منه صالح عليه السلام ، لعدم إيمانهم .

أتدرون ماذا حدث لهؤلاء الأقوياء ..؟

يقول ربنا عز وجل :

فأخذتهم الصيحة بالعذاب مصبحين فى اليوم الرابع من قول صالح لهم تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب [هود ٦٥].

وهكذا .. عذبوا ، وسقطوا ، وضاعوا .

فما أغنى عنهم وما أفادهم ، وما منع عنهم العذاب ما كانوا يكسبون من أموال ، وبيوت ، وزروع .. إلخ ما داموا لم يؤمنوا ، ولم يطيعوا الله سبحانه وتعالى .

* * *

وهكذا .. انتهى القصص الذى أراد المولى أن يلفت به أنظار الظالمين ، المعاندين ، الذين يستبعدون عذاب الله فى الدنيا .. لعلهم يعتبرون ، فيتعظون ، فيستقيمون على دين الله ، ويعملون بشريعته سبحانه ؛ فينجون من غضبه وعذابه.

* * *

وفى ختام السورة : يكون الحديث الناصح الموجه من رب العزة للنبى صلى الله عليه وسلم ..
حيث يقول تعالى ، مثبتا له ، ومقررا ليوم البعث الذى ينكرونه :

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ }
[الآيتان ٨٥ ، ٨٦]

يعنى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ولغاية ، وليس عبثا وإن الساعة أى : القيامة لآتية لا محالة ، وفيها الجزاء العادل للعاصى والمطيع فاصفح الصفح الجميل أى : ما دام الأمر إلى الله ، وسيجازيهم هو .. فعاملهم بالخلق الحسن ، والعفو عنهم ، والصفح .

حيث إن ربك هو الخلاق الذى خلقك وخلقهم العليم بحالك وحالهم ، لا يخفى عليه شيء من ذلك .

* * *

ثم يقول له سبحانه :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ }
[الآيات ٨٧ – ٩١]

وفى هذه الآيات الكريمة :

يمتن الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويذكره بنعمة القرآن العظيم ولقد آتيناك من لدنا سبعا من المثانى وهى سورة الفاتحة ، وآتيناك القرآن العظيم كله ، تشريفا لك ، ومنهاجا لأمتك ، وفيه الغنى كل الغنى .

ثم ينهاه عن شيئين ؛ ويأمره بشيئين :

النهى الأول : لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم أى : أصنافا من الكفار بمتاع الحياة الدنيا ، فقد آتيناك ما هو أفضل ، وأفضل ، وأفضل .. وهو القرآن العظيم .

النهى الثانى : ولا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا ، أى من أجل إيمانهم ؛ رغبة فيه .

والأمر الأول : واخفض جناحك للمؤمنين أى : لِن لهم ، وتواضع معهم، وأحسن إليهم ، فقراء منهم وأغنياء .

والأمر الثانى : وقل إنى أنا النذير المبين أى : قل لهؤلاء المكذبين لك: إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب الله ؛ لتؤمنوا ، حتى لا ينزل بكم كما أنزلنا ه على المقتسمين وهم اليهود والنصارى الذين جعلوا كتبهم عضين ، أى : أقساما فآمنوا ببعضها ، وكفروا بالبعض الآخر منها ، كما جعل قومك مثلهم القرآن عضين .

* * *

ثم يطمئنه .. قائلا :

{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآيتان ٩٢ ، ٩٣]

أى : فوربك لنحاسبهم أجمعين ، عما كانوا يعملونه ، وسنجازيهم عليه .

* * *

ثم يحدد له مهمته ، ويطمئنه .. قائلا :

{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }
[الآيات ٩٤ – ٩٦]

يعنى : فاصدع بما تؤمر أى : أظهر الدعوة ، وبلغ الرسالة وأعرض عن المشركين فلا تهتم بهم ، ولا تتعرض لهم .

وكان هذا .. قبل الأمر بجهاد هؤلاء الكفار .

إنا كفيناك شر هؤلاء المستهزئين بك وبالدعوة .

وهم هؤلاء الذين يكفرون ، ويجعلون مع الله إلها آخر من خيالهم ، أو تقليدا لآبائهم .

فسوف يعلمون غضبى عليهم ، وشدة عذابى لهم .

* * *

ثم يوضح ربنا للنبى صلى الله عليه وسلم ما يساعده على النجاح فى أداء مهمته ، وتبليغ رسالته .. حيث يقول له :

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ }
[الآيات ٩٧ – ٩٩]

أى : نحن نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فيك ، أو فى القرآن ، أو فى الله ، مما يؤذيك ويؤلمك .. فلا يهمنك ذلك .

واستعن على تحمل ذلك : بتسبيح ربك ، والسجود له ، وعبادته المستمرة ، فى كل حال ، حتى آخر لحظة من حياتك حتى يأتيك اليقين وهو الموت .

حيث إن مقابلة الإيذاء بالتسبيح ، والسجود ، والعبادة .. زاد الدعاة ، ومن لا يستطيع ذلك ، لا يقدر على الاستمرار .

هذا .. وبالله التوفيق .

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله.
وبعد ..
فهذه سورة "الإسراء" ، والتى تسمى أيضاً .. بسورة "سبحان" وتسمى ثالثاً.. بسورة "بنى إسرائيل".
وهى سورة مكية.
وتبدأ بذكر هذه الحادثة العجيبة، والمعجزة البديعة للنبى صلى الله عليه وسلم.
وهى "حادثة الإسراء".
يقول تعالى :

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }
[الآية ١]

أى : سبحان أنزه وأقدس وأعظم الذى أسرى وهو الله سبحانه بعبده محمد صلى الله عليه وسلم ليلاً فى جزء يسير من الليل من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس البعيد عن مكة الذى باركنا ديناً ودنيا، فى الخيرات، وكثرة العباد والدعاة إلى الله حوله من كل جوانبه.
وذلك لنريه أى : محمداً صلى الله عليه وسلم من آياتنا الكبرى، الدالة على : الوحدانية، والقدرة، وصدق الوحى الذى ينزل عليه.
وبالطبع : هذا حدث عظيم، وسيختلف الناس حوله، وسيقولون ويقولون. والله عز وجل سميع لكل ما يقولونه، عالم به.
حيث إنه عز وجل هو السميع البصير بجميع مخلوقاته.

* * *

ولما ذكر المولى .. تكريم محمد صلى الله عيه وسلم بالإسراء : ذكر عقيبه تكريم موسى عليه السلام بالتوراة .. وفى ذلك : تدليل على وحدة الرسالة، ووحدة الوحى.
حيث قال :

{ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً }
[الآية ٢]

يعنى : وآتينا موسى الكتاب أى : التوراة وجعلناه أى : هذا الكتاب هدى هادياً ومرشداً لبنى إسرائيل.

وأوحينا لموسى فيه أن يقول لبنى إسرائيل أن لا تتخذوا من دونى من أحد غيرى وكيلاً تتكلون عليه فى أموركم، وتعتمدون عليه فى شئونكم، وتعبدونه.

حيث إن الله وحده سبحانه، هو الولى، والوكيل، والنصير، والمعبود.

* * *

ثم قال دعوة لهم إلى الطاعة :

{ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا }
[الآية ٣]

أى : يا ذرية من حملنا مع نوح فى السفينة، يا ذرية من نجيناهم : تشبهوا بآبائكم الذين نجوا فى الإيمان والطاعة.

وتشبهوا كذلك بنوح عليه السلام إنه كان عبداً خالصاً لله فى عبوديته، مطيعاً له فى شريعته شكوراً له على نعمه.

وهى : دعوة لبنى إسرائيل، كما أنها فى ذات الوقت دعوة لكل الأمم ٠٠ أن تؤمن، وتطيع، وتشكر.

* * *

ولما بين ربنا تبارك وتعالى أنه : أنعم على بنى إسرائيل بإنزال التوراة على نبيهم موسى عليه السلام ٠٠

ولما بين كذلك ٠٠ أنه : جعلها ٠٠ هدى لهم ٠٠

عقب على هذا البيان ٠٠ بأنهم ما اهتدوا بهداه، بل وقفوا فى الفساد ٠٠

فقال :

{ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا }
[الآية ٤]

يعنى : وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب أى : أوحينا إليهم وأخبرناهم بقولنا لتفسدن فى الأرض بالمعاصى، وخلاف أحكام التوراة، وإيذاء عباد الله مرتين من الإفساد .

ولتعلن على الناس علواً كبيراً واستعلاء بليغاً، بغير الحق، وعن طريق الخداع والمكر.

* * *

ولكن ٠٠

ألهذا الفساد فى الأرض، والاستعلاء بغير الحق فى المرتين ٠٠ من نهاية ؟

نعم .

فلنقرأ كلام ربنا الحكيم الخبير، وهو يقول :

{ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً }
[الآية ٥]

والمعنى : فإذا جاء وعد أولاهما بالعقاب، وأفسدتم المرة الأولى، وظهر فسادكم وإفسادكم فى الأرض، وفسقكم بين الناس بعثنا عليكم وأرسلنا أناساً يتصفون بصفتين :

الأولى : عباداً لنا يؤمنون بنا، ويلتزمون بشرعنا، ويصلحون فى الأرض ولا يفسدون ٠٠ أى يمتلكون قوة الإيمان.

الثانية : أولى بأس شديد أصحاب : قوة فى كل شىء، وتفوق فى كل شىء٠٠ أى : يمتلكون قوة السلاح، والردع والتخويف.

تسألنى عزيزى القارىء ٠٠ ماذا يفعل هؤلاء الناس المتصفون بالإيمان والقوة، والذين يرسلهم الله عليهم ؟

والجواب من الله تعالى ٠٠ حيث يقول :

فجاسوا خلال الديار أى : عذبوهم، ونكلوا بهم، وقتلوا فيهم، وجاسوا يطاردونهم خلال الديار فى شوارعها وفى بيوتها ليقتلون البقية منهم.

وكان هذا وعداً صادقاً مفعولاً واقعاً بهم من الله تعالى.

* * *

وماذا بعد هذه المرة التى يسامون فيها من عباد الله الأشداء هذا العذاب ؟

يقول عز وجل :

{ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا }
[الآية ٦]

أى : ثم بعد مدة طويلة من الزمان رددنا وأعدنا لكم الكرة وهى الغلبة عليهم والقهر لهم، ورفعنا الذل عنهم.

وذلك : بعد أن ينحرف عبادنا ويهملون شرعنا، ويفسدون فى الأرض ولا يصلحون ٠٠ ويضيع منهم التفوق، وتبتعد عنهم القوة، بل يصابون بالوهن، وهو حب الدنيا وكراهية الموت.

وفى هذه الحال كذلك ٠٠ نكون قد أمددناكم بأموال وبنين بعد أن كانوا سابقاً – أفنوا أموالكم، وقتلوا أبناءكم.

و أيضاً جعلناكم أكثر نفيراً أكثر عدداً مما كنتم، وأعلى صوتاً.

* * *

وعلى كل حال ٠٠

{ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا }

[الآية ٧]

يعنى : إن أحسنتم بالطاعة لله، والشكر على نعمه، وعدم الإفساد فى الأرض، والاستعلاء والإيذاء للخلق أحسنتم لأنفسكم لأن جزاء هذا الفعل : هو الخير ٠٠ يعود عليكم.

وإن أسأتم وأفسدتم فى الأرض، وآذيتم أهلها فلها أى : فلأنفسكم هذا الإيذاء؛ حيث يعود وباله وضرره عليها.

ولذلك : إن كنتم عقلاء فأحسنوا ٠٠!!

وإلا ٠٠

فإذا جاء وعد الآخرة بالعقاب، وأفسدتم المرة الثانية، وظهر فسادكم وإفسادكم فى الأرض، وفسقكم بين الناس : بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد٠٠

وذلك : ليسوءوا وجوهكم بالإيذاء لكم، والتنكيل بكم، والقتل فيكم.

و كذلك ليدخلوا المسجد وهو بيت المقدس، وينتزعوه من أيديكم كما دخلوه وانتزعوه أول مرة .

و ثالثاً ليتبروا ويهلكوا ويدمروا ما علوا واستولوا عليه تتبيراً تدميرًا بليغاً.

وكان هذا كذلك : وعداً صادقاً مفعولاً، واقعاً بهم – لا محالة – من الله تعالى.

يلاحظ : أيها القراء الكرام ٠٠ أن الناس كثيراً ما يتساءلون عن هاتين الإفسادتين ٠٠ وهل وقعتا، أو وقعت منهما واحدة وبقيت الثانية ٠٠ إلخ هذه الأسئلة، التى أضرب القرآن عن الحديث المحدد فيها؛ حيث لا يتعلق كثير فائدة بمعرفة هذه الأمور، وتحديد أعيان المراد بهم فيها ٠٠ بل المقصود : هو أنهم لما أكثروا من المعاصى سلط الله عليهم أقواماً قتلوهم وأفنوهم.

* * *

ولذلك ٠٠ يقول لهم ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾
[الآية ٨]

والمعنى : لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بنى إسرائيل.
ثم قال لهم مهدداً وإن عدتم عدنا.
يعنى : بعثنا عليكم من بعثنا، ففعلوا بكم ما فعلوا؛ عقوبة لكم، وعظة ٠٠ لتنتفعوا به، وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصى.
ثم رحمكم ٠٠ فأزال عنكم هذا العذاب ٠٠
فإن عدتم مرة أخرى ٠٠ إلى المعصية، والإفساد فى الأرض، والفسق بين الناس : عدنا، وبعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد، فجاسوا خلال دياركم يقتلونكم، ويسوءون وجوهكم، ويدخلون المسجد، وينتزعونه منكم، وهذه بشارة للمسلمين إذا اتصفوا بالعبودية الحقة، وامتلكوا القوة.
ويلاحظ : أن هذا لهم فى الدنيا؛ حيث يقول تعالى وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب [الأعراف : ١٦٧].
كما يلاحظ : أنهم عادوا إلى الإفساد؛ حيث كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فعاد الله عليهم بالتعذيب، وبعث من يسومهم سوء العذاب فى بنى قينقاع، بنى النضير، وبنى قريظة، وخيبر.
ويلاحظ ثالثاً : أن هذا التهديد ماض فى الباقين منهم اليوم، وإلى يوم القيامة.
بقى ٠٠ أن يوجد فى مواجهتهم، ووقف إفسادهم، ورد بغيهم : عباد الله، الموصوفون بالإيمان، والقوة ٠٠ الذين يحاربون هؤلاء الكافرين، الذين تنتظرهم جهنم، وهى لهم كما قال الله وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً تحيط بهم من جميع الجهات، ولا يفلتون منها أبداً.

* * *

هذا ٠٠ ولما بين المولى ما يفعله فى حق عباده المخلصين الطائعين ٠٠ كالإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإيتاء الكتاب لموسى عليه السلام ٠٠
وبين كذلك ما يفعله فى حق العصاة والمتمردين ٠٠ وهو تسليط البلاء عليهم.
بين سبحانه أن طريق الطاعة والنجاة من البلاء : هو الاهتداء بهدى القرآن الكريم ٠٠
فقال :

﴿ إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾
[الآية ٩]

يعنى : إن هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم يهدى ويرشد للتى هى أقوم أى : للطريقة التى هى أعدل وأفضل فى الاعتقاد والشريعة والسلوك ٠٠إلخ.

و كما أنه ثانياً يبشر الذين يعملون الصالحات عقيدة، وعبادة، وإصلاحاً للبلاد، وإسعاداً للعباد أن لهم أجراً كبيراً وهو الجنة.

* * *

ثم يبشر القرآن المؤمنين كذلك بما فى قوله تعالى :

{ وأنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }
[الآية ١٠]

وليس هذا بغريب ٠٠ حيث إن : الاعتقاد الأصوب، والعمل الأصلح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم ٠٠ فكذلك تركه، يوجب لتاركه : الضرر الأعظم الأكمل.

* * *

وبعد أن بين ربنا بعض أوصاف القرآن، الذى يهدى الإنسان ٠٠
وضح سبحانه بعض أوصاف هذا الإنسان، الذى ينبغى عليه أن يهتدى بالقرآن.
فقال :

{ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً }
[الآية ١١]

أى : ويدع الإنسان ربه متسرعاً ومطالباً بالشر مستهيناً به دعاءه بالخير أى : كما يدعو بالخير، لا يفرق بين ما يضره وما ينفعه.

وكان الإنسان بطبعه عجولاً متسرعاً، يتعجل قطف الثمرة، ونوال النتيجة، قبل الاستعداد الكامل، والتهيؤ التام.

وفى هذا توجيه للإنسان وتربية على التأنى، والدقة فى امتلاك العدة.
وتوجيه لمن يتعجلون النصر ٠٠ دون سلوك طريقه الصحيح، وامتلاك أدواته اللازمة المناسبة.

* * *

ولما كان القرآن، وهو كتاب الله : من نعم الدين على الإنسان ..
كان الليل والنهار، وهما من خلق الله : من نعم الدنيا – كذلك – على الإنسان.
يقول تعالى :

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً }
[الآية ١٢]

يعنى : وجعلنا بقدرتنا الليل والنهار آيتين من الآيات الكثيرة، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا.
فمحونا آية الليل أى : طمسنا نورها بالظلام؛ لتسكنوا فيه.
وجعلنا آية النهار مبصرة أى : منيرة بضوء الشمس لتبتغوا فى النهار، وتتكسبوا أرزاقاكم، وتؤدون مصالحكم فضلاً من ربكم عليكم.
و كذلك لتعلموا عن طريق الليل والنهار عدد السنين التى تمر بكم، وتنظمون فيها مواعيدكم وأوقاتكم والحساب لمعاملاتكم.
وكل شىء على هذا النحو، ولصالحكم فصلناه وبيناه تفصيلاً لا يحتاج بعده إلى بيان.

* * *

أيها الأحبة الكرام ..
كأنى بالمولى تبارك وتعالى يقول : أعطيتكم هذه النعم فى الدين والدنيا .. فهل أطعتمونى ..؟
وعلى كل حال .. فإنى مسائلكم يوم القيامة ..

{ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا }
[الآية ١٣]

أى : وكل إنسان ألزمناه وقيدنا طائره أى عمله فى عنقه لا ينفك عنه، خيراً كان أو شراً .. وذلك فى يوم القيامة.
ونخرج له كذلك يوم القيامة أمام أهل الحشر جميعاً كتاباً مسجلا ومكتوبًا فيه عمله يلقاه منشوراً يمكن له ولغيره أن يقرأ ما فيه.

* * *

ثم يقال له :

{ اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا }
[الآية ١٤]

أى : اقرأ أيها الإنسان كتابك الذى سجلت فيه عليك أعمالك كفى بنفسك ولنفسك اليوم عليك حسيباً وشاهداً، حيث تنطق أعضاؤك وتشهد عليك فلا تستطيع الإنكار ٠٠ حقاً : اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون [يس : ٦٥].

* * *

أيها الناس ٠٠
ما دامت النعمة فى الدين والدنيا ٠٠ قد يسرت ٠٠
وما دام ثواب المطيع، وجزاء العاصى ٠٠ قد اتضح ٠٠
فإنه ٠٠

{ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }
[الآية ١٥]

يعنى : لتكن هذه الأمور معلومة :

أولا : من اهتدى بالقرآن للتى هى أقوم فى كل شىء فإنما يهتدى لنفسه ونتيجة اهتدائه له.
ثانياً : ومن ضل عن هدى الله، وبعد عن طريق الصواب فإنما يضل ويجلب الضرر عليها يعنى نفسه.
و كل إنسان مسئول عن نفسه كل امرئ بما كسب رهين حيث لا تزر نفس وازرة آثمة وزر ذنب نفس أخرى ٠٠ أى : لا يحمل أحد ذنب أحد آخر.
رابعاً : وما كنا معذبين أحداً حتى نبعث رسولاً يبين له طريق الصواب، ويدعوه إلى الرشاد.

* * *

خامساً :

{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا }
[الآية ١٦]

يعنى : وإذا أردنا أن نهلك أهل قرية أى : بلد ‥ أمرنا على ألسنة رسلنا مترفيها رؤساءها وأغنياءها والمنعمين فيها ‥ بالطاعة، واتباع الرسل، وبدل أن يطيعوا : طغوا وبغوا، وفسقوا فيها، ونشروا الفسق بين أهلها.

فحق عليها القول بالعذاب فدمرناها أى القرية على أهلها تدميراً.

* * *

وهذا قد حدث كثيراً ‥

يقول القوى العزيز :

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا }
[الآية ١٧]

يعنى : أهلكنا كثيراً من الأمم أهل القرون والأزمان، التى جاءت من بعد نوح عليه السلام ؛ بسبب كفرها وطغيانها، وفسقها.

وذنوب العباد ‥ لا تخفى على الله أبداً وكفى بربك وحده بذنوب عباده خبيراً يعلمها وإن أخفوها فى الصدور بصيراً وإن أرخوا عليها الستور.

* * *

ولما كان طلب الدنيا ‥ هو – فى الغالب – سبب الانحراف ‥

وكان طلب الآخرة ‥ هو – دائماً – سبب الهداية ‥

وضح الله سنة من سننه فى هؤلاء وهؤلاء ‥

حيث يقول سبحانه عن طلاب الدنيا فقط :

{ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا }
[الآية ١٨]

أى : من كان من الناس يريد بعمله، نوال ما فى العاجلة وهى الدنيا : عجلنا أعطينا له فيها ما نشاء لا ما يشاء هو، وليس عطاؤنا هذا لكل أحد، بل لمن نريد أن نعطيه فقط ٠٠ فالأمر بيدنا لا بيد غيرنا، والعطاء من عندنا لا من عند غيرنا.

ثم لأنه لم يرد إلا الحياة الدنيا فقط، وأغفل طاعة الله، وأنكر وجود الله، وطغى بنعم الله جعلنا له جهنم داراً وقراراً يصلاها يدخلها، فتغمره بلهيبها من كل جوانبه ٠٠ حالة كونه مذموماً ملوماً محتقراً مدحوراً مطروداً من رحمة الله.

* * *

ثم يقول سبحانه عن طلاب الآخرة :

{ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا }
[الآية ١٩]

أى : ومن كان من الناس، قد أراد بعمله، نوال ما فى الآخرة من نعيم وسعى لها سعيها اللائق بها، والمناسب لنوالها وهو مؤمن مصدق وعد الله متبع رسوله صلى الله عليه وسلم فأولئك أصحاب هذه الصفات ٠٠ إرادة الآخرة، والسعى لها، والإيمان كان سعيهم مشكوراً أى : مقبولاً عند الله تعالى، مجازى عليه منه سبحانه.

* * *

ثم يقول صاحب النعم سبحانه :

{ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا }
[الآية ٢٠]

يعنى : كلا من الفريقين طلاب الدنيا وطلاب الآخرة ٠٠ نمد أى : نعطى هؤلاء وهؤلاء رزقاً من عطاء ربك تفضلاً وتكرماً وما كان عطاء ربك محظوراً عن أحد من خلقه، ولو كان عاصياً.

* * *

{ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً }

[الآية ٢١]

أى : ومع هذا العطاء ٠٠ انظر أيها الإنسان، بعين الاعتبار ٠٠

كيف فضلنا بعضهم أى : بعض الناس على بعض فى الدنيا ٠٠ من حيث : المال، والجاه، والحسن، والعمر ٠٠ إلخ ٠٠

حقاً نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً [الزخرف : ٣٢].

مع ذلك : فلا وزن لهذا التفاضل فى الدنيا.

وللآخرة أكبر أعظم درجات من الدنيا وأكبر وأعظم تفضيلاً من الدنيا ٠٠ فالآخرة باقية، والدنيا فانية، فاعتن بالآخرة.

* * *

ولما بين الله تعالى : أن نوال سعادة الآخرة مشروط ٠٠ بإرداتها، والسعى لها، والإيمان كذلك، وكان هذا على وجه الإجمال.

شرع فى التفصيل ٠٠ فقال :

{ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً }

[الآية ٢٢]

يعنى : لا تشرك مع الله أحداً فتقعد فى الدنيا لا ناصر لك مذموماً على هذا الشرك مخذولاً من الرب سبحانه.

وهذا هو الأمر الأول ٠٠ لنوال سعادة الآخرة.

* * *

ولما ذكر الأمر الأول لنوال السعادة فى الآخرة.

أتبعه بما يوصل إلى هذه السعادة كذلك ٠٠ فقال :

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا }

[الآية ٢٣]

يعنى : وقضى أمر ربك سبحانه وتعالى ألا تعبدوا أحداً إلا إياه عز وجل؛ لتنالوا السعادة فى الآخرة.

و أمر كذلك : أن تحسنوا بالوالدين إحساناً عظيماً، فى كل وقت، وعلى كل حال، لتنالوا السعادة فى الآخرة.
وعلى وجه الخصوص ..
إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما أى : يكونا فى كفالتك ورعايتك، لكبر سنهما، أو عجزهما.
وفى هذه الحال عليك هذه الأشياء :

١- فلا تقل لهما أو لأحدهما أف وهى عبارة تدل على أدنى درجات الضجر منهما، أو من أحدهما .. بل أكرمهما واخدمهما، كما أكرماك وخدماك فى ضعفك وصغرك.
٢- ولا تنهرهما أو أحدهما، بالقول أو بالفعل.
٣- وقل لهما قولاً كريماً طيباً حسناً مهذباً.

* * *

كذلك ..

{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا }
[الآية ٢٤]

أى :
٤- واخفض لهما جناح الذل من الرحمة يعنى : تواضع لهما، واعطف عليهما، وبالغ فى ذلك رحمة بهما.
٥- وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً أى : قل داعياً لهما فى كبرهما، أو بعد موتهما رب ارحمهما برحمتك الواسعة كما ربيانى صغيراً وشملتنى رحمتهما.

* * *

يا أيها الناس :

{ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا }
[الآية ٢٥]

أى : ربكم أعلم بما نفوسكم من رغبة فى البر بالوالدين، والإحسان إليهما، فضلاً عن النشاط فى هذا البر والإحسان.
وعلى كل حال إن تكونوا صالحين معهما، بارين بهما، قاصدين الإحسان إليهما؛ طاعة لله، وإكراماً لهما ..

فإن الله كان للأوابين غفوراً لذنوبهم، وخطاياهم.

يعنى : يا من أسأتم لهما، أو لم تحسنوا فى حقهما ٠٠ توبوا إلى الله، وأنيبوا إليه يقبل توبتكم، ويغفر ذنوبكم، وتنالوا السعادة فى الآخرة.

* * *

وبعد أن ذكر ربنا : بر الوالدين، وضرروة الإحسان إليهما ٠٠
أتبع ذلك بما يوصل – أيضاً – إلى السعادة فى الآخرة.
حيث قال :

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا }
[الآية ٢٦]

يعنى : وآت وأعط ذا القربى حقه أى : الأقارب حقوقهم فى مالك، بالانفاق والتصدق عليهم، وفى معاملتك: بصلتهم، والسؤال عنهم، والاهتمام بأمورهم، والعطف عليهم.

و آت أيضاً المسكين حقه فى مالك ٠٠ بالإنفاق عليه، والإحسان إليه.

وابن السبيل كذلك ٠٠ آته من مالك ما يبلغه مقصده.

ولما أمر ربنا بالإنفاق للمال : اشترط عدم التبذير والإسراف فيه، فقال : ولا تبذر فى المال تبذيراً يخرجه عن حده.

* * *

ولكن ٠٠ لماذا ٠٠؟
يقول تبارك وتعالى :

{ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا }
[الآية ٢٧]

يعنى : لا تكونوا مبذرين فى إنفاق المال، فى غير طاعة الله، أو فيما هو زائد عن حاجتكم ٠٠ حيث إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين أى : أمثالهم فى معصية الله.

ولأن هذا الإسراف : إساءة لنعم الله وكان الشيطان لـــ نعم ربه كفوراً فلا تكونوا مثله.

بل اجعلوا المال طريقاً ووسيلة لنوال السعادة فى الآخرة.

* * *

وبعد أن أمر ربنا ٠٠ بإيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل.
وبعد أن نهى عن الإسراف والتبذير ٠٠
أرشده إلى حسن التصرف عند عدم القدرة على إعطاء هؤلاء ٠٠
فقال :

{ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً }
[الآية ٢٨]

أى : إما أن تعطيهم، وإما تعرضن عنهم وتتركهم، لعدم قدرتك على إعطائهم، وأنت فى ذات الوقت، تبتغى رحمة من ربك بك، وفضلاً عليك، ونعمة ترجوها منه، لتعطيهم منها.

فقل لهم فى هذه الحال قولاً ميسوراً أى : قولاً ليناً، فيه ما يشعرهم أنه إذا يسر الله الحال ٠٠ فستعطيهم من فضل الله.

* * *

ولما أمر ربنا تبارك وتعالى بالإنفاق الأمثل على الأقارب والمساكين، وأبناء السبيل ٠٠
أرشد سبحانه إلى الإنفاق الأمثل عموماً ٠٠
فقال :

{ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً }
[الآية ٢٩]

يعنى : ولا تجعل يدك مغلولة مربوطة إلى عنقك وهذا كناية عن البخل فى الإنفاق.
كذلك ولا تبسطها فى الإنفاق كل البسط أى : لدرجة الإسراف.
وإلا فتقعد بسبب هذا البخل ملوماً وبسب بهذا الإسراف محسوراً.
بل عليك بالاقتصاد فى الإنفاق ٠٠ بلا بخل، ولا إسراف؛ حتى تنال السعادة فى الدنيا والآخرة.

* * *

ولما نهى ربنا عن البخل وعن الإسراف ٠٠

بين أن الرزق منه، وأنه يوسع فيه على من يشاء، ويضيق فيه – كذلك – على من يشاء؛ لعلمه بمصالح عباده فى هذا وذاك.

فقال :

{ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا }

[الآية ٣٠]

أى : إن ربك هو الذى يبسط الرزق يوسعه لمن يشاء من عباده، و هو الذى يقدر يضيق الرزق على من يشاء من عباده.

وما دام الأمر كذلك : فلا تبخلوا، ولا تسرفوا، لتنالوا السعادة فى الآخرة.

حيث إنه سبحانه كان بعباده ومصالحهم خبيراً بصيراً.

* * *

ولما بين المولى عز وجل ٠٠ أن الزرق منه، وأنه وحده المتكفل بأرزاق العباد : نهى عن قتل الأولاد مخافة الفقر .

فقال :

{ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا }

[الآية ٣١]

يعنى : اطمئنوا على أرزاقكم أيها الأغنياء ولا تقتلوا أولادكم بالوأد للبنات، ودفنهن أحياء، كما كان العرب يفعلون، أو بالإجهاض، أو بالمنع من الإنجاب خشية إملاق أى : خوف الفقر؛ حيث إنه سوء ظن بالله الرازق، وذلك ضد الواجب من تعظيم الله، أو خشية عار، حيث إنه تخريب للعالم، وذلك ضد الشفقة على خلق الله.

لا تفعلوا ذلك : فإننا نحن نرزقهم لا أنتم وإياكم أيضاً نرزقكم معهم، فأنتم لا ترزقون أنفسكم، فضلاً عن رزقهم.

لا تفعلوا ذلك : حيث إن قتلهم كان خطئًا كبيرا عند الله، وعادة سيئة من أهلها.

لا تفعلوا ذلك : فهو حائل لكم، ومانع من نوال السعادة فى الآخرة.

* * *

ولما نهى القوى العزيز عن قتل الأولاد على هذا النحو : أتبع ذلك بالنهى عن قتل الكرامات، بهتك الأعراض.

فقال :

{ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً }
[الآية ٣٢]

أى : ولا تقربوا ولا تفعلوا ما يوصل إلى الزنى من مقدماته ٠٠ كالنظرة، واللمس، والقبلة.

والنهى عن الاقتراب منه ٠٠ أبلغ فى التخويف من النهى عنه مباشرة، كما أن فيه إبعاد عن ساحته، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وكان النهى على هذا النحو ٠٠ حيث إنه أى الزنى كان فعلة فاحشة قبيحة وساء سبيلاً وطريقاً إلى الخسران فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة.

* * *

ثم نهى عن قتل النفس البشرية ٠٠ فقال :

{ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا }
[الآية ٣٣]

والمعنى : و لتنالوا السعادة فى الآخرة لا تقتلوا النفس البشرية التى حرم الله قتلها إلا بالحق، وهو إحدى ثلاث : النفس بالنفس، والزانى المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، ويدخل فى هذه الآية : النهى كذلك عن قتل الإنسان لنفسه، أى : الانتحار.

ولو حدث ٠٠ وقُتِل أحدٌ لسبب غير هذه الأسباب : فقد قُتِل مظلوماً.

ومن قتل مظلوما فقد جعلنا شرعاً لوليه سلطانًا وحق على القاتل، إما القصاص، وإما الدية، وإما العفو التام.

فإذا اختار ولى المقتول القصاص فلا يسرف فى القتل بالتمثيل بالجثة، أو يقتل غير القاتل.

حيث إنه كان منصوراً من الله، بأخذ حقه.

* * *

ولما نهى الحكيم الخبير عن قتل النفس البشرية إلا بالحق : أتبع ذلك بالنهى عن إيذاء اليتيم فى ماله ٠٠ حيث إن ذلك نوع قتل له.

فقال :

{ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً }
[الآية ٣٤]

يعنى : تصرفوا أيها الأولياء فى مال اليتيم بما يصلحه وينميه ولا تقربوا هذا المال إلا بالتى هى أحسن فى التصرفات المفيدة.

وذلك حتى يبلغ أشده ويستطيع التصرف فى ماله، فلا تقربوه بعد ذلك، إلا بالنصيحة وحسن المشورة.

* * *

ولأن الامتثال لهذا النهى ٠٠ طريق لنوال السعادة فى الآخرة، وتصرف لصالح المجتمع.
فقد أمر ربنا عقيبه بثلاثة أوامر لنفس الغرض.

{ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }
[الآية ٣٥]

الأول : وأوفوا بالعهد مع الله، أو مع الناس إن العهد كان الإنسان مسئولاً عن الوفاء به.
والثانى : وأوفوا الكيل وأتموه لغيركم إذا كلتم لهم، أو بعتم.
الثالث : وزنوا للناس عطاء، ولكم أخذاً بالقسطاس أى : الميزان المستقيم المعتدل، الذى لا انحراف به، ولا غش بسببه.

ذلك المذكور خير لكم فى دينكم ودنياكم، وفى معاشكم وأخراكم وأحسن تأويلاً أى : مآلاً وعاقبة وجزاءً، وطريقاً لنوال السعادة فى الآخرة.

* * *

ولما ذكر ربنا هذه الأوامر الثلاثة : عقب عليها بثلاثة أشياء نهى عنها سبحانه ٠٠ فقال فى النهى الأول :

{ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً }
[الآية ٣٦]

أى : ولا تقف تتبع، وتتدخل بالظن فى ما ليس لك به علم وتقول : رأيت ما لم تر، أو سمعت ما لم تسمع، أو علمت ما لم تعلم.

حيث إن السمع والبصر والفؤاد كل واحد من أولئك له وظيفة ناطها الله به، وطلب منا أن نستعمله فيها.
ولذلك : كان الإنسان عنه أى : عن هذا الاستعمال السليم لهذه الحواس مسئولا أمام الله تعالى يوم القيامة.

* * *

وقال تعالى فى النهى الثانى :

{ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً }
[الآية ٣٧]

أى : كن متواضعاً ولا تمش فى الأرض مرحاً تمايلاً، وتفاخراً وغروراً.
حيث إنك عبد ضعيف لن تخرق الأرض بقدميك وطئاً، ولن تبلغ الجبال بهامتك طولاً وإعجاباً بنفسك.

* * *

ثم يقول تعالى :

{ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا }
[الآية ٣٨]

أى : كل ذلك الذى مر فى هذه الوصايا : فيه الأمر بالحسن، والنهى عن السىء، وكان سيئه عند ربك مكروهاً فلا تقربوه.
لتنالوا السعادة فى الآخرة.

* * *

كما يقول :

{ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا }
[الآية ٣٩]

أى : ذلك الذى مر من الوصايا ٠٠ هو مما أوحى إليك ربك يا محمد من عين الحكمة أى : مما يحكم العقل بصحته، وتصلح النفس به.

ثم يقول له فى النهى الثالث :

ولا تشرك مع الله أحداً فتلقى فى جهنم يوم القيامة، لا ناصر لك ملوماًمن نفسك، ومن الخلق، ومن الله مدحوراً أى مطروداً من رحمة الله.

* * *

وبعد هذه الجولة الطويلة مع هذه الأوامر، التى هى من عين الحكمة، والتى توصل من يمتثل لها لنوال السعادة فى الدنيا والآخرة.

يعرض علينا العزيز الحكيم ٠٠ موقفاً من المواقف الضالة لأهل الشرك فيقول :

{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا }
[الآية ٤٠]

يعنى : هل خصكم ربكم بالذكور واتخذ هو لنفسه بناتاً من الملائكة إناثاً؟

حقاً ٠٠ إنكم لتقولون على الله قولاً عظيماً شنيعاً فظيعاً، حيث أخطأتم ثلاث مرات، كل مرة أبشع من أختها ٠٠ فقد جعلتم الملائكة آلهة، وجعلتموهم بنات، كما جعلتموهم بنات الله، وكله إفك وزور.

* * *

ويبين العليم الحكيم سبحانه ٠٠ أنه أكثر فى القرآن من ذكر الدلائل على وحدانيته وقدرته، وأكثر فيه من المواعظ والحكم؛ لأنه أراد الفهم من الناس له، والعمل به.

حيث قال :

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا }
[الآية ٤١]

يعنى : ولقد بينا فى هذا القرآن كل شىء، ويسرناه ليذكروا يتعظوا بما فيه، ويستجيبوا لدعوته، والعمل بأحكامه.

و لكن ما يزيدهم هذا البيان إلا نفوراً وبعداً عن الحق، ومعاداة له.

* * *

يقول رب العزة ٠٠ خاطب عقولهم يا محمد، ويا كل داع.

{ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }
[الآية ٤٢]

أى : قل لهؤلاء المشركين لو كان معه آلهة غيره يعبدونها كما يقولون ويزعمون ويعتقدون ٠٠!!
رد عليهم وقل لهم ٠٠
إذاً وفى هذه الحالة لابتغوا أى : لطلبوا الحصول إلى ذى العرش وهو الله تعالى سبيلاً طريقاً ووسيلة ليقاتلوه بها حتى ينفردوا بالحكم دونه.

* * *

{ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا }
[الآية ٤٣]

أى : سبحانه وتعالى تنزه وترفع عما يقولون فى حقه، من نسبة الشريك، أو الولد إليه علواً كبيراً يليق بذاته سبحانه.

* * *

فهو الذى ٠٠

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }
[الآية ٤٤]

نعم ٠٠ هو الله، الذى تسبح له السماوات السبع والأرض وتقدسه، وتنزهه عما لا يليق به.
و كذلك : كل من فيهن من المخلوقات ٠٠ تسبحه، وتقدسه.
وإن من شىء فى الكون كله إلا يسبح بحمده سبحانه، بلسان المقال، او بلسان الحال.
ولكن لا تفقهون أنتم أيها البشر تسبيحهم لأنه ليس بلغتكم، أو لقصور فهمكم وإدراككم عن ذلك.

إنه سبحانه كان ولا يزال حليماً لا يعاجل بالعقوبة غفوراً لمن تاب عن هذه المزاعم الفاسدة وآمن.

* * *

وبعد أن تحدثت الآيات عن الإلهيات ..
يكون حديثها عن النبوات .. فى قوله تعالى :

{ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا }
[الآية ٤٥]

يعنى : وإذا قرأت القرآن يا محمد جعلنا بقدرتنا بينك وبين الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً أى : حجاباً لا يرى، ولذلك : لا يهتدون به حتى ولو سمعوه؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.

* * *

أيضاً ..

{وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}
[الآية ٤٦]

أى : وجعلنا بمشيئتنا وقدرتنا على قلوبهم أكنة أغطية أن يفقهوه حتى لا يفهموه وفى آذانهم وقراً أى : ثقلاً حتى لا يسمعوه.
و اعلم أنك إذا ذكرت ربك فى القرآن وحده وأعلنت بذلك التوحيد ولو على أدبارهم رجعوا على أعقابهم، نفوراً حتى لا يسمعوا منك، ولا يؤمنوا معك.

* * *

يا محمد ..

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا }

[الآية ٤٧]

أى : نحن أعلم بما يستمعون به أى : بالوجه والحال الذى يستمعون به، وهو السخرية منك إذ يستمعون إليك.

ونحن أيضاً أعلم بما ينتاجون به إذ هم نجوى مع بعضهم البعض، إذ يقو الظالمون منهم إن تتبعون إذا أردتم اتباع محمد إلا رجلاً مسحوراً.

* * *

يا محمد ..

{انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً }
[الآية ٤٨]

يعنى : انظر إلى حالهم السىء كيف ضربوا لك الأمثال حيث قالوا عنك: شاعر، وقالوا : ساحر، وقالوا : كاهن .. إلى غير ذلك فضلوا عن الهدى فلا يستطيعون إليه سبيلاً.

* * *

ولما تكلم ربنا عز وجل فى الإلهيات ..
ثم اتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ..
ذكر بعد ذلك شبهاتهم فى إنكار البعث ويوم القيامة.
فقال :

{ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا }
[الآية ٤٩]

يعنى : وقالوا أى المنكرون للبعث استهزاءً أئذا كنا وصرنا عظاماً بالية ورفاتاً وتراباً .. أئنا بعد ذلك لمبعوثون مرة أخرى خلقاً جديداً ..؟
إن هذا لشىء بعيد الوقوع، مستحيل الحدوث ..!!

* * * الجواب :

{ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا }
[الآيتان ٥٠ ، ٥١]

أى : قل لهم كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر غير ذلك مما يكبر فى صدوركم ويكون أشد من العظام والرفات ‥ فستبعثون خلقاً جديداً.

هل يقتنعون ‥ هل يسلمون ‥؟ لا.

فسيقولون مرة ثانية استهزاءً من يعيدنا ويبعثنا مرة أخرى ‥؟

قل لهم الذى فطركم خلقكم أول مرة هو الذى سيعيدكم، ويبعثكم مرة أخرى.

هل يقتنعون ‥ هل يسلمون ‥‥؟ لا.

فسينغضون أى : فسيهزون إليك رءوسهم إنكاراً ويقولون للمرة الثالثة استهزاءً متى هو أى : متى يكون يوم البعث هذا.

قل لهم عسى أن يكون وقوعه قريباً.

* * *

ويكون ذلك :

{ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً }
[الآية ٥٢]

نعم ‥ البعث قريب، قريب يوم يدعوكم ربنا عز وجل للحياة مرة أخرى فتستجيبون من القبور، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً، قائمين بحمده أى : بأمره سبحانه.

وتظنون ساعتها وقد بعثتم فعلاً إن لبثتم أى : ما مكثتم فى القبور إلا قليلاً من الزمن.

* * *

وبعد هذه الردود القوية على منكرى البعث.

تتوجه الآيات الكريمة إلى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم ليوجه المؤمنين إلى السلوك الطيب فى الدعوة، وفى التعامل، وغير ذلك.

حيث يقول الحكيم الخبير :

{ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا }
[الآية ٥٣]

يعنى : اترك يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث وقل لعبادى المؤمنين : موجهاً لهم، ومربياً يقولوا للكافرين التى هى أحسن وهى الكلمة الطيبة اللينة، حيث إن الشيطان ينزع يفسد بينهم فلا يجعلهم يقبلون دعوتكم إياهم للإيمان.

وليس هذا بغريب على الشيطان ٠٠ حيث إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً واضح العداوة، لا يريد له الخير أبداً.

ويلاحظ : أن هذا الأسلوب فى التعامل مع الكفار ٠٠ كان قبل الأمر بقتالهم.

* * *

هذا ٠٠

وقد يسأل سائل : ما هذه الكلمة الطيبة التى أمروا بقولها للكافرين ٠٠؟

فيكون الجواب ٠٠ هى :

{ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً }
[الآية ٥٤]

أى : يقول المؤمنون للكافرين ربكم أعلم بكم يعرف من يستحق الهداية فيهديه، ومن لا يستحق ذلك منكم، ولا يقولوا لهم عبارات مهيجة مثل : أنتم ستدخلون النار، أو ستعذبون ٠٠ إلى غير ذلك.

بل قولوا لهم إن يشأ ربكم أن يرحمكم رحمكم، أو إن يشأ سبحانه يعذبكم عذبكم ٠٠ فالأمر بيده، لا بأيدينا، والحكم له، لا لغيره.

و أما أنت يا محمد، فـــ ما أرسلناك عليهم وكيلاً فتجبرهم على الإيمان.

ويلاحظ : أن هذا الأسلوب ٠٠ قد نسخ كله بقوله تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم [التوبة : ٧٣].

* * *

هذا ٠٠

وليس علمه سبحانه ٠٠ بمقصور عليكم فقط.

بل علمه : شامل لكل شىء.

{ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا }
[الآية ٥٥]

يعنى : وربك يا محمد أعلم بمن فى السموات والأرض كلهم، وأعلم بما يليق بهم من المصالح والمفاسد.

ولهذا السبب ٠٠ يقول المولى :

ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض بتخصيص كل واحد منهم بفضيلة من الفضائل، كموسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمد بالإسراء والمعراج، وكذلك آتينا موسى التوراة، وداود الزبور، وعيسى الإنجيل، ومحمد القرآن، وفضلناه على جميع الخلق.

وآتينا داود زبوراً فلم يستبعدون أن يعطى الله محمداً القرآن ٠٠؟

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى للنبى صلى الله عليه وسلم :

{ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً }
[الآية ٥٦]

أى : خاطب يا محمد الكفار وقل لهم ادعوا الذين زعمتم كذباً أنهم آلهة من دونه أى : غير الله، كالملائكة، الذين كان يعبدهم البعض، وعيسى، وعزير، والجن، ولا يدخل فى هؤلاء الأصنام.

ادعوهم، واطلبوا منهم ٠٠ أن يكشفوا عنكم الضر؛ من فقر، أو مرض، أو خوف، أو يحولوه إلى غيركم بدلاً منكم ٠٠!!

ستجدون أنهم عاجزون فلا يمكلون ولا يستطيعون كشف هذا الضر عنكم ولا تحويلاً له إلى غيركم.

* * *

وليسوا عاجزين فقط ٠٠ بل :

{ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا }
[الآية ٥٧]

يعنى : أولئك الذين يدعون أنهم آلهة ويعبدونهم من دون الله كالملائكة، وعيسى، والجن، وخلافهم يبتغون يطلبون هم أنفسهم إلى ربهم الوسيلة أى : التقرب، ونوال مرضاته ٠٠ بالطاعة ويتنافسون فى ذلك أيهم أقرب إليه سبحانه بها.

وذلك ٠٠ لأنهم يرجون رحمته بهم ويخافون عذابه لهم، إن عصوه، كما يعذب لذلك غيرهم.

فكيف إذاً : تدعونهم آلهة، وهم على هذا الحال ٠٠؟

حقاً ٠٠ إن عذاب ربك كان محذوراً أى : واجباً أن يحذره كل أحد، بالإيمان، ومزيد الطاعة.

* * *

يقول ربنا لحبيبه : ذكرهم بالقرى التى أهلكنا أهلها لكفرهم، وقل لهم :

{ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا }
[الآية ٥٨]

أى : وما من قرية من القرى الكافر أهلها ٠٠ إلا نحن مهلكوها بالاستئصال التام قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً بالبلاء، وقتل الرؤساء، وتسليط المسلمين عليهم.

كان ذلك فى الكتاب وهو اللوح المحفوظ مسطوراً أى : مكتوباً، ومجزوماً بحدوثه لا محالة.

وفى هذا ما فيه : من التهديد لهم على عنادهم وضلالهم وكفرهم.

* * *

وهنا ٠٠
كأن قائلاً يقول، وسائلاً يسأل : لِمَ لَمْ يرسل الله لهم ما طلبوا من الآيات التى اقترحوا الإتيان بها ليؤمنوا ٠٠؟
فكان الجواب :

{ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا }
[الآية ٥٩]

يعنى : وما جعلنا نترك إرسال الآيات التى اقترحوها عليك يا محمد إلا أن كذب بها الأولون عندما أرسلناها إليهم، فكذبوا، فأهلكناهم، ولو أرسلنا إلى هؤلاء ما اقترحوا : لكذبوا، واستحقوا العذاب وأهلكناهم ٠٠ وهذا يكون خلاف ما حكمنا به من إمهالهم لحين تمام أمر الإسلام، ولذلك : لم نرسل لهم ما اقترحوا من الآيات.

و هذا مثال، وهو أننا آتينا ثمود الناقة آية، كما طلبوا مبصرة واضحة فظلموا بها فأهلكناهم.
و على كل حال : ما نرسل بالآيات إلا تخويفاً للعباد؛ ليؤمنوا.

* * *

ثم يذكّر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمر هام ٠٠
حيث يقول :

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا }
[الآية ٦٠]

أى : و اذكر إذ قلنا لك وحياً إن ربك أحاط بالناس علماً وقدرة، فهم فى قبضته، وتحت إمرته ٠٠ فبلغهم، ولا تخف أحداً، فهو سبحانه يعصمك منهم.
وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إياها، عياناً ليلة الإسراء إلا فتنة أى : اختباراً للناس وإيمانهم بالغيب، فيثبت منهم من يثبت، ويرتد منهم من يرتد، وقد كان : حيث ارتد بعض من لم تحتمل عقولهم وقلوبهم ذلك.
و كذلك : جعلنا ذكر الشجرة الملعونة وهى شجرة الزقوم، وهى شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين [الصافات : ٦٤ ، ٦٥].
وهى طعام الأثيم الكافر الدخان : ٤٤.
جعلنا ذكرها فى القرآن اختباراً للناس، وإيمانهم بالغيب، ونخوفهم بها فما يزيدهم هذا التخويف إلا طغياناً كبيراً حيث سخروا، وقالوا : لا نعرف الزقوم إلا التمر والزبد.
اذكر ذلك : لتعرف لِمَ لَمْ نجبهم فى إرسال الآيات التى اقترحها ٠٠؟

* * *

ثم يذكره بأمر آخر ٠٠ قائلاً :

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً }
[الآيتان ٦١ ، ٦٢]

يعنى : و اذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية فسجدوا كلهم إلا إبليس الذى كان معهم، وشمله الأمر بالسجود ٠٠ فإنه :

قال متكبراً على أمرنا، معللاً رفضه للطاعة ءأسجد لمن خلقت طيناً أى: لمن خلقته من طين، وأنا من النار، والنار أفضل من الطين.

ثم قال كذلك أرأيتك أخبرنى ‥ أهو هذا الذى كرمت فضلت علىَّ، وأنا خير منه، وأفضل منه ‥؟

لئن أخرتن وأمهلتن إلى يوم القيامة دون موت لأحتنكن ذريته لأستولين عليهم، وأغويهم، وأضلهم، إلا قليلاً منهم، وهم المخلصون.

* * *

أتدرون ‥ أيها الأحبة الكرام : ماذا قال له ربنا عز وجل ؟

{ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا }

[الآيتان ٦٣ ، ٦٤]

أى : أجابه الحكيم الخبير إلى ما طلب، وقال له خمسة أشياء ‥

الأول : اذهب فلن تموت إلا عند النفخة الأولى.

وهذا عن طلبك التأخير إلى يوم القيامة ‥ دون موت ‥

وأما عن إغوائك لبنى آدم : فمن تبعك منهم وتأثر بك، وسار خلفك فإن جهنم جزاؤكم أنت وهم جزاءً موفوراً كاملاً.

الثانى : واستفزز أى : استخف، بـــ من استطعت الاستخفاف به منهم وذلك بصوتك أى : بوسوستك لهم، ودعائهم إلى المعصية .

الثالث : وأجلب عليهم تصرف فيهم، وسقهم إلى ما تريد بخيلك ورجلك بجنودك من الركاب والمشاة جميعهم، واستعمل معهم كل وسائلك فى الإغراء والإفساد.

الرابع : وشاركهم فى الأموال المحرمة كالربا، والسرقة، وخلافه، والأولاد من الزنا.

الخامس : وعدهم بالمواعيد الكاذبة وما يعدهم الشيطان بذلك إلا غروراً أى : باطلاً.

* * *

وهل يفعل إبليس ذلك فى كل الناس ‥؟

لا ‥ أبداً ‥

يقول تعالى :

{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً }
[الآية ٦٥]

يعنى : إن عبادى المؤمنين الصادقين العاملين ليس لك عليهم يا إبليس سلطان من تسلط، أو قوة، بل وسوسة فقط، ينتصرون عليك فيها.
وكفى بربك لهم وكيلاً يؤيدهم، ويحميهم من وسوستك لهم.
ولذلك : فالمعصوم من عصمه الله ٠٠

* * *

ثم يعود الحديث إلى ذكر الدلائل الدالة على : وحدانيته، وقدرته وحكمته، ورحمته ٠٠ حملاً لهم على الإيمان، وإقناعاً لهم به.
حيث يقول تعالى أولاً ٠٠

{ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا }
[الآية ٦٦]

أى : ربكم الإله الواحد، القادر٠٠ هو الذى يزجى يسوق ويدفع لكم الفلك وهى السفن فى البحر جيئة وذهاباً، حاملة لكم ولأمتعتكم لتبتغوا تطلبوا بركوبها، والسفر بها من فضله تعالى، فى الرزق وغيره.
حقاً ٠٠ إنه سبحانه كان بكم رحيماً فى تسخيرها لكم.

* * *

ثم يقول ثانياً :

{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا }
[الآية ٦٧]

أى : و هو ربكم، الإله الواحد القادر، الذى إذا مسكم الضر وهو الشدة فى البحر من خوف
الغرق ٠٠ ضل وغاب عنكم من تدعون وتعبدون من الآلهة المزعومة إلا إياه فى هذا الوقت ٠٠ فلا يغيب عنكم، بل تدعونه وحده؛ لأنكم فى شدة لا يكشفها إلا هو سبحانه.
فإذا دعوتموه : نجاكم ٠٠ فلما نجاكم من الغرق، ووصلتم إلى البر لم تشكروا الله على ذلك، وتؤمنوا به بل أعرضتم عن ذلك.

حقاً ٠٠ وكان الإنسان كفوراً جاحداً للنعم وللمنعم ٠٠ إلا من عصم الله، وقليل ما هم.

* * *

ثم يقول : ثالثاً، ورابعاً ٠٠

{ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً }
[الآية ٦٨]

يعنى : أ كفرتم فأمنتم أن يخسف الله بكم جانب البر أى : الأرض كما فعل بقارون فخسفنا به وبداره الأرض [القصص : ٨١].

أو كفرتم، فأمنتم أن يرسل الله عليكم حاصباً أى : ريحاً ترميكم بالحجارة، كما فعل بقوم لوط عليه السلام، حيث أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود [هود : ٨٢].

ثم فى أية حال منهما لا تجدوا لكم وكيلاً يدفع عنكم هذا العذاب.

* * *

ثم يقول خامساً :

{ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا }
[الآية ٦٩]

يعنى : أم كفرتم، وأمنتم أن يعيدكم الله فيه فى البحر تارة أخرى لشدة حاجتكم لذلك فيرسل عليكم عذاباً لكم قاصفاً من الريح وهى الريح الشديدة، التى تقصف وتكسر كل شىء فى طريقها فيغرقكم فى البحر بما كفرتم أى : بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم فى هذه الحال علينا به تبيعاً ناصراً لكم، وتابعاً يطالبنا بما فعلنا بكم.

* * *

ثم يذكر الله تعالى بعض نعمه على الإنسان؛ تذكيراً له بواجب الإيمان.
فيقول :

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً }
[الآية ٧٠]

فى هذه الآية الكريمة : أربعة أنواع من النعم على الإنسان :

النوع الأول : ولقد كرمنا بنى آدم بالعقل، والنطق، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة ٠٠ إلخ.
النوع الثانى : وحملناهم بقدرتنا فى البر على جميع المركوبات والبحر على أنواع المراكب.
النوع الثالث : ورزقناهم من فضلنا من الطيبات فى المطعم والملبس والمسكن.
النوع الرابع : وفضلناهم إنعاماً منا على كثير ممن خلقنا تفضيلاً.

* * *

ثم لما ذكر ربنا وذكَّر بأنواع النعم على الإنسان فى الدنيا ٠٠
ذكر – كذلك – وذكر بأحوال درجاته ٠٠ يوم القيامة ٠٠
فقال :

{ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً }
[الآية ٧١]

أى : اذكر يوم القيامة ٠٠ يوم ندعو كل أناس كل الناس بإمامهم نبيهم، أو كتاب أعمالهم فيقال : يا أمة النبى فلان، أو يا أمة كتاب الخير، أو كتاب الشر.

فمن أوتى منهم كتابه المسجل فيه عمله بيمينه وهم الصالحون فى الدنيا، السعداء فى الآخرة : فأولئك يقرءون كتابهم فرحين ولا يظلمون ولا ينقصون من ثواب أعمالهم فتيلاً أى : شيئاً ولو قليلاً، والفتيل هو الخيط فى شق نواة التمر.

* * *

وأما من أوتى كتابه بشماله فأولئك يقول المولى عنهم :

{ وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }
[الآية ٧٢]

يعنى : والصنف الثانى و هو من كان فى هذه أى : الدنيا أعمى عن آيات الله، ودلائل وحدانيته سبحانه وقدرته، ولم يؤمن فهو كذلك فى الآخرة أعمى عن طريق النجاة وأضل سبيلاً عما كان فى الدنيا.

وقد دلت هاتان الآيتان ٠٠ على أن من يشكر نعم الله فى الدنيا : يجزى خير الجزاء فى الآخرة.

ومن لم يشكر نعم الله فى الدنيا : فهو محروم من فضل الله فى الآخرة.

* * *

هذا ٠٠

ولما ذكر سبحانه بعض نعمه على خلقه، وأصناف الناس بالنسبة لهذه النعم، من حيث الشكر وعدمه ٠٠

ولما شرح أحوال الشاكرين لله، السعداء فى الآخرة ٠٠

أتبع ذلك بما يعد تحذيراً للسعداء من الاغترار والانخداع بوساوس أهل الضلال الأشقياء ٠٠

فقال :

{ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً }

[الآية ٧٣]

أى : وإن كادوا أى : قارب أهل الكفر بسبب علمهم برغبتك فى إيمانهم ليفتنونك ليصرفونك عن الذى أوحينا إليك من الدين والقرآن لتفترى علينا غيره.

و لو أنك فعلت ما يريدون إذاً لاتخذوك خليلاً لهم وحبيباً ٠٠ ولكنا ٠٠ ثبتناك على الحق.

* * *

{ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا }

[الآيتان ٧٤ ، ٧٥]

يعنى : ولولا أن ثبتناك على الحق الذى أوحينا إليك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً أى : لقاربت أن تميل إليهم، لتصل إلى إيمانهم.

ولو أنك فعلت ما يريدون إذا لأذقناك ضعف الحياة أى : عذاب الحياة مضاعفاً و كذلك أذقناك ضعف الممات أى : عذاب الآخرة مضاعفاً ٠٠ ثم لا تجد لك فى هذه الحال علينا نصيراً لك ، يدفع عنك.

وفى هذا ٠٠ تثبيت لكل الدعاة إلى الله ٠٠ وتنبيه لهم أن يكون خطهم واضحاً، ومنهجهم ثابتاً، لا يتزحزحون عنه، ولا يفرطون فيه ولا يغيرون.

* * *

وبعد أن ذكر الله محاولات أهل الكفر خداع النبى عليه الصلاة والسلام، وصرفه عن الذى أوحى إليه : ذكر سبحانه محاولاتهم فى إخراجه وصرفه عن مكة ..
فقال :

{ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً }
[الآيتان ٧٦ ، ٧٧]

أى : وإن كادوا أى : قارب أهل الكفر، بسبب خوفهم من الحق الذى تدعوهم إليه ليستفزونك ليزعجونك من الإقامة فى هذه الأرض وذلك ليخرجوك منها.

و لو أنهم فعلوا ما يريدون، وأخرجوك إذا لا يلبثون لا يبقون خلافك يعدل فيها إلا قليلاً حيث يهلكهم الله.

حيث إن سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا أن نهلك أقوامهم لو أخرجوهم ولا تجد لسنتنا تحويلاً أى تبديلاً وتغييراً.

ونحن لم نفعل فى قومك ذلك : لأنهم ما أخرجوك، بل نحن الذين أمرناك بالخروج والهجرة.

* * *

ولما ذكر الله محاولات أهل الكفر .. فى الخداع، والاستفزاز ..
أمر سبحانه بالاستعانة على محاولاتهم هذه بالعبادة.
فقال :

{ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا }
[الآية ٧٨]

والمعنى : أقم الصلاة وهى الصلوات الخمس .. وهى:

لدلوك الشمس زوال الشمس إلى غسق الليل ظلمته .. يعنى : من زوال الشمس، ساعة الظهيرة، إلى ظلمة الليل، ويدخل فيها : الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

ثم يقول وقرآن الفجر أى : وصلاة الفجر، وعبر عنها بــ قرآن الفجر لأن القراءة ركن فيها، وحث على قراءة القرآن فى هذا الوقت أيضاً.

حيث يقول إن قرآن الفجر كان مشهوداً أى : تشهده الملائكة، وتجتمع عنده.

* * *

ثم يقول العزيز المجيد له :

{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا }
[الآية ٧٩]

أى : ومن الليل فتهجد أى : فصل صلاة لله تعالى تطوعاً، غير الفرائض المذكورة، واقرأ به أى : بالقرآن ..

وهذه الصلاة نافلة لك أى : زائدة، وثوابها لك.

فصلها .. عسى أن يبعثك يقيمك ربك يوم القيامة، ويجعل لك مقاماً محموداً يحمدك فيه أهل الموقف، ويغبطونك عليه.

* * *

وإذا كان ما تقدم، هو عبارة فعلية : فهناك أيضاً عبادة قولية ..
يأمرك الله بالاستعانة بها على محاولات أهل الكفر فى الخداع، والاستفزاز.
حيث يقول سبحانه :

{ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا }
[الآيتان ٨٠ ، ٨١]

يعنى : وقل رب أدخلنى فى القيام بأداء مهمات دينك وشرائعك مدخل صدق.

وقل ثانياً أخرجنى من أداء مهمات دينك وشرائعك، بعد الفراغ منها مخرج صدق لا يبقى فيه تبعة على ولا ملامة.

وقل ثالثاً اجعل لى يا رب من لدنك سلطاناً نصيراً حجة بينة، تؤيدنى بها، وتثبتنى على الحق، وتنصرنى بها على جميع من خالفنى فى طاعتك ودعوتك.

وقل رابعاً جاء الحق وهو دين الله وشرعه وزهق الباطل وهو كل ما سواه من الملل والنحل والشرائع.

حيث .. إن الباطل) مهما كانت له صولة، أو دولة .. فإنه كان زهوقاً أى : لا يبقى، بل يزول على أسرع الوجوه.

* * *

وبعد أن أمر ربنا تبارك وتعالى ٠٠ بهذه العبادة ٠٠
بين أنها ينبغى أن تؤخذ من القرآن؛ ليكون فيها : الشفاء والرحمة.
فقال :

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا }
[الآية ٨٢]

أى : وننزل من القرآن ما هو شفاء من الضلال ورحمة للمؤمنين به، ولا يزيد الظالمين نزول القرآن، وسماعهم له إلا خساراً حيث تلزمهم الحجة، ولا يؤمنون، فيحق عليهم العذاب.

* * *

ويلاحظ : أنه ما دفعهم إلى عدم الإيمان، ووقوعهم فى الخسران ٠٠ إلا حب الدنيا، والاستغراق فى ملذات النعم، وجحود المُنْعِم.
يقول تعالى :

{ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا }
[الآية ٨٣]

يعنى : وإذا أنعمنا على الإنسان الكافر، بصنوف النعم ٠٠ لم يشكر، بل أعرض عن الشكر للمنعم، و ازداد كفراً، حيث نأى بجانبه غروراً، وإعجاباً بنفسه.
وإذا مسه الشر من مرض أو فقر، أو مصيبة كان يئوسا من رحمة الله، فاقد الأمل فى عود النعم مرة أخرى إليه.
وهذه : هى طبيعة الكافر !!
فهل يزيده القرآن، وجحوده به، إلا خساراً ٠٠؟

* * *

ولذلك :

{ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً }
[الآية ٨٤]

أى : قل لأهل الباطل كل واحد منا ومنكم يعمل على شاكلته أى : على ما يناسب طبيعته من الهدى والضلال، فكل إناء بما فيه ينضح.

فربكم أعلم بمن هو منا أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً، وسيحاسب كلاً منا بما يستحقه.

وهذا : تهديد لأهل الباطل، ووعيد لهم ٠٠

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠

روى : أن اليهود قالوا لقريش ٠٠ اسألوا محمداً عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين، وأمسك عن الثالثة : فهو نبى.

اسألوه ٠٠ عن : أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين، وعن الروح.

فسألوه : فقال ٠٠ غداً أجيبكم، ولم يقل إن شاء الله.

فانقطع عنه الوحى ٠٠ أربعين يوماً ٠٠

ثم نزل الوحى بقوله تعالى ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله [الكهف : ٢٣ ، ٢٤].

ثم نزل الوحى ٠٠ بقصة أصحاب الكهف، وقصة ذى القرنين، وأبهم قصة الروح.

حيث نزل :

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }
[الآية ٨٥]

يعنى ويسألونك عن الروح الذى يحيا به البدن قل لهم الروح من أمر ربى أى : علمه لا يعلمه أحد.

وما أوتيتم أنتم، وكل المخلوقات التى تعى من العلم إلا قليلاً حيث لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء سبحانه.

* * *

ولما بين ربنا : أنه ما آتى خلقه من العلم إلا قليلاً.

يبين كذلك : أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل ٠٠ لقدر عليه.

إذ يقول سبحانه :

{ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا }

[الآيتان ٨٦ ، ٨٧]

أى : ولو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك من القرآن، حيث نمحوه بقدرتنا من الصدور، والمصاحف ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً يمنعنا من ذلك.

ولكنا لم نفعل ·· بل أبقيناه إلى يوم القيامة، وما أبقيناه إلا رحمة من ربك عليك وعلى الدنيا كلها.

وهذا فضل من الله ··

حقاً ·· إن فضله كان عليك كبيرا.

وإذا كان هذا مع محمد صلى الله عليه وسلم : فهو مع غيره آكد وآكد.

* * *

لاحظوا ·· أيها الأحبة فى الله ··

أن فى ذلك دليلاً على أن القرآن ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو من عند الله، الذى يقدر أن يذهب به، ويقدر أن يبقيه إلى يوم القيامة.

وما داموا يشكون أنه من عند محمد : فليأتوا بمثله ··

ولكن أنى لهم ذلك ··؟

{ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا }

[الآية ٨٨]

يعنى : قل لمن يشكون أن القرآن من عند الله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، وتعاونوا على أن يأتوا من عند أنفسهم بمثل هذا القرآن وما فيه؛ ليثبتوا أنه من عندك، وأنك فعلت كما فعلوا ··!!

لا يأتون بمثله أبداً.

حتى ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً مساعدًا فى تحقيق هذا الغرض.

* * *

وما داموا لا يستطيعون ··

فليؤمنوا، وليتعظوا بما فيه ··

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا }

[الآية ٨٩]

أى : ولقد صرفنا بينا للناس جميعاً فى هذا القرآن مثلاً من كل مثل ليتعظوا.
فأبى أكثر الناس إلا كفوراً بربهم، وما اتعظوا، وآمن القليل، وانتفعوا بما فيه، واتعظوا به.

* * *

وهذه الأكثرية : عاندت وبقيت على كفرها ..
ومنهم أهل مكة .. الذين أصروا على الكفر ..

{ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا }
[الآية ٩٠]

يعنى : وقالوا لن نؤمن لك حتى تأتينا بواحد من هذه الأمور الستة :
الأول : تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أى : تفجر لنا فى أرض مكة عيناً، نشرب من مائها.

* * *

الثانى :

{ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا }
[الآية ٩١]

يعنى : أو تكون لك جنة بستان من نخيل كما فى يثرب وعنب كما عند أهل الطائف .. فتفجر الأنهار أيضاً خلالها وبين أشجارها وممراتها تفجيراً يكون به ماؤها غزيراً.

* * *

الثالث والرابع :

{ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً }

[الآية ٩٢]

يعنى : أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أى قطعاً، نراها بعيوننا.
أو تأتى بالله والملائكة كلهم قبيلاً أى : أصنافاً، ونراهم بعيوننا، ويشهدون لك بنبوتك.

* * *

الخامس والسادس :

{ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً }
[الآية ٩٣]

يعنى : أو يكون لك بيت مبنى من زخرف من ذهب.
أو ترقى تصعد فى السماء بسلم ولن نؤمن لرقيك لو رقيت فيها، خوفاً من أن تكون قد سحرتنا حتى تنزل علينا منها كتاباً فيه تصديقك نقرؤه ٠٠ فنؤمن لك.
ولأن كل هذه المطالب ٠٠ تعنت فى تعنت، وعناد فى عناد.
فقد قال تعالى له صلى الله عليه وسلم :
قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً
أى : قل تعجباً من موقفهم، وتنزيهاً لربك سبحان ربى ماذا تطلبون منى ٠٠؟
هل كنت إلا بشراً رسولا كسائر الرسل، والرسل لا يأتون إلا بما يوحى إليهم به ربهم، وأنا بشر مثلهم ٠٠ لا آتى إلا بما يوحى إلىَّ به ربى.

* * *

على كل حال ٠٠ هذه مشكلة المعاندين، وهى بشرية الرسل.
يقول المولى :

{ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً }
[الآية ٩٤]

يعنى : ما منع الناس من الإيمان ٠٠ لما جاءهم الهدى إلا بسبب أنهم قالوا تعجباً واستهزاءً أبعث الله بشراً رسولا؟

* * *

{ قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً }
[الآية ٩٥]

أى : قل لهؤلاء ٠٠ نعم لأنكم بشر، بعث الله إليكم بشراً، ولو كان فى الأرض ملائكة يمشون فيها مطمئنين مقيمين عليها لا يرحلون منها لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً يناسبهم، كما نزلنا عليكم بشراً رسولاً يناسبكم.

* * *

ثم ٠٠

{ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا }
[الآية ٩٦]

يعنى : قل لهم كفى بالله شهيداً بينى وبينكم على صدقى فى دعواى.
حيث إنه كان بعباده جميعاً خبيراً ببواطنهم بصيراً بظواهرهم.

* * *

ولهذا ٠٠
فهو أعلم بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الضلال.

{ وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا }
[الآية ٩٧]

أى : ومن يهد الله ويوفقه لما فيه الهدى، ويلتزم به فهو المهتد.
ومن يضلل الله، ولا يوفقه لما فيه الهدى، أو يعرف ولا يلتزم به فلن تجد لهم أبداً أولياء من دونه سبحانه يهدونهم وينصرونهم ٠٠ وهذا فى الدنيا.

وفى الآخرة ٠٠ يقول ربنا :

ونحشرهم يوم القيامة وهم يمشون على وجوههم ٠٠ ويكونون عمياً لا يبصرون وبكماً لا يتكلمون وصماً لا يسمعون.

وفى النهاية : يكون مأواهم إقامتهم جهنم بنيرانها وعذابها كلما خبث سكنت زدناهم سعيراً عذاباً بلهيبها.

* * *

{ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا }
[الآية ٩٨]

يعنى : ذلك العذاب جزاؤهم الذى يستحقونه ٠٠ بسبب :

أولاً : أنهم كفروا بآياتنا.

ثانياً : أنهم كفروا بالبعث وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً بالية أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ إن هذا لا يمكن أن يكون.

لقد : كفروا، ثم كذبوا ٠٠ فاستحقوا ما ينتظرهم من العذاب.

* * *

بعد أن أجاب سبحانه على شبهات منكرى النبوة، يعود بالحديث – مرة أخرى – ليرد على شبهات منكرى البعث ٠٠ الذين قالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟

فيقول تبارك وتعالى :

{ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا }
[الآية ٩٩]

والمعنى : أيستبعدون على الله تعالى أن يقدر على بعث العباد ٠٠؟ كيف يكون هذا ٠٠؟!!

أ عموا، وجهلوا ولم يروا ويعلموا أن الله الذى خلق السموات والأرض بقدرته قادر أيضاً على أن يخلق مثلهم أى : على أن يعيد خلقهم ثانيا، ويحاسبهم على هذا الإنكار ٠٠؟

هذا ٠٠

وليعلموا جيداً ٠٠ أنه سبحانه جعل لكم أجلاً محدداً، معلوماً، لا ريب فيه يعيدهم فيه، ويبعثهم للحساب والجزاء.

وقد وضح الله هذه الدلائل جيداً فأبى الظالمون الانتفاع بها، وما كان موقفهم منها إلا كفوراً بها، وجحوداً لها، ونفوراً منها.

* * *

ولما كان الكافرون ٠٠ قد قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً فنزرع ونتوسع فى الرزق والإنفاق ٠٠!!
بين الله لهم ٠٠ أنهم لو ملكوا خزائن الله لبقوا على بخلهم.
حيث يقول للمصطفى عليه الصلاة والسلام:

{ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا }
[الآية ١٠٠]

أى : قل لهم لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى من الرزق والمطر، وطلب منكم أحد شيئاً إذاً لأمسكتم بما عندكم، وبخلتم، ولم تعطوه خشية الفقر من هذا الإنفاق المطلوب منكم.
و لا غرابة فى هذا ٠٠ حيث كان الإنسان الكافر بطبعه قتوراً أى : بخيلاً.

* * *

هذا ٠٠
وفى معرض الرد على أهل الكفر ٠٠ لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات التى ذكروها : يقول تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات معجزات، أقوى مما طلبتم، فماذا فعل قومه ٠٠؟
فلنقرأ قوله تعالى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا }
[الآية ١٠١]

يعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات معجزات بينات واضحات.
ثم قلنا لموسى فاسأل بنى إسرائيل أى : اطلب خلاص بنى إسرائيل من فرعون إذ جاءهم مصر.
وسأل موسى بالفعل فرعون قائلاً أرسل معى بنى إسرائيل [الأعراف : ١٠٥].
فماذا فعل فرعون ٠٠؟
قال له إنى لأظنك يا موسى مسحوراً مغلوباً على عقلك.

* * *

فماذا قال موسى عليه السلام.

{ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا }
[الآية ١٠٢]

أى : قال موسى لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات التسع إلا رب السموات والأرض فأنا نبى، ولست مسحوراً.

وقد أنزل رب السموات والأرض هذه الآيات بصائر دلائل واضحة؛ يبصرها كل إنسان، وقد أبصرتها ورأيتها أنت، ولكنك معاند.

ثم قال وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً هالكاً، ومعذباً على كفرك وعنادك هذا.

* * *

فهل سكت فرعون عند هذا الحد ..؟

كلا ..

يقول المولى سبحانه :

{ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا }
[الآية ١٠٣]

يعنى : فأراد فرعون، وحاول جاهداً أن يستفزهم يستأصلهم، بتعذيبهم، وقتلهم وإفنائهم من الأرض وهى أرض مصر.

ولكن .. لأنه طاغية ظالم، كافر معاند : كان له العزيز الجبار بالمرصاد.

يقول عز وجل فأغرقناه فى البحر، عند لحوقه بموسى ومن معه، فأغرقه الله هو ومن معه جميعاً.

* * *

{ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا }

[الآية ١٠٤]

أى : وقلنا من بعد هلاك فرعون لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض يعنى : أرض الشام، ثم الأرض كلها بعد تشتتهم.

فإذا جاء وعد الآخرة أى : الإفسادة الثانية – كما فى أول السورة – جئنا بكم من أرض الشتات إلى فلطسين لفيفاً أى : جماعات .

وذلك : ليسوءوا عباداً لنا أولى بأس شديد وجوهكم، ويحققوا فيكم وعد الله.

وتحتمل الآية أيضاً فإذا جاء وعد الآخرة وهى القيامة جئنا بكم لفيفاً مختلطين فنميز محسنكم ومسيئكم، ونجازى كل فريق بما يستحق.

* * *

فهل فهمتم يا كفار مكة، ويا كفار العالم ٠٠ هذا الدرس ٠٠؟

فتكون النتيجة ٠٠ إيمانكم بالله، وتصديقكم لمحمد صلى الله عليه وسلم، واتباعكم للقرآن الكريم، وما فيه من تشريعات ٠٠

خاصة وأن الله تبارك وتعالى ٠٠ يقول عنه :

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا }
[الآية ١٠٥]

يعنى : وبالدعوة إلى الحق أنزلنا القرآن، وبالحق الذى يحتويه، ويشتمل عليه، ويدعو إليه نزل من عندنا، لم يتطرق إليه تبديل أو تحريف.

و هؤلاء الذين يعاندونك، ويقترحون عليك المعجزات ٠٠ لا عليك من كفرهم، فإنا ما أرسلناك إلا مبشراً لمن أطاعك بالجنة ونذيراً لمن عصاك بالنار.

* * *

قالوا : هب أن هذا القرآن، الذى تدعى أنه نزل بالحق ٠٠ أما كان من الواجب أن ينزل عليك كله، جملة واحدة ٠٠؟

أجاب لله تعالى بقوله:

{ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً }
[الآية ١٠٦]

أى : لم ننزل هذا القرآن جملة واحدة، بل فرقناه وفرَّقناه إلى أجزاء فى نزوله عليك لتقرأه على الناس وتبلغه إليهم على مكث أى : تؤدة وتمهل وأناه.

* * *

و هكذا نزلناه عليك تنزيلاً على حسب الحوادث والوقائع فى ثلاث وعشرين سنة.

* * *

هذا ..
وما دام القرآن : قد نزل بالحق، وكان من حكمة الله أن فرق نزول آياته فى ثلاث وعشرين سنة ..
فإن الله يقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء الأقوال الثلاثة الآتية:

* * *

الأول :

{ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا }
[الآيات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩]

يعنى : قل لهم آمنوا به أو لا تؤمنوا لكم مطلق الحرية، فالنفع لكم وحدكم والضرر عليكم فقط.
يا أهل الكفر .. لا تعاندوا ..
فإن العقلاء من الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب : لم يعاندوا، بل آمنوا به.. بل أكثر من هذا .. اسمعوا ..!!
إن الذين أوتوا العلم فى كتبهم السابقة من قبله أى : من قبل القرآن .. كانوا إذا يتلى عليهم القرآن .. يخرون للأذقان سجدا بكل خشوع وخضوع، ودون تكبر أو عناد .
ويقولون سبحان ربنا تعظيما له وتوقيرا إن كان وعد ربنا ببعث محمد، ونزول القرآن عليه كما جاء على لسان الأنبياء من قبله لمفعولا أى : واقعاً .
ويخرون للأذقان فى سجودهم يبكون خضوعاً لله، وخوفاً من عذابه، ورجاءً فى رحمته ويزيدهم القرآن خشوعاً أى : إيماناً وتسليماً، ورقة قلب، وحلاوة ذكر.

* * *

الثانى :

{ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً }
[الآية ١١٠]

يعنى : قل لهم ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فهما اسمان لإله واحد، وليسا إلهين كما تفهمون وتعيبون ٠٠ وذلك لما قالوا : ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعوا إلهاً آخر مع الله.

على كل حال : أياماً أى : اسم تدعوا الله به، فهو حسن فله سبحانه الأسماء الحسنى كلها، وهذان الاسمان منها.

ولا تجهر بصلاتك حتى يسمعك المشركون، فيسبون.

ولا تخافت بها حتى لا يسمعك من خلفك من المسلمين.

وابتغ بين ذلك سبيلاً أى : كن وسطاً فى هذا الأمر ٠٠ وهو طبيعة المسلم فى كل أمر، وخير الأمور أواسطها.

* * *

ثالثاً :

{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا }
[الآية ١١١]

يعنى : نزه الله، وعظمه، بعد أن ثبتت له الأسماء الحسنى فى الأذهان.

وقل فى هذا التعظيم الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يتخذ ولداً كما زعمت فرق من اليهود والنصارى، وغيرهم.

وقل كذلك فى هذا التعظيم : الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يكن له شريك فى الملك كما زعم المشركون.

قل – ثالثاً – فى هذا التعظيم : الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يكن له ولى ينصره من الذل أى : لم يذل فيحتاج إلى ناصر .

و أخيراً كبره تكبيراً أى : عظمه تعظيماً، باتباع شرعه، والخضوع لأحكامه، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحى الفرماوى
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

{ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ }
[الآية ١]

يعنى : اقترب للناس وقت حسابهم وهو يوم القيامة وهم فى غفلة عن ذلك بانشغالهم بالدنيا ومتاعها الزائل.

والعجيب أنه : إذا زالت عنهم هذه الغفلة بعض الشىء ٠٠ صاروا معرضين عن هذا اليوم، والإيمان به، والاستعداد له.

وهذا الكلام : وإن كان لفظه للكافرين، فهو للجميع تنبيه، وتحذير ٠٠!!

* * *

ومن أحوال هؤلاء الذين هم فى غفلة معرضون عن يوم القيامة هذا ٠٠
أنه :

{ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ }
[الآية ٢]

أى : ما يأتيهم ويتلى عليهم من ذكر من القرآن، الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم من ربهم محدث شيئاً فشيئاً إلا استمعوه وهم منصرفون عنه يلعبون يستهزئون به، ويعرضون عنه.

* * *

وما ذلك الحال إلا لأنه ٠٠

{ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ }
[الآية ٣]

أى : سبب ما هم فيه أمور :

الأول : أنه لاهية قلوبهم فهى مشغولة عن هذا القرآن، وما فيه من إنذار وتخويف باللهو واللعب.
الثانى : أن الرسول إليهم بشر مثلهم وأسروا بالغوا فى إخفاء النجوى وهو الكلام الذى يدور بينهم.
حقاً .. إنهم هم الذين ظلموا.
ماذا يقولون ..؟
يقولون هل هذا إلا بشر مثلكم فبماذا يمتاز عليكم حتى يكون رسولاً؟ هلا كان ملكاً ..؟ هلا كان واحدًا من القريتين عظيما ..؟
الثالث : أنه ساحر يخدعكم أفتأتون السحر وتصدقونه، وأنتم تبصرون وفى كامل وعيكم ..؟
هذا .. هو موقف الكافرين من محمد صلى الله عليه وسلم، ومما جاء به، ومما خوفهم منه.

* * *

ويكون رد النبى صلى الله عليه وسلم عليهم :

{ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ٤]

أى : قال لهم مهدداً ربى يعلم القول فى السماء والأرض ويعلم سركم وجهركم، وطعنكم، واستهزاءكم وهو السميع لكل شىء، العليم بكل شىء، لا يعجزه عن عقابكم شىء سبحانه وتعالى.

* * *

ثم يكمل القرآن باقى الأسباب التى جعلتهم فى غفلة معرضون عن القرآن ويلعبون ويستهزئون.
فيقول :

{ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ }
[الآية ٥]

السبب الرابع لتكذيبهم : بل قالوا على القرآن .. إنه أضغاث أوهام وتخاريف أحلام يراها محمد فى نومه.
السبب الخامس : أنه ألفه من نفسه، واخترعه من عنده بل افتراه.
السبب السادس : أنه شاعر، يهيم فى أودية الشعر، وتخاريف الشعراء، ويدعى أنه نبى بل هو شاعر وما أتى به شعر.

السبب السابع : ليست معه آية، تكون علامة على صدقه فى دعواه فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ومعهم الآيات؛ لنصدقه فيما يقول.

ويكون الرد عليهم، والتثبيت للنبى صلى الله عليه وسلم :

{ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٦]

إنهم يُكذِّبون، ويطلبون هذه الآيات ·· ليؤمنوا ··؟!
لن يؤمنوا ·· حيث إنه ما آمنت قبلهم من قرية جاءتها الآيات، ولذلك أهلكناها.
أفهم يؤمنون ··؟ كلا ··!!

* * *

ثم ··
هم يقولون : أنت بشر مثلهم، ولمَ لَمْ تكن ملكاً ··؟

{ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ }
[الآيات ٧ – ٩]

أى : و هذه ليست علة لعدم إيمانهم ·· فنحن ما أرسلنا قبلك من رسل إلا كانوا رجالاً نوحى إليهم ولم يكونوا ملائكة.

وإذا لم تكونوا مصدقين فاسألوا العلماء أهل الذكر من قبلكم، الذين أنزل عليهم التوراة والإنجيل، فأنتم تصدقونهم إن كنتم لا تعلمون.

و هؤلاء الأنبياء السابقون ما جعلناهم جسداً أى : أجسادًا لا يأكلون الطعام بل كانوا يأكلونه وما كانوا خالدين فى الدنيا.

ثم صدقناهم الوعد بإهلاك أعدائهم فأنجيناهم من أذاهم، و نجينا معهم من نشاء من أتباعهم، المؤمنين بهم، المصدقين لهم، وأهلكنا المسرفين المكذبين لهم.

* * *

وفى إعلان قوى، وتنبيه واضح ·· يقول ربنا لهذه الأمة :

{ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }
[الآية ١٠]

يعنى : لقد أنزلنا إليكم كتاباً هو القرآن الكريم فيه ذكركم أى : شرفكم إذا تمسكتم به، وعزكم إذا عملتم بما فيه.

أفلا تعقلون ذلك، وتدركون هذه النعمة، وتتمسكون بهذا الشرف، فتؤمنون، وتلتزمون، وتتفوقون، وتقودون به الدنيا وأهلها إلى بر الأمان والسلام ٠٠؟

* * *

وتعود آيات السورة إلى التحذير والإنذار للاهين المعرضين المكذبين.

فيقول العزيز الجبار :

{ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ }
[الآيات ١١ – ١٥]

يعنى : و اذكر لهؤلاء المكذبين، وأخبرهم كم قصمنا أهلكنا من أهل قرية كانت ظالمة أى : كافرة طاغية، بسبب كفرهم وطغيانهم، وأنشأنا خلقنا بعدها قوماً آخرين.

فلما أحسوا أى : شعروا، وهم أهل القرية الظالمة بأسنا عذابنا، ورأوا مقدمات إهلاكنا لهم إذا هم منها يركضون يفرون هروباً من العذاب.

وهنا ٠٠ قيل لهم لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه من نعيم الدنيا ومتاعها، الذى طغيتم بسببه ومساكنكم التى عصيتم الله فيها، وظلمتم عباده سبحانه، لعلكم تسألون وهذا من باب الاستهزاء بهم، أى : لعلكم تسألون عما جرى لكم، ونزل بكم ٠٠ فتخبرون من يسألكم عن علم ويقين ومشاهدة.

وعلى الفور ٠٠ قالوا يا ويلنا يا حسرتنا ويا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا بكفرنا، ولغيرنا بطغياننا.

فما زالت تلك وهى قولهم ٠٠ يا ويلنا إنا كنا ظالمين دعواهم التى يكررونها، ويدعون بها على أنفسهم حتى جعلناهم فصاروا حصيداً مثل الزرع الذى انتهى عمره، وتم حصده خامدين لا حس ولا حركة فيهم.

فهل تعتبرون بما حدث لهذه القرى التى كانت ظالمة ٠٠؟

وهل تؤمنون ٠٠؟

* * *

هذا ٠٠
وإذا كان رب العزة قد بين أنه أهلك المكذبين، وقصم ظهورهم ٠٠ فإن ذلك منه : عدلاً، لا لعباً.
والدليل على ذلك ٠٠ قوله تعالى :

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ }
[الآية ١٦]

نعم ٠٠ ليس شأننا اللعب ٠٠
وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما على هذا الشكل البديع العجيب لاعبين بل للدلالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ونفع عبادنا.

* * *

واللعب : لهو وعبث ٠٠
ونحن :

{ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ }
[الآية ١٧]

يعنى : لو أردنا أن نتخذ لهواً نلعب به ونتسلى : من زوجة أو ولد، أو عذاب للمكذبين، لما قد تفهمون لاتخذناه أى : هذا اللهو من لدنا أى : من عندنا نحن لا من عندكم، ودون أن نخلق هذا الخلق بالمرة إن كنا ممن يريد اللهو، أو كنا فاعلين له، ونحن لا نريده، ولا نفعله.

* * *

ليس الأمر أبداً هكذا ٠٠

{ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }
[الآية ١٨]

بل شأننا وأمرنا : أننا نقذف نرمى بشدة بالحق وهو الإيمان، ودلائله على الباطل وهو الكفر، وشبهاته فيدمغه أى : يدحضه، ويذهبه.

فإذا هو أى : الباطل زاهق ذاهب، يمحى ٠٠ دون أثر يتركه.

و أما أنتم يا أهل الباطل فـــلكم الويل والهلاك مما تصفون وتقولون على الله ما لا تعلمون مما لا يليق به سبحانه، وتقولون على الرسول صلى الله عليه وسلم ما ليس فيه ٠٠ من أنه : شاعر، أو ساحر، أو على القرآن أنه افتراه.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠

لما نفى رب العزة اللعب عن نفسه : فكأنه نفى حاجته عز وجل إلى غيره٠٠

ونفى الحاجة هذا : لا يكون إلا عند توافر كمال القدرة.

لذلك ٠٠ قال عز من قائل :

{ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ }

[الآيتان ١٩ ، ٢٠]

يعنى : كيف يحتاج المولى إلى ما تصفون و هو الذى له ما فى السموات والأرض خلقاً وملكاً، فهو الغنى عن كل شىء، الذى لا يحتاج إلى أى شىء؟

كيف يحتاج المولى إلى ما تصفون ومن عنده من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ولا يتعبون، بل يسبحون الليل والنهار لا يفترون تسبيحهم دائم متصل، كالتنفس عند الإنسان الحى.

* * *

لاحظوا أيها الأحبة الكرام ٠٠

الكافرون لم يكتفوا بما وصفوا الله تعالى به ٠٠ مما لا يليق بذاته.

بل تجاوزوا القول إلى الفعل ٠٠

يقول المولى عنهم :

{ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ }

[الآية ٢١]

أم : بمعنى بل ٠٠ يعنى : بل اتخذ هؤلاء آلهة من الأرض كالأصنام الحجرية، والذهبية، والفضية ٠٠إلخ.
هل يقولون عن هذه الآلهة هم ينشرون أى : يحيون الموتى ويبعثونهم؟
لا ٠٠ لا يستطيعون قول هذا ٠٠
إذاً : لا يكون إلهاً إلا من يحيى الموتى.

* * *

كما أنه :

{ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ }
[الآية ٢٢]

أى : لو كان فيهما يعنى : السموات والأرض آلهة إلا الله غير الله، معه سبحانه، كما يدعى هؤلاء المعرضون لفسدتا لخربتا.
وهذا قول كبير، وصف خطير ٠٠ فى حق الله تعالى.
فسبحان الله رب العرش خالقه، تنزه وتعالى عما يصفون من هذه الأقوال الفارغة.

* * *

فهو الإله القادر، الواحد الأحد.

{ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ }
[الآية ٢٣]

أى : لا يسأل من أحد عما يفعل لأنه المالك الحقيقى، والمحاسب الواحد وهم يسألون ويحاسبون، عما فعلوا؛ حيث إنهم عبيد مملوكون.

* * *

ثم يكرر ربنا تبارك وتعالى الحديث عن قضية اتخاذهم آلهة غير الله ٠٠ استعظاماً لكفرهم، وتعجيزاً لهم عن وجود حجة لهم فى ذلك ٠٠
حيث يقول :

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ }
[الآية ٢٤]

أم أيضاً : بمعنى بل ٠٠ يعنى : بل اتخذ هؤلاء من دونه من غيره سبحانه آلهة يعبدونها، كالأصنام، وغيرها.

إن كان لهم دليل على ذلك ٠٠ قل لهم هاتوا برهانكم دليلكم الذى دفعكم إلى هذا.

إنهم لن يأتوا بشىء من دليل على ما يقولون.

لذلك ٠٠ قل أنت :

هذا هو القرآن ذكر من معى من أمتى.

و هذه الكتب السابقة ذكر من قبلى من الأمم المتقدمة.

وهو وهى : يقولون، ويثبتون ٠٠ أنه لا إله إلا الله وحده.

وهذه هى الحقيقة، ولكن أكثرهم لا يعلمون هذا الحق.

ولذلك : فهم معرضون عن الإيمان.

* * *

وليس ذلك التوحيد فى القرآن والكتب المتقدمة فقط ٠٠ بل أيضاً :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }
[الآية ٢٥]

يعنى : و كذلك ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول فى أمة من الأمم إلا وكنا نوحى إليه بهذا التوحيد، وهو أنه لا إله إلا أنا الواحد الأحد، المستحق للعبادة فاعبدون أى : وحدونى، وأطيعونى.

* * *

هذا ٠٠

وبعد أن نفى ربنا سبحانه وتعالى بالدليل الواضح عن نفسه شبهة الشريك والضد.

بدأت الآيات الكريمة تنفى عن الله تعالى شبهة اتخاذ الولد.

يقول تعالى :

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ }
[الآية ٢٦]

يعنى : و هناك من قالوا كذباً وزوراً اتخذ الرحمن ولداً حيث قالوا : الملائكة بنات الله.
ويرد الله عليهم بقوله :
سبحانه تنزه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.
بل هؤلاء الذين قالوا عنهم إنهم بنات الله، ما هم إلا عباد لله تعالى.
ثم وصفهم ربنا بعدة صفات :
الأولى : مكرمون عنده عز وجل، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما أمرهم [التحريم : ٦].
الثانية والثالثة :

{ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }
[الآية ٢٧]

يعنى : أنهم لا يقدمون قولهم على قوله تبارك وتعالى، فهم فى غاية الأدب مع قول الله وحكمه.
كما أنهم – فى الصفة الثالثة – مطيعون لله فى أفعالهم وهم بأمره يعملون.

* * *

ثم يقول سبحانه وتعالى عن باقى صفاتهم :

{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ }
[الآية ٢٨]

هذه الآية تحدد الصفات التالية :

الصفة الرابعة : أنهم فى منتهى الخضوع، وكمال العبودية؛ حيث إنهم علموا جيداً أنه سبحانه يعلم ما بين أيديهم مما عملوه وما خلفهم مما لم يعملوه.
الصفة الخامسة : أنهم لكمال عبوديتهم لا يشفعون إلا بإذنه لمن ارتضى له شفاعتهم.
الصفة السادسة : أنهم من خشيته أى من خشيتهم من ربهم مشفقون خائفون.

* * *

الصفة السابعة : أنهم لا يدعون الألوهية.
يقول تعالى :

{ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ }
[الآية ٢٩]

وهذا : لم يحدث منهم إطلاقاً، وعلى فرض أنه يحدث فإن من يقل منهم إنى إله من دونه أى : من دون الله ..!!
فذلك القائل نجزيه جهنم خالداً فيها مخلداً.
وكذلك الجزاء نجزى الظالمين الكافرين أيضاً.

* * *

وبعد هذه الردود القوية على فساد أقوالهم ..
يسوق المولى عز وجل الدلائل على وجود الصانع الحكيم، وتنزهه عن الشريك والنظير والشبيه.
وهذه الدلائل فى ذاتها : رد بليغ على عبدة غير الله.
حيث يقول سبحانه :

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }
[الآيتان ٣٠ – ٣٣]

أو لم ير الذين كفروا يعنى أ جهل الذين كفروا ولم يعلموا هذه الأنواع من الأدلة الواضحة، التى تقودهم إلى الإيمان ..؟
وهذه الأنواع المذكورة فى هذه الآيات الكريمة : ستة.
النوع الأول : فصل السموات والأرض أن السموات والأرض كانتا رتقا أى : ملتصقتين ففتقناهما يعنى : ففصلناهما عن بعضهما البعض.
وهذا يتفق ويؤكد ما وصل إليه العلم الحديث، من أن بعض المجرات تنطلق بسرعة هائلة خارجة عن مركز الكون، مما يدل على أن هذا الكون .. كان كتلة واحدة، ملتصقة بعضها ببعض.
النوع الثانى : خلق كل شىء من الماء وجعلنا من الماء كل شىء حى أى: خلقنا كل شىء من الماء، وذلك لفرط احتياجه له.
ثم يقول ربنا أفلا يؤمنون بوحدانيتى، وقدرتى ..؟

النوع الثالث : تثبيت الأرض بالجبال وجعلنا فى الأرض رواسى أى : جبالاً أن تميد بهم حتى لا تتحرك بهم وتهتز، فلا يستقرون عليها، ولا ينتفعون بها.

النوع الرابع : شق الطرق الواسعة فى الأرض والجبال وجعلنا فيها فجاجاً أى طرقاً سبلاً نافذة غير مسدودة، يمرون خلالها، وينتفعون بها.

ثم يقول ربنا لعلهم يهتدون بهذا الدليل إلى وحدانية الله، وبهذه الطرق إلى ما يريدون الوصول إليه.

النوع الخامس : حفظ السماء وجعلنا السماء سقفاً للأرض، كسقف البيت محفوظاً عن السقوط من جهة، ومحفوظاً بالشهب من الشياطين.

وهذه السماء مليئة بالآيات ٠٠كالشمس والقمر والنجوم وخلافه ، وكلها دالة على وجود الله.

وهم أى الكفار عنها، وعن آياتها هذه معرضون عن إعمال عقولهم فيها، والإيمان بسببها.

النوع السادس : خلق الليل والنهار وخلق الشمس والقمر وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك أى : سماء يسبحون يسيرون.

كل ذلك بقدرته وحده سبحانه ٠٠ فهل يعتبرون، فيؤمنون ٠٠؟

* * *

وهذه الأنواع من الدلائل ٠٠ هى من أصول نعم الدنيا ٠٠

ولذلك يتبعها الله عز وجل بما يدل به على أنها دار ابتلاء، نعيمها فان، بل إن من خلقت له وهو الإنسان سيموت.

ولذلك : ينبغى أن يتوصل بها – عن طريق الطاعة – إلى نعيم الآخرة.

فيقول سبحانه :

{ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }

[الآيتان ٣٤ ، ٣٥]

نزلت هذه الآية ٠٠ لما قال الكفار شماتة : إن محمداً سيموت.

فقال ربنا ٠٠ نعم سيموت، ولكن هل سيبقى أحد فى هذه الدنيا من البشر؟

كلا.

وما جعلنا لبشر كان من قبلك ولا ممن سيأتى بعدك الخلد أى : البقاء الدائم ٠٠ إذّ كل شىء هالك إلا وجهه سبحانه القصص : ٨٨].

فلا تتألم من شماتتهم، ولا تتأثر بكلامهم ٠٠ فهم سيموتون أيضاً.

أفئن مت فهم الخالدون فيها.

كلا.

بل أكثر من هذا ٠٠

كل نفس ذائقة الموت فى الدنيا.

ونبلوكم نختبركم بالشر والخير فيها ٠٠ من فقر وغنى، وصحة ومرض، فتنة لننظر ٠٠ أتصبرون، وتشكرون؛ فتؤجرون، أولاً.

و بعد هذه الحياة، وما فيها ابتلاء إلينا يرجعون بالموت، فنجازيكم على أعمالكم.

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ }
[الآية ٣٦]

يعنى : هؤلاء الكفار ٠٠ لا يشمتون بك فقط، بل يهزءون، ويقولون لبعضهم البعض أهذا الذى يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها، ويسفه أحلامكم أيضاً ٠٠؟

وهم بذكر الرحمن الذى هو القرآن – فى ذات الوقت – هم كافرون.

يعنى : كافرون بالله، وبالرسول، وبالقرآن.

* * *

هذا ٠٠

ومن كثرة استهزائهم : كانوا يستعجلون العذاب، الذى يهددهم به رب العزة سبحانه.

لذلك يقول :

{ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ }
[الآية ٣٧]

يعنى : خلق الإنسان عجولاً فى كل أموره ٠٠

لذلك : ينبغى عليه جهاد نفسه ٠٠ فى التأنى والتعقل.

وعلى الكفار أن لا ينساقوا وراء طبعهم، فيستعجلوا العذاب، وإلا ٠٠ فيقول تعالى لهم سأوريكم آياتى الدالة على وحدانيتى، وقدرتى، فإن عصيتم وكفرتم : أعذبكم لا محالة.

فلا تستعجلون عذابكم، فهو آتيكم.

* * *

وهؤلاء الكفار ٠٠ يستهزءون أيضاً ٠٠

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٣٨]

أى : متى تأتى القيامة، التى تتحدثون عنها، لنرى العذاب، الذى تهددوننا به؟ ٠٠ إن كنتم صادقين فيما تقولون ٠٠!!

* * *

ويرد عليهم الحكيم الخبير ٠٠ قائلاً :

{ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ }
[الآية ٣٩]

يعنى : لو يعلم الذين كفروا هذا العذاب حين لا يكفون ويمنعون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بأنفسهم ولا هم ينصرون بغيرهم ٠٠ لما كفروا، ولما استهزءوا، ولما استعجلوا موعد هذا العذاب.

* * *

وأما عن موعد القيامة ٠٠ فيقول ربنا :

{ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ }
[الآية ٤٠]

يعنى : بل تأتيهم هذه القيامة التى يسألون عن موعدها استهزاءً بغتة فجأة فتبهتهم تجعلهم حيارى تائهين، عاجزين عن التصرف.

فلا يستطيعون ردها ودفعها عنهم.

ولا هم ينظرون ويؤجلون إلى موعد آخر.

* * *

هذا ٠٠
ولما كانت أقوال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ استهزاءً ٠٠!!
فقد قال له ربه :

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون }
يَسْتَهْزِؤُون
[الآية ٤١]

يَسْتَهْزِؤُونيعنى : لا تهتم باستهزائهم، فلك أسوة فيمن سبقك من إخوانك من الأنبياء٠٠ حيث استهزأ بهم أقوامهم فحاق أى : نزل بهؤلاء الأقوام الذين سخروا منهم من العذاب ما كانوا به يستهزئون وينكرون.

* * *

يَسْتَهْزِؤُونثم أمره أن يقول لهؤلاء المستهزئين ٠٠ مهدداً :

{ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ }
[الآية ٤٢]

أى : قل لهم من يكلؤكم يحفظكم بالليل والنهار من عذاب الرحمن إن نزل بكم ٠٠؟
لا أحد يفهم، ولا أحد يجيب.
بل هم لغفلتهم عن ذكر ربهم وهو القرآن، الذى يبين لهم ذلك معرضون معاندون.

* * *

ثم يكون التوبيخ ٠٠
وذلك فى قوله عز وجل :

{ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ }
[الآية ٤٣]

يعنى : هل لهم آلهة غيرنا تمنعهم وتحفظهم مما يسوؤهم ‥ لا ‥ لا.

إنهم لا يستطيعون بأنفسهم، أو بغيرهم نصر أنفسهم من عذابنا ولا هم منا يصحبون أى : يجارون فلا يعذبون.

* * *

وأما ما هم فيه من الحفظ والعناية الآن ‥ فليس كما قد يتوهموا أنه من آلهتهم، أو من عند أنفسهم، أو من غير ذلك.

{ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ }
[الآية ٤٤]

أى : بل الحقيقة أنا متعنا هؤلاء وآباءهم بما أنعمنا به عليهم حتى طال عليهم العمر فاغتروا بذلك، وشغلوا بالنعمة عن المنعم، وقست قلوبهم، وظنوا أنهم خالدون.

أفلا يتعظون، حين يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها وننزعها منهم، بعد بسط سلطانهم عليها، ونجعلها لغيرهم ‥؟

أفهم يظنون أنهم الغالبون لله ورسله.

كلا ‥ فالله هو الغالب.

* * *

ثم يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم قائلاً :

{ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ }
[الآية ٤٥]

يعنى : قل لهم إنما أنذركم بالوحى الذى هو القرآن، وهو من الله، وليس من عندى ولا من نفسى.

ولكن ‥ اعلم أنه لا فائدة من قولك هذا لهم ‥ حيث إنه لا يسمع الصم الدعاء وهم صم عن سماع الحق، فهم لا يسمعون وإذا سمعوا : لا يستجيبون إذا ما ينذرون ويخوفون بالعذاب.

* * *

هؤلاء ٠٠ حالهم لا يتغير إلا إذا عاينوا العذاب وشاهدوه ٠٠

{ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ }
[الآية ٤٦]

يعنى : هؤلاء لا يعترفون بالحق، ولا يقرون بفساد موقفهم ٠٠ حتى يمسهم العذاب ٠٠ فإذا مسهم منه ولو القليل ليقولن معترفين، نادمين، متحسرين يا ويلنا وهلاكنا ٠٠ إنا حقاً كنا ظالمين.
وذلك : يكون منهم فى يوم القيامة.
فاثبت أيها الداعى للحق ٠٠ على ما أنت عليه، وانتظر ما وعدناك به، فى يوم القيامة.

* * *

يوم القيامة ٠٠؟
نعم ٠٠ يوم القيامة آت لا محالة.

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ }
[الآية ٤٧]

أى : ونضع ونحضر الموازين القسط العدل، لميزان الأعمال، وجزائها ليوم القيامة أى : فى يوم القيامة.
ويكون الميزان بالعدل.
فلا تظلم نفس شيئاً من نقص حسنة، أو زيادة سيئة.
وإن كان العمل يزن مثقال حبة من خردل أى : متناهى فى الصغر والضآلة، والحقارة أتينا بها لتوزن فلا نهملها، أو نهمل جزاءها.
وكفى بنا حاسبين عالمين بكل شىء، محصين له، محيطين به، محضرين له.

* * *

وإلى هنا ٠٠
وبعد أن تحدث ربنا فيما سبق من الآيات ٠٠ عن دلائل التوحيد، والنبوة، والبعث، يبدأ فى تقوية قلب النبى صلى الله عليه وسلم، وتصبيره على ما ينال من أذاهم.
وذلك : بذكر قصص بعض الأنبياء، وما نالهم من أذى أقوامهم.
ويبدأ ذلك : بقصة موسى عليه السلام ٠٠ فيقول :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ }
[الآية ٤٨]

أى : ولقد آتينا موسى وهارون قبلك الفرقان وهى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، والحلال والحرام وضياءً بها وذكراً موعظة للمتقين.

* * *

وهم ٠٠

{ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ }
[الآية ٤٩]

المتقون ٠٠ هم :

أولاً : الذين يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأمره، وينتهون عما نهى عنه بالغيب وهم مؤمنون بالله إيمانهم بما غاب عنهم.
ثانياً : والذين هم من الساعة أى يوم القيامة، وما يحدث فيه مشفقون خائفون، ولذلك يمنعهم هذا الخوف من معصية الله.

* * *

ثم يقول ربنا :

{ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ }
[الآية ٥٠]

أى : وهذا القرآن، الذى أنزلته على محمد كما أنزلت التوراة على موسى ذكر وشرف لكم، ورفعة لقدركم، وموعظة لسلوككم، ومنهج لحياتكم.
مبارك منافعه كثيرة، وعلومه وفيرة.
أنزلناه على محمد وحيا، متلوا، متعبداً به، مطلوباً اتباعه والعمل به إلى يوم القيامة.

يقول ربنا تبارك وتعالى :
أفأنتم أيها المعاندون الكافرون، بعد هذه الخصائص التى ذكرت، والمافع فى القرآن التى ظهرت.
له منكرون أنه وحى من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم؟
وهذا السؤال لهم ٠٠ فيه توبيخ، وفيه – كذلك – تهديد لهم بما ينتظرهم جزاء هذا الإنكار من العذاب.

* * *

ثم تكون : القصة الثانية ٠٠ وهى قصة إبراهيم عليه السلام.
يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ }
[الآيتان ٥١ ، ٥٢]

يعنى : ولقد آتينا فضلاً منا إبراهيم عليه السلام رشده أى : هداه لوجوه الصلاح فى الدين والدنيا من قبل أى : من قبل موسى عليه السلام وكنا به أى بإبراهيم عالمين أنه أهل لما آتيناه.
اذكر إذّ قال لأبيه وقومه منكراً عليهم ما هذه التماثيل الأصنام التى أنتم لها عاكفون مقيمون ومستمرون على عبادتها ٠٠؟

* * *

ولأنه ليس عندهم دليل صواب فيما يفعلون :

{ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ }
[الآية ٥٣]

أى : قالوا له ٠٠ نحن نقلد آباءنا، فيما نفعل.

* * *

وهنا : سفه أحلامهم، وعاب آباءهم، وبين أن كثرة المتمسكين بالباطل لا تجعله حقاً.

{ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٥٤]

يعنى : أنتم وآباؤكم الذين تقلدونهم فى ضلال عن الحق مبين واضح.

* * *

ولأنهم يستبعدون ضلال آبائهم، ويستبعدون عليه أن يكون جاداً فيما يقول٠٠

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ }
[الآية ٥٥]

يعنى : أجئتنا فى قولك هذا بالصدق أم أنت من اللاعبين فيه ٠٠؟

* * *

وعلى الفور : بين لهم إبراهيم عليه السلام أن الأمر جد لا لعب فيه، وأن الحق واضح لا خفاء له.
وكان هذا البيان منه لفساد وبطلان ما هم فيه ٠٠ بالقول والفعل.
أولاً : بالقول ٠٠
حيث :

{ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ }
[الآيتان ٥٦ ، ٥٧]

أى : قال لهم ٠٠ هذه الأصنام ليست آلهتكم التى تستحق العبادة، وليست أربابكم التى تضر وتنفع.
بل ربكم الجدير بالعبادة، والذى يضر وينفع، والذى خلقكم ٠٠ هو رب السموات والأرض ومن فيهما، وهو الذى فطرهن أى : خلقهن وحده.
وأنا على ذلكم الذى قلته من الشاهدين أنه الحق دون ما سواه.
ثم قال وتالله لأكيدن وأكسرن أصنامكم هذه بعد أن تولوا تنصرفوا مدبرين بعيداً عنها.

* * *

ولم يقنعوا بكلامه، ولم يصدقوا تهديده.

فكان البيان – ثانياً – لفساد ما هم فيه بالفعل.

{ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ }
[الآية ٥٨]

يعنى : فانصرفوا، فجاء إلى أصنامهم ومعه الفأس فجعلهم جذاذاً أى : فكسرها كلها قطعاً صغيرة إلا صنماً كبيراً تركه لهم لعلهم إليه يرجعون بالسؤال عما حدث، إذا ما رأوه واقفاً وحده بينهم ٠٠ فلا يجيب، فيعرفون جهلهم، وخطأهم، فيتوبون، ويؤمنون.

* * *

ولكن ٠٠
لما عادوا ٠٠ ورأوا المنظر ٠٠!!
لم يفكروا فى عجزها عن الدفاع عن نفسها، وأنها لذلك لا تصح أن تكون آلهة يعبدونها.
بل سألوا عن فاعل ذلك.

{ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٥٩]

أى: قالوا لبعضهم البعض من فعل هذا الذى نراه من التكسير والإهانة بآلهتنا ٠٠؟
ثم قالوا إنه لمن الظالمين بتكسيرها، وتحقيرها.

* * *

ولم يسكتوا عما حدث لآلهتهم التى لم تدافع عن نفسها؛ لعجزها.
وراحوا يبحثون ويسألون عن الفاعل ٠٠!!
حتى وجدوا من :

{ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ }
[الآية ٦٠]

يعنى : وجدوا من قالوا لهم ٠٠ إنا سمعنا فتى يذكرهم بالسوء إذ كان يقول لبعض الناس وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين.
وسألوهم ٠٠ من هذا الفتى ٠٠؟
قالوا : لا نعرفه، ولكن يقال له إبراهيم.

* * *

وعلى الفور : صدر قرار، ضبط وإحضار ٠٠

{ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ }
[الآية ٦١]

أى : قال رؤساؤهم للجنود فأتوا به أحضروه على أعين الناس على مرأى ومسمع من الجميع لعلهم يشهدون عليه بما قال، فنعاقبه على ما قال، ويشهد الجميع عقابه، فيكون ردعاً لغيره.

* * *

وجاءوا بهذا الفتى ٠٠ إبراهيم.
وبدأ التحقيق.

{ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ }
[الآية ٦٢]

أخبرنا ٠٠ من الذى فعل هذا بآلهتنا ٠٠؟ أنت، أو غيرك ٠٠؟

* * *

وأجاب عليه السلام ٠٠ ساخراً :

{ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ }
[الآية ٦٣]

أى : قال لهم مستهزئًا بعقولهم التى لا تفكر ٠٠ بل فعله كبيرهم هذا الذى لم يُكسر إن كانوا ينطقون.
وعلى هذا فقد أثبت لنفسه هذا الفعل؛ لأنهم لا ينطقون.
ثم قال : فاسألوهم، إن أمكن ذلك.

* * *

وكان الرد بليغاً، والحجة واضحة ٠٠

{ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٦٤]

يعنى : فعادوا إلى عقولهم يفكرون فيما قال، ويفكرون ٠٠ وعرفوا أن الحق ما قال.
هم لا ينطقون، فكيف يفعلون ؟
وعلى هذا ٠٠ كيف يعبدون ٠٠؟
فقالوا لأنفسهم إنكم أنتم الظالمون فى عبادتكم لها، وليس الظالمون من كسرها.
وهكذا ٠٠ أجرى الله الحق على ألسنتهم.

* * *

ولكن ٠٠
أدركتهم الشقاوة ٠٠ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

{ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ }
[الآية ٦٥]

أى : عادوا إلى الكفر، ورجعوا إلى الجدال.
وقالوا لإبراهيم عليه السلام ٠٠ ما هذا الكلام الذى تقوله ٠٠؟
لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فكيف تقول ذلك ٠٠؟

* * *

ولأن ذلك اعتراف منهم بعجز آلهتهم ٠٠!!

{ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ }
[الآيتان ٦٦ ، ٦٧]

يعنى : قال إبراهيم عليه السلام لهم أ جهلتم إلى هذا الحد فتعبدون من دون الله أى : غيره ما لا ينفعكم شيئاً إن عبدتموه ولا يضركم إن لم تعبدوه.

ثم قال ضجراً أف لكم ولآلهتكم التى تعبدونها.

أفلا تعقلون أن هذه الأصنام، التى لا تضر ولا تنفع، لا تستحق العبادة، ولا تصلح لها، بل الذى يستحقها ٠٠ هو الله سبحانه وتعالى؛ فآمنوا به واعبدوه.

* * *

إذن ٠٠ هو الذى حطم آلهتهم.

ولم يواصلوا الجدال.

وعجزوا عن الجواب.

فعدلوا إلى منطق البغى والظلم والإرهاب ٠٠ شأن الطغاة، الظالمين، فى كل زمان ومكان ٠٠

{ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ }
[الآية ٦٨]

أى : قالوا لبعضهم البعض حرقوه عقاباً على ما فعل، وعلى ما يقول، وانصروا آلهتكم بالانتقام لها منه إن كنتم فاعلين أى : راغبين فى نصرتها.

وكان هذا ٠٠ هو قرارهم.

* * *

وأوقدوا النار ٠٠

وقيدوا إبراهيم بالقيود ٠٠

وألقوه فى النار ٠٠

{ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ }

[الآية ٦٩]

يا ألله .. !! أبطل الله طبيعة النار الحارقة، وجعلها برداً وسلاماً على عبده إبراهيم الذى صدع بالحق، ووقف وحده ضد باطل قومه، مرضاة لله، فنجاه الله.

* * *

يقول رب العزة :

{ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ }
[الآية ٧٠]

يعنى : أرادوا، ودبروا، وكادوا له ..!!
وأراد الله أمراً غير ما أرادوا.
وكان ما أراد الله هو النافذ فجعلناهم الأخسرين فيما أرداوا، ونجاه الله من الحريق.

* * *

وأخرجه الله بسلام من بينهم، وأتم عليه النعمة.
حيث يقول سبحانه :

{ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ }
[الآية ٧١]

أى : ونجيناه منهم، ومن نارهم، وأخرجناه ولوطاً ابن أخيه من ديارهم إلى الأرض وهى أرض الشام، التى باركنا فيها بكثرة الأنبياء، وانتشار هديهم بدين الله منها للعالمين.

* * *

أكثر من هذا ..

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ }
[الآيتان ٧٢ ، ٧٣]

يعنى : ووهبنا له أى : لإبراهيم، عطية منا إسحق نبياً ما سأل الله الولد قائلاً رب هب لى من الصالحين [الصافات : ١٠٠].

و وهبنا له كذلك، ولد الولد، وهو يعقوب نبياً أيضاً نافلة زيادة على ما سأل.

وكلاً من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلنا صالحين.

وجعلناهم بعد ذلك أئمة فى الدين يهدون يدعون الناس إلى دين الله بأمرنا.

وأوحينا إليهم فعل الخيرات وهى جميع الأعمال الصالحة.

و أمرناهم، بـــ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم، ومن تبعهم.

و هكذا كانوا لنا لا لغيرنا عابدين.

وبذلك ·· انتهت قصة إبراهيم عليه السلام.

* * *

ثم تكون القصة الثالثة ·· وهى : قصة لوط عليه السلام.

يقول تعالى :

{ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآيتان ٧٤ ، ٧٥]

يعنى : ولوطاً أيضاً آتيناه حكماً وعلماً كما آتينا إبراهيم رشده من قبل والمراد : الحكمة فى القول، والفعل، والعلم ·· هو الفقه.

أى : آتيناه حكمة فى قوله وفعله، وفقهاً فى عقله وقلبه.

وكذلك نجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث من اللواط، وغيره.

إنهم أى : أهل هذه القرية كانوا قوم سوء فاسقين خارجين عن طاعة الله.

ثم يقول : وأنعمنا عليه أيضاً ··

بأن أدخلناه فى رحمتنا جعلناه من أهل رحمتنا، وأدخلناه الجنة، حيث إنه من الصالحين.

* * *

ثم تكون القصة الرابعة ·· وهى : قصة نوح عليه السلام.

يقول تعالى ذكره :

{ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ }
[الآيتان ٧٦ ، ٧٧]

يعنى : و اذكر نوحاً عليه السلام إذ نادى دعا ربه من قبل أى : من قبل هؤلاء الأنبياء، قائلاً أنى مغلوب فانتصر لى [القمر : ١٠].
فاستجبنا له حيث: { ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاءً لمن كان كفر } [القمر : ١١-١٤].
فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهو الطوفان.
ونصرناه خلصناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتا وقدرتنا.
حيث إنهم كانوا قوم سوء عاندوا ولم يؤمنوا فأغرقناهم أجمعين.

* * *

ثم تكون القصة الخامسة ٠٠ وهى قصة داود وسليمان عليهما السلام.
يقول سبحانه :

{ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ }
[الآيتان ٧٨ ، ٧٩]

يعنى : و اذكر داود وسليمان عليهما السلام إذّ يحكمان فى الحرث فى الزرع، حين نفشت فيه دخلت فيه غنم القوم فأفسدته.
وكنا لحكمهم وحكومتهم فى هذا الموضوع شاهدين عالمين، كما نحن فى غيره.
وكان الحكم ٠٠
ويبدو : أنه كان مخالفاً للصواب ٠٠ إذ قال تعالى ففهمناها أى : القضية وحكمها الصائب سليمان، ورجع داود إلى حكم سليمان.
وكلاً من داود وسليمان آيتنا حكماً نبوة وعلماً معرفة.
ثم يذكر الله نعمه عليهما.
فيقول عن إنعامه على داود عليه السلام :
وسخرنا وذللنا مع داود الجبال يسبحن بتسبيحه، والطير كذلك يسبحن بتسبيحه.
وكنا فاعلين مع الأنبياء هذه الأمور العجيبة، تدليلاً لكم، وتثبتاً لهم.

***

{ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ }
[الآية ٨٠]

وعلمناه كذلك صنعة لبوس لكم وهى الدروع لتحصنكم وتحميكم من بأسكم فى الحروب.
فهل أنتم شاكرون لله، بالإيمان والعبادة ٠٠؟

* * *

ثم يقول عن إنعامه على سليمان عليه السلام :

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ }
[الآيتان ٨١ ، ٨٢]

يعنى : و سخرنا كذلك لسليمان الريح تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب [ص : ٣٦] تارة ، وتارة أخرى عاصفة شديدة الهبوب تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها بكثرة الأنهار، والثمار، وهى بلاد الشام.
وكنا بكل شيء مريدين عالمين به.
هذا ٠٠
ومن الشياطين كذلك سخرنا من يغوصون له فى البحار؛ لاستخراج كنوزها، ويعملون كذلك عملاً دون ذلك أى : غير الغوص فى البحار؛ حيث كانوا يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات [سبأ : ١٣].
وكنا لهم أى : لهذه الشياطين حافظين من أن يفسدوا ما عملوه، أو يهملوا فى أدائه، أو يزيغوا عنه ويتركوه.

* * *

ثم تكون القصة السادسة ٠٠ وهى : قصة أيوب عليه السلام.
يقول تعالى :

{ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ }
[الآيتان ٨٣ ، ٨٤]

يعنى : و اذكر أيوب عليه السلام إذ نادى ربه لما ابتلى : بفقد ماله وولده، وتمزيق جسده، وضيق عيشه، وهجر جميع الناس له إلا زوجته، مدة من الزمن، فدعا ربه قائلاً أنى مسنى الضر كما ترى وأنت أرحم الراحمين جميعاً.

وهكذا : كما يقول الإمام النسفى ٠٠ ألطف فى السؤال؛ حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب.

يقول الرحمن الرحيم فاستجبنا له دعاءه.

فكشفنا بقدرتنا ما نزل به من ضر إنعاماً عليه وآتيناه أهله حيث أحيا الله له أولاده بأعيانهم و رزقه، كذلك مثلهم معهم بالإنجاب.

وكان ذلك : رحمة من عندنا لأيوب.

وذكرى لغيره من العابدين ليصبروا مثله، فينالوا من الثواب ما نال.

* * *

ثم تكون القصة السابعة ٠٠ وهى : قصة إسماعيل، وإدريس وذي الكفل، عليهم السلام.

يقول تعالى ذكره :

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ }
[الآيتان ٨٥ ، ٨٦]

يعنى : و اذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وكل واحد من هؤلاء كان من الصابرين على طاعة الله، الصابرين عن معصيته، الصابرين كذلك على الشدائد والمحن، الصابرين على احتمال الأذى فى نصرة دين الله.

و هؤلاء :

قد أدخلناهم فى رحمتنا بالإنعام عليهم بالنبوة، والقيام بأعمال البر والصلاح.

إنهم من الصالحين المصلحين، الذين لا يعكر صلاحهم كدر الفساد.

* * *

ثم تكون القصة الثامنة ٠٠ وهى : قصة يونس عليه السلام.

يقول سبحانه :

{ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيتان ٨٧ ، ٨٨]

يعنى : و اذكر ذا النون أى : صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام إذّ ذهب بعيداً عن قومه، لما دعاهم إلى الإيمان فلم يستجيبوا، وتركهم مغاضباً لهم فى عنادهم، ناقماً عليهم كفرهم.

ولكن : لم يكن قد أذن فى ذلك؛ حيث كان عليه أن يصبر أكثر وأكثر حتى يؤذن له بالهجرة منهم، والبعد عنهم.

فظن فى بعده هذا الذى اختاره أن لن نقدر نضيق عليه فى اختياره للبقاء بينهم، أو البعد عنهم.

فاختبرناه بالغرق، وبلع الحوت له، وبقائه تحت رعايتنا فترة فى ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

وعرف خطأه، وندم عليه، وتاب لربه.

فنادى ربه، وهو فى هذه الظلمات قائلاً :

أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فى ذهابى من بين قومى، وتركى لهم دون إذن منك.

فاستجبنا له دعاءه ونجيناه من الغم بهذا الدعاء ..

و كما نجيناه كذلك ننجى المؤمنين من عبادنا، إذا دعونا، واستغاثوا بنا.

* * *

ثم تكون القصة التاسعة .. وهى : قصة زكريا عليه السلام.

يقول عز وجل :

{ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ }
[الآيتان ٨٩ ، ٩٠]

يعنى : و اذكر زكريا عليه السلام إذ نادى داعياً ربه قائلاً رب لا تذرنى فرداً أى : هب ولداً، واجعله وارثاً لى فى مقام النبوة وأنت خير الوارثين.

فاستجبنا له دعاءه ..

ووهبنا له ولداً، هو يحيى عليه السلام.

وأصلحنا له قبل ذلك زوجه أى : زوجته .. وجعلناها تأتي بهذا الولد بعد عقم، وكبر سن.

وقد أجبنا من ذكرنا من الأنبياء دعوته، وحققنا له مطلبه، ومنهم زكريا على ما عرفت.

حيث إنهم جميعاً كانوا:

أولاً : يسارعون فى عمل الخيرات بجميع أنواعها.
ثانياً : ويدعوننا أى : يعبدوننا رغباً فى رحمتنا ورهباً من عقابنا.
ثالثاً : وكانوا لنا خاشعين متواضعين، مخبتين، خائفين.

* * *

ثم تكون القصة العاشرة ٠٠ وهى : قصة مريم عليه السلام.
يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ }
[الآية ٩١]

يعنى : و اذكر مريم التى أحصنت حفظت فرجها من الحلال ومن الحرام.
فنفخنا فيها أجرينا فيها من روحنا بعض الأرواح المخلوقة لنا، وهذا البعض : هو روح عيسى عليه السلام.
وجعلناها وابنها عيسى آية دالة على وحدانيتنا وقدرتنا، للعالمين من الجن والإنس والملائكة، فى كل زمان وفى كل مكان.

* * *

وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الكوكبة من الأنبياء ٠٠
يخاطب الناس جميعاً ٠٠ فيقول :

{ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ }
[الآيات ٩٢ – ٩٤]

يعنى : إن هذه الأمة المتمثلة فى هؤلاء الأنبياء، الذين ذكروا هي أمتكم التى إليها تنتسبون.
وهى أمة واحدة وملة واحدة، هى أمة الإسلام، وملة الإسلام ٠٠ فلا تفرطوا فى الانضواء تحت لوائها، والاعتزاز بالانتساب إليها، والتشرف بها.
وأنا ربكم لا إله لكم، ولا رب لكم ٠٠ سواى فاعبدون وأطيعون وحدى.
هذا ٠٠ هو البيان الواضح، والأساس القوى.

و لكن البشر تقطعوا أمرهم دينهم الواحد، وهو الإسلام، الذى عليه جميع الأنبياء، وجعلوه قطعاً وأجزاء، وكل أخذ بجزء منه.

على كل حال ..

كل هؤلاء الذين تفرقوا، وقطعوا أمر الدين، وكذلك الذين لم يتفرقوا، واجتمعوا مع الأنبياء على طريق الهدى إلينا راجعون فنجازى كل فريق بما يستحق.

فمن يعمل منهم شيئاً من الصالحات على اختلاف أنواعها، وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ولا تضييع لثوابه.

وإنا له كاتبون وحافظون.

* * *

أيها الأحبة ..

حث على الانضمام تحت لواء أمة الأنبياء الواحدة، وهى الأمة المسلمة ..

ودعوة للإيمان، وعمل الصالحات.

يقول المولى مبيناً ..

{ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ }

[الآية ٩٥]

يعنى : قدرنا وأوجبنا على كل قرية أى بلد أهلكنا أهـــلها بالموت، أنهم إليها أى الدنيا لا يرجعون.

* * *

{ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ }

[الآيتان ٩٦ ، ٩٧]

أى : أن الناس لا يرجعون إلى الدنيا بعد موتهم حتى إذا فتحت أسوار يأجوج ومأجوج وخرجوا هم على الناس، وصاروا من كل حدب مرتفع من الأرض ينسلون يسرعون.

و بهذا يكون اقترب الوعد الحق وهو مجيء يوم القيامة.

وبالفعل : تقوم القيامة.

وساعتها يرجعون أى : الخلق كلهم.

فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا مفتوحة عيونهم لا تغلق، مأخوذة قلوبهم من هول ما يرون.

يقولون يا ويلنا يا هلاكنا يا حسرتنا قد كنا فى الدنيا، لاهين فى غفلة من هذا الذى نراه بل كنا ظالمين لأنفسنا، بعدم الإيمان، واتباع الرسل، وعمل الصالحات.

***

ثم يهدد ربنا كفار الدنيا كلها ..
قائلاً :

{ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ }
[الآيات ٩٨ – ١٠٠]

يعنى : إنكم أيها الكفار و معكم ما تعبدون من دون الله من مال، أو صنم، أو طاغية، أو نساء، أو هوى، أو غير ذلك .. تكونون يوم القيامة حصب جهنم أى : وقودها.
واعلموا أنكم أنتم ومعكم ما تعبدون من دون الله لها واردون داخلون، معذبون.
لا حظوا : لو كان هؤلاء آلهة كما زعمتم ما وردوها.
و لكن كل منكم ومنهم فيها خالدون مخلدون، لا يخرجون منها أبداً.
فهل هؤلاء آلهة ..؟
لقد خاب فى الدنيا الكافرون، ودخلوا فى الآخرة جهنم.
وصار لهم فيها زفير أنين، وبكاء، وعويل.
وهم فيها كذلك لا يسمعون شيئاً، من شدة غليانها.

* * *

أيها الأحباب ..
هذا حال الأشقياء، أبعدنا الله وإياكم عنهم.
فهل تحبون معرفة حال السعداء، جعلنا الله وإياكم منهم.
اقرءوا قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ }
[الآيات ١٠١ – ١٠٣]

يعنى : إن هؤلاء الأنبياء ومن تبعهم من أممهم، هم الذين سبقت لهم منا الحسنى وهى التوفيق للطاعة، والبشارة بالثواب عليها.

يخبر عنهم ربهم بالآتى :

أولاً : أولئك عنها عن جهنم مبعدون أى : عن عذابها.

ثانياً : كما أنهم لا يسمعون حسيسها صوتها، بسبب بعدهم عنها، وحمايتهم من الاقتراب منها.

ثالثاً : وهم فوق ذلك فيما اشتهت أنفسهم من النعيم خالدون.

رابعاً : لا يحزنهم الفزع الأكبر عند دخول النار؛ لأنهم ينجون منها.

خامساً : وتتلقاهم تستقبلهم الملائكة عند خروجهم من القبور، وعند دخولهم الجنة، تقول لهم هذا يومكم السعيد الذى كنتم توعدون به فى الدنيا.

* * *

نعم ·· لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة ··

{ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }
[الآية ١٠٤]

يعنى : يكون ذلك ·· فى يوم القيامة يوم نطوى السماء نجمعها كطى السجل وهو صحائف الأعمال للكتب أى للمكتوب فيها.

وهكذا ··

كما بدأنا أول خلق من العدم نعيده بعد الموت.

وعداً علينا فعله، بسبب إخبارنا عنه، وتعلق علمنا بوقوعه.

إنا كنا فاعلين لهذا الوعد.

فاستعدوا له : بالإيمان، وصالح الأعمال.

* * *

كان ما سبق أيها الأحبة فى الله ما وعد الله المؤمن فى الآخرة.

وأما ما وعده به فى الدنيا ·· فيقول عنه :

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ }
[الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦]

يعنى : ولقد كتبنا فى الزبور وهو كتاب داود عليه السلام من بعد الذكر وهى التوراة ٠٠ أن الأرض يورثها عبادى الصالحون الذين آمنوا وعلموا الصالحات.

إن فى هذا القرآن لبلاغاً بذلك لقوم عابدين موحدين.

* * *

ثم يقول ربنا لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }
[الآية ١٠٧]

وتتجلى هذه الرحمة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة معاً.

وهى كذلك للكافرين، ولكن فى الدنيا فقط؛ أخر الله بسببه عنهم، عذاب الإهلاك التام، والمسخ، والخسف.

* * *

وعلى هذا ٠٠

{ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }
[الآيات ١٠٨ – ١١١]

أى : قل للجميع إنما يوحى إلى من ربى أنما إلهكم إله واحد لا شريك له.

فهل أنتم مسلمون منقادون لهذا الوحى، وما فيه ٠٠ من توحيد الله، وعبادته، والعمل بتشريعه ٠٠؟

فإن تولوا عنك، وأعرضوا عن الإسلام ٠٠ فقل لهم آذنتكم أعلمتكم على سواء جميعاً، لم أترك منكم أحداً، ولم أخصص منكم أحداً.

وإن وما أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون به من يوم القيامة، وعذابكم فيه.

حيث إنه سبحانه، وحده، الذى يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون.

وإن وما أدرى كذلك لعله أى : إخفاء موعد القيامة، أو تأخير العذاب عنكم فتنة اختبار لكم وكذلك متاع تتمتعون فيه إلى حين موتكم.

* * *

هذا ٠٠

وبعد أن أدى محمد صلى الله عليه وسلم الأمانة، وبلغ الرسالة، وآذنهم على سواء، وحذرهم بغتة البلاء : توجه إلى ربه الرحمن.

{ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }
[الآية ١١٢]

أى : قال عليه الصلاة والسلام، يا رب احكم بيننا وبين الكافرين بالحق العدل الذى أنت أهله.
ثم ٠٠ قال ليختم كلامه، وتختم السورة :
وربنا الرحمن العطوف على خلقه المستعان وحده، فلا معونة إلا منه على ما تصفون وتقولون على الكذب.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، نحمده حمد الشاكرين ، ونصلى ونسلم على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، سيد الأولين والآخرين.

أما بعد : فهذه سورة الحج.

وهى : سورة آياتها مختلطة بين ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة.

وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }
[الآيتان ١ ، ٢]

يا أيها الناس جميعاً اتقوا عذاب ربكم وذلك بطاعته ٠٠ فى فعل ما أمر به، والبعد عما نهى عنه.

حيث إن زلزلة الأرض وحركتها الشديدة، عند قيام الساعة وهى يوم القيامة شيء عظيم مهول، فظيع.

وفى حديث الصور : يقول النبى صلى الله عليه وسلم : ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين، وإن عند نفخة الفزع : يسير الله الجبال، وترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، أبصارها خاشعة، وتكون الأرض كالسفينة ٠٠ تضربها الأمواج، أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح.

يوم ترونها واقعة فيه :

تذهل بسببها، وتغفل كل مرضعة وهى ترضع بالفعل عما أرضعت من غير فطام.

وتضع بسببها، وتجهض كل ذات حمل فى بطنها حملها من غير تمام.

وترى الناس من هولها سكارى من شدة الخوف وما هم بسكارى حقيقة ولكن عذاب الله الذى يرونه، والذى أذهب عقولهم شديد.

* * *

وبعد أن أمر ربنا عز وجل بالتقوى، وخوف من أهوال الساعة : يبين السبب الرئيسى الذى يصرف الناس عن تقوى الله.

فيقول سبحانه :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ }

[الآية ٣]

أى : و مع هذا الأمر بالتقوى، فإنه من الناس فريق كفر بالله تعالى، وهم : كل ..
من يجادل فى شرع الله بغير علم فينكر وحدانية الله، أو ينكر البعث، أو ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أو يقول : إن القرآن أساطير الأولين.
ويتبع كل شيطان من الإنس، أو الجن مريد عات، جبار، متمرد، وذلك فى ضلالاته، وبدعه، وأهوائه.

* * *

هذا الشيطان الذى يتبعه هذا الخاسر :

{ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ }
[الآية ٤]

يعنى : كتب على الشيطان أنه من تولاه واتبعه فأنه يضله عن الحق ويهديه ويدعوه إلى ما يلقيه بسببه فى عذاب السعير وهو عذاب النار الحار، المؤلم غاية الألم.

* * *

أيها الأحبة ..
لما كان جدال الكفار المعاندين فى وحدانية الله وقدرته، وفى البعث بغير علم : ذكر الله تعالى دليلين على ذلك .. أحدهما فى نفس الإنسان، والثانى فى الأرض التى يشاهدها.
حيث قال :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }
[الآية ٥]

يا أيها الناس الذين تجادلون فى الله بغير علم إن كنتم فى ريب شك من وقوع البعث : فاسمعوا هذين الدليلين :

الأول : فى أنفسكم وهو موضوع خَلْقِنا لكم فإنا خلقناكم فى سبعة مراحل:

المرحلة الأولى : من تراب وهو أبوكم آدم عليه السلام، وأنتم باعتبار غذائكم.

المرحلة الثانية : ثم من نطفة وهى المنى، وأنا الذى قلبت هذا التراب إلى هذا الماء الرقيق.

المرحلة الثالثة : ثم من علقة وهى الدم المتجمد الذى يعلق بجدار الرحم.

المرحلة الرابعة : ثم من مضغة وهى قطعة لحم صغيرة مخلقة تامة الخلق، ينفخ الروح فيها وغير مخلقة بعدم نفخ الروح فيها.

لنبين لكم بذلك : كمال قدرتنا على بعثكم وإعادتكم بعد موتكم.

المرحلة الخامسة : ونقر نثبت فى الأرحام ما نشاء مما نفخ فيه الروح إلى أجل مسمى وهو وقت الولادة، ونسقط من الأرحام ما نشاء، وهى غير المخلقة، التى لم تنفخ فيها الروح ثم نخرجكم أى ما نفخ فيه الروح، من بطون أمهاتكم طفلاً أى : أطفالاً.

المرحلة السادسة : ثم نحييكم لتبلغوا من السن والعمر أشدكم أى : قوتكم.

المرحلة السابعة : ومنكم من يتوفى قبل بلوغ الأشد، أو بعده بقليل، ومنكم من يعيش حتى يرد ويصل إلى أرذل العمر وهو الهرم، والضعف الشديد، فى القوة، والعقل، والفهم لكى لا يعلم وينسى من بعد علم شيئاً أى : كل ما كان عنده من علم ومعرفة ينساه.

وهذا هو الدليل الأول ٠٠ على قدرة الله على البعث، أليس من قدر على البدء قدر على الإعادة ٠٠؟ بلى..

والدليل الثانى : فى الكون ٠٠ وهو : موضوع الأرض.

وترى أيها المجادل، المنكر لقدرة الله الأرض بعينيك هامدة يابسة لا تتحرك فإذا أنزلنا عليها الماء من السحاب بالمطر، أو من الأنهار، والعيون اهتزت تحركت وربت زادت وارتفعت قشرتها الأرضية وأنبتت من جوفها كل زوج صنف من النبات بهيج حسن جميل.

أليس ذلك بدليل على وحدانية الله، وقدرته على البعث والإعادة ٠٠؟

بلى ٠٠ وألف بلى ٠٠ أى : هو الواحد، وهو القادر ٠٠

* * *

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

[الآية ٦]

يعنى : ذلك الذى ذكرناه، من : مراحل خلق الإنسان، وإحياء الأرض بعد موتها ٠٠ حاصل، بـــ سبب أن الله هو الحق الثابت، الواحد، القادر، وأنه وحده يحيي الموتى ويبعثهم من قبورهم؛ ليحاسبهم وأنه سبحانه على كل شيء قدير.

* * *

وهو سبحانه : لا يخلق عبثاً، ولا يترك الخلق دون حساب.

{ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ }
[الآية ٧]

يعنى : لولا أن الساعة وهى يوم القيامة آتية دون شك، ولولا أن الله يبعث من فى القبور ليحاسبهم ·· ما خلق الله ما خلق.

ولذلك : فالإيمان بيوم القيامة والبعث ·· من أصول الدين، والاستعداد لذلك بوسائل النجاة، وهى الإيمان والعمل الصالح ·· من دلائل التوفيق.

وهذا أمر فى غاية الوضوح.

* * *

ومع هذا الوضوح : فإن الله عز وجل يخبرنا قائلاً :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ }
[الآيات ٨ – ١٠]

أى : و مع الأمر بالتقوى، ووضوح الأدلة على قدرة الله، وعلى البعث فإنه يوجد من الناس فريق آخر ·· كفر بالله تعالى.

وهم كل :

من يجادل فى شرع الله، وقدرته على البعث بغير علم صحيح يستند إليه ولا هدى معه من وحى يرشده ويهديه ولا دليل معه من كتاب سماوى منير أى : له نور الحق.

ثانى عطفه أى متكبراً عن قبول الحق واتباعه، ويجادل ليضل الناس عن معرفة سبيل الله واتباع هديه.

هذا الخاسر المجادل : له فى الدنيا خزى إهانة ومذلة وحقارة ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق بالنار.

ونقول له :

ذلك الخزى فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة بما قدمت يداك أى : بسبب كفرك وكبرك وتكذيبك، وإضلالك الناس عن دين الله.

وهذا هو العدل معه.

وأن الله عز وجل ليس بظلام للعبيد أى : لا يظلم أحداً من خلقه.

* * *

وهذا فريق ثالث من الناس ٠٠
يقول المولى جلت حكمته :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ }
[الآيات ١١ – ١٣]

يعنى : و مع الأمر بالتقوى، ووضوح الأدلة على قدرة الله، والبعث وتخويف المعاندين ٠٠ فإنه يوجد من الناس فريق ثالث.
وهم كل :

١ – من يعبد الله على حرف من الدين، غير مستقر فيه، ولا مطمئن له، فهو مذبذب حائر فإن أصابه خير من صحة فى جسمه، وسعة فى عيشه : سكن، واطمأن لهذا الدين، وعبد الله وإن أصابته فتنة ابتلاء واختبار، فى صحته، أو فى ماله، أو فى ولده أو غير ذلك انقلب على وجهه سخطاً، وعدم رضى، وتوقف عن عبادة الله.
وبذلك يكون قد خسر الدنيا لعداوة أهل الإيمان وبغضهم له، وعدم ثقة أهل الكفر والمعاصى فيه، وخسر الآخرة كذلك؛ لدخوله النار.
٢ – ومن يدعو يعبد من دون الله غير الله، من الأصنام، والدنيا، والهوى، وغير ذلك ما لا يضره لو لم يعبده وما لا ينفعه لو عبده.

ذلك الذى يفعله هو الضلال البعيد عن الحق والصواب؛ حيث إنه يدعو يعبد لمن ضره له أقرب وآكد من نفعه الذى يتخيله.
حقاً ٠٠ لبئس المولى والناصر، هذا الإله المزعوم ولبئس العشير الصاحب هو، والعابد لهذا الإله.

* * *

ولما ذكر الله حال أهل الضلالة الأشقياء : ذكر عقيبهم – أيها الأحبة فى الله – حال الأبرار، أهل الهدى السعداء.
جعلنا الله وإياكم منهم ٠٠ فقال :

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }
[الآية ١٤]

يعنى : إن الله عز وجل، كما يدخل الذين عصوه ، والذين كفروا به، وعاندوا رسله فى النار يدخل الذين آمنوا به، واتبعوا رسله وعملوا الصالحات وهى كل ما يرضى الله تعالى، ويسعد العباد، ويصلح البلاد : يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً لهم، وإسعاداً.

وهو سبحانه قادر على هذا، وهذا، من تعذيب العصاة، وتنعيم المطيعين.

ولا غرابة فى هذا ٠٠

حيث إن الله يفعل ما يريد لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

* * *

هذا ٠٠

ومن جملة ما يريده الله ويفعله : نصره لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، وإعلاء شأن دعوته، ورفع راية رسالته.

لذلك :

{ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ }

[الآية ١٥]

يعنى : من كان يظن يكره محمداً، ويتخيل، ويتمنى ٠٠ من الذين : يجادلون فى الله بغير علم؛ اتباعاً للشيطان، أو ٠٠ من الذين يجادلون فى الله بغير علم؛ غروراً وتكبراً وعناداً، أو ٠٠ من الذين يعبدون الله على حرف.

من كان يظن من هؤلاء أن لن ينصر الله محمداً فى الدنيا بإعلاء كلمته، وإظهار دينه والآخرة بإعلاء درجته، والانتقام ممن كذبه : فليمدد بسبب أى : فليأت بأى شيء، من حبل، أو آلة وليصعد به إلى السماء ثم ليقطع هذا الوحى، ليذهب بذلك غيظه.

وبعد أن يفعل ٠٠ لو استطاع فلينظر فى نفسه، ويتفكر فى حاله ليعرف هل يذهبن كيده أى : حيلته هذه ما يغيظ ه، ويجده فى نفسه ٠٠؟

أبداً ٠٠ أبداً ٠٠

إذن : دعهم فى غيظهم يتحرقون.

* * *

ولذلك : لا يجوز للمسلم أن يشك فى نصر الله، بل عليه أن يصبر ٠٠ مهما كانت الظروف، ومهما تأخر النصر.

{ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ }
[الآية ١٦]

يعنى : وكذلك وعلى مثل هذا الوضوح أنزلناه أى القرآن آيات دلائل بينات واضحات فى أن الله هو الواحد، وهو القادر، وأن الله وحده سبحانه يهدى إلى الإيمان، والطاعة من يريد هدايته.

* * *

ثم تحدث ربنا عن جميع خلقه باعتبار معتقداتهم ٠٠ فقال :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }
[الآية ١٧]

قال العلماء : بينت هذه الآية ٠٠ أن الأديان ستة، واحد للرحمن، وهو الإسلام، وخمسة للشيطان. وتفصيلها كالتالى :

الأول : الإسلام، وأهله هم الذين آمنوا بالله وبرسوله وباليوم الآخر.
الثانى : اليهودية، وأهلها هم الذين هادوا ولا يؤمنون لمحمد صلى الله عليه وسلم.
الثالث : والصابئين وهم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الريح من الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام، وهم كاذبون.
الرابع : النصرانية والنصارى وهم الذين يؤمنون بعيسى عليه السلام، ولا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم.
الخامس : والمجوس وهم قوم يعبدون النار، وقيل الشمس، وقيل غير ذلك، وهم يستعملون النجاسات.
السادس : والذين أشركوا مع الله غيره، من صنم، أو عجل، أو خلافه.
هؤلاء جميعاً ٠٠ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة حيث يدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار.
حيث إن الله عز وجل على كل شيء من أفعال هؤلاء ومعتقداتهم شهيد عالم به، ومحيط بهم، وسيجازيهم جميعاً يوم القيامة

* * *

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }

[الآية ١٨]

يعنى : ألم تر ألم تعلم أيها الإنسان أن الله عز وجل يسجد له خضوعاً، وإذعاناً، وطاعة هذه الأشياء :

الأول : من فى السموات من الملائكة.
الثانى : ومن فى الأرض كل من فى الأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم [الرعد : ١٥].
الثالث : والشمس.
الرابع : والقمر.
الخامس : والنجوم بأجرامها، وكواكبها، ومجراتها.
وهذه الثلاثة : معطوفة على من فى السموات من عطف الجزء على الكل.
السادس : والجبال بأحجامها وتنوعها، وألوانها.
السابع : والشجر بفصائلها، وثمارها.
الثامن : والدواب على كثرتها.
التاسع : وكثير من الناس يسجدون كذلك، باختيارهم الطاعة.
وهذه الأربعة : معطوفة على من فى الأرض من عطف الجزء أيضاً على الكل ..
ولكن : هناك كثير من الناس حق عليه العذاب لتكبرهم، وامتناعهم عن الخضوع لله، وهم الكافرون.
وهذا العذاب لهم : إهانة من الله.
ومن يهن الله ويشقه فما له من مكرم يسعده، وينقذه من الضلال والعذاب غير الله، الذى يفعل ما يريد.
حيث إن الله عز وجل يفعل ما يشاء لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

* * *

هذا ..
ولما بين ربنا عز وجل أن الأديان ستة : فريق منهم مؤمنون، والباقون منهم كافرون ..
وأن الله تقدست أسماؤه : يفصل بينهم يوم القيامة ..
ذكر تعالى بعض أحوالهم فى يوم القيامة هذا ..
فقال :

{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ }

[الآيات ١٩ – ٢٢]

يقول تعالى عن أهل هذه الأديان : هذان فريقان خصمان مختلفان مختصمان اختصموا فى ربهم فريق منهم مؤمن بربه، مصدق لرسله، متبع لشرعه وهم المؤمنون، وفريق منهم، وهم الخمسة الباقون، وهم الذين كفروا، فلم يؤمنوا، ولم يصدقوا، ولم يتبعوا.

هؤلاء : فى يوم القيامة، تختلف أحوالهم.

فالذين كفروا من أحوالهم وجزائهم ٠٠ ما يلى :

أولاً : قطعت لهم ثياب من نار يلبسونها.

ثانياً : يصب من فوق رءوسهم الماء الحميم البالغ نهاية الحرارة، الذى حينما يصب عليهم يصهر يذاب به من شدة حرارته ما فى بطونهم من الأمعاء وغيرها، و كذلك الجلود.

ثالثاً : ولهم مقامع سياط ومطارق من حديد يضربون بها.

وهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أى من النار من غم يلحقهم فيها خرجوا، ولكن قبل أن ينفصلوا عنها : ضربوا بالمقامع، وأعيدوا فيها و قيل لهم ذوقوا عذاب الحريق إيلاماً وإهانة وامتهاناً.

* * *

هذا جزاء الخصم الكافر.

فما جزاء الخصم المؤمن ٠٠؟

يقول تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ }

[الآيتان ٢٣ ، ٢٤]

أخبرت هذه الآيات : أن من أحوالهم وجزائهم ٠٠ ما يلى :

أولاً : طيب المسكن إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار.

ثانياً : طيب الحلية يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً.

ثالثاً : طيب الملبس ولباسهم فيها حرير.

رابعاً : طيب القول وهدوا فيها الطيب من القول حيث لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاما.

خامساً : طيب الطريق والنهاية وهدوا إلى صراط الحميد وهو دينه سبحانه، المؤدى إلى الجنة التى دخلوها.

* * *

أيها الأحبة الفضلاء ٠٠
بعد أن بين العزيز الحكيم جزاء كل فريق من المختصمين فى الآخرة ٠٠
بدأ بذكر بعض أفعال بعض الكافرين ٠٠
فقال :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية ٢٥]

أى : إن الذين كفروا بالله و هم المشركون، الذين يصدون الناس عن الدخول فى سبيل الله دينه ابتداءً و يصدون كذلك : المؤمنين عن دخول المسجد الحرام لعبادة الله فيه، هذا المسجد الذى جعلناه متعبداً للناس كلهم سواءً متساوون لا فرق بين العاكف المقيم فيه وبين الباد البعيد عنه.
هؤلاء الذين كفروا : نذيقهم من عذاب أليم.
و كذلك من يرد فيه أى : فى المسجد الحرام بإلحاد أى : إلحاداً، وعدولاً عن الصواب بأية معصية نذقه من عذاب أليم.

* * *

ولما عظم ربنا المسجد الحرام، وخوَّف من المعصية فيه ٠٠
ذكر لنا عز وجل شيئاً من تاريخه ٠٠
فقال :

{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ }
[الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

يعنى : و اذكر إذّ وقت أن بوأنا بينا لإبراهيم عليه السلام مكان البيت الحرام، وأريناه أصله وأساسه، بعد أن كان غطي، وانطمرت معالمه بسبب الطوفان.
وأمرناه بما يلى :

الأمر الأول : أن لا تشرك بى شيئاً.
الأمر الثانى : وطهر بيتى من الأصنام والأقذار للطائفين حوله والقائمين فيه والركع السجود به.

الأمر الثالث : وأذن أى : ناد فى الناس كلهم بالحج إليه ٠٠ يأتوك أى : يأتون إليه، بسبب ندائك رجالاً أى : مشاة على أرجلهم و ركباناً على كل جمل ضامر أى : مهزول، يعنى بكل وسيلة، ولو كانت غير مريحة يأتين أى هذه الجمال الهزيلة، أو الوسائل غير المريحة من كل فج عميق من كل طريق ومكان وبلد بعيد.

وأذن إبراهيم ونادى ٠٠

وأسمع الله من كتب له الحج ٠٠ فلبى ٠٠

* * *

ولكن لماذا يأتون ٠٠؟

{ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ }

[الآيتان ٢٨ ، ٢٩]

نعم ٠٠ يأتون ليشهدوا ليحضروا منافع لهم:

دنيوية ٠٠ كالتجارة وغيرها، بشرط أن لا يكون المجيء بسببها هى والحج تبع لها، بل يكون الحج أصل وهى تبع له.

و دينية ٠٠ بأن يذكروا اسم الله بالتهليل والتسبيح والتكبير فى أيام معلومات وهى أيام الحج كلها، ابتداءً من لحظة الإحرام إلى الانتهاء من أيام التشريق.

وكذلك يذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وهى : الإبل، والبقر، والضأن، والغنم ٠٠ أى : عند ذبحها، فى يوم العيد، وما بعده.

ولأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون من الأكل منها : فقد أباح الله لهم ذلك ٠٠ حيث يقول فكلوا منها أى : من لحومها.

ثم يقول حثاً على الإنفاق والتصدق وأطعموا منها البائس الفقير.

وبعد الذبح ٠٠ يقول المولى ثم ليقضوا يزيلوا تفثهم أوساخهم وشعرهم الزائد، بالاستحمام والحلاقة.

وليوفوا نذورهم التى نذورها لله تعالى ٠٠ من لحوم، وأموال ٠٠ إلخ.

وليطوفوا وهم على نظافة وطهارة بالبيت العتيق طواف الإفاضة.

وبذلك : يكون قد انتهى أداؤهم لمناسك فريضة الحج.

* * *

{ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }

[الآيتان ٣٠ ، ٣١]

ذلك أى : الذى ذكرناه أصبح واضحاً.

و أيضاً من يعظم حرمات الله أى : ما لا يحل هتكه، وهى : كل ما كلف الله به عباده، آمراً به أو ناهياً عنه، ويدخل فيها مناسك الحج، ويدخل فيها كذلك الحرمات الخمس ٠٠ هى : البيت الحرام، والمشعر الحرام، والشهر الحرام، والبلد الحرام، والمسجد الحرام ٠٠

فهو أى : هذا التعظيم خير له عند ربه فى الآخرة.

ثم عاد الكلام إلى بيان بعض أحكام الحج : فقال تعالى وأحلت لكم الأنعام حيث كان يُظَن أنها تحرم بالإحرام كما يحرم الصيد على المحرم ٠٠ فبين ربنا أنها حلال إلا ما يتلى عليكم من المحرمات ٠٠ فهو حرام .

ولما حث ربنا على تعظيم حرماته : عقب على ذلك بالأمر الإلهى باجتناب الأوثان وقول الزور فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور.

ثم قال : وكونوا حنفاء لله مخلصين له الدين غير مشركين به أحداً.

ومن يشرك بالله غيره : فكأنما خر من السماء إلى الأرض فتخطفه الطير وهو فى الهواء، فتقطعه وتأكله أو تهوى به الريح وتسقطه فى مكان سحيق بعيد مهلك لمن سقط فيه.

* * *

{ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ }

[الآيتان ٣٢ ، ٣٣]

ذلك أى : الذى ذكرناه ٠٠ أصبح واضحاً.

و أيضاً من يعظم شعائر الله أوامره، ومناسكه فى الحج، ومن ذلك الهَدي الذى يساق إلى أهل الحرم.

فإنها أى : فإن تعظيمها من دلائل تقوى القلوب.

ولكن ٠٠ لماذا كان تعظيم الهَدي ٠٠ من علامات تقوى القلوب ٠٠؟

يقول تعالى :

لكم فيها منافع من الركوب، وشرب ألبانها، عند الضرورة، وذلك إلى أجل مسمى وهو ساعة نحرها، بعد وصولها إلى محلها إلى البيت العتيق.

* * *

هذا ٠٠

وليست المناسك التى يذكر اسم الله عليها وعندها خاصة بهذه الأمة ٠٠
يقول جل شأنه :

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ }
[الآية ٣٤]

أى : ولكل أمة من الأمم قبلكم أرسل الله لها رسولاً، وطالبها بشريعة جعلنا لهم منسكاً أى : ذبحاً وإراقة دماء؛ طاعة لله ليذكروا اسم الله وحده على ما رزقهم من بهيمة الأنعام عند ذبحه.
وليس فى هذا غرابة ٠٠!!
فإلهكم جميعاً إله واحد وهو الله سبحانه وتعالى، مهما تعددت الشرائع.
وما دام الأمر كذلك فله أسلموا انقادوا، وأخلصوا، واستسلموا لحكمه وطاعته.
وبشر المخبتين.

* * *

قد يقول قائل : من هم المخبتون ٠٠؟
فيكون الجواب الإلهى :

{ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }
[الآية ٣٥]

يعنى : المخبتون ٠٠ هم الذين وصفوا بهذه الصفات:
الأولى : إذا ذكر الله وجلت خافت منه قلوبهم.
الثانية : والصابرين على ما أصابهم من الابتلاءات.
الثالثة : والمقيمى الصلاة فى أوقاتها.
الرابعة : ومما رزقناهم ينفقون يؤدون حق الله فى أموالهم، ويتصدقون متطوعين بعد ذلك على الفقراء والأهل والأقارب.

* * *

ثم يعود الحديث إلى شعائر الله، التى أمر بتعظيمها فيما سبق ٠٠ قائلاً :

{ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ }
[الآيتان ٣٦ ، ٣٧]

أى : والبدن وهى : الإبل والبقر جعلناها لكم من شعائر الله التى يجب تعظيمها ٠٠ باختيار الجيد الطيب منها للحرم ، لكم فيها خير فى الدنيا، وفى الآخرة.

فاذكروا اسم الله عليها عند ذبحها صواف واقفة، مصفوفة.

فإذا وجبت سقطت جنوبها على الأرض، وسكنت حركتها تماماً ٠٠ فجهزوها، واطبخوها ٠٠

وبعد ذلك :

فكلوا منها إن شئتم وأطعموا من لحومها القانع المحتاج الذى لا يسأل لأنه قانع راض بما عنده والمعتر الذى يسأل.

كذلك أى كما أمرناكم بنحرها وذبحها على هذا النحو سخرناها لكم ذللناها لكم، لتنتفعوا بها لعلكم تشكرون الله على إنعامه بكم وعليكم.

واعلموا أنه لن ينال صاحبها رضى الله، بسبب لحومها أو دمائها فقط، دون إخلاص منه ولكن يناله التقوى منكم أى : بمراعاة ٠٠ النية والإخلاص، وتحقيق شروط التقوى.

كذلك أى : من أجل ذلك سخرها لكم لتكبروا الله على نعمه، وعند ذبحها على ما هداكم وأرشدكم إليه.

ثم يقول ربنا حثاً على الإجادة فى الأداء وبشر المحسنين بالثواب الجزيل على إحسانهم.

***

أيها الأحبة فى الله ٠٠

لاحظتم أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن المناسك والعبادات ٠٠

وأن الذين كفروا كانوا يصدون المسلمين عن سبيل الله والمسجد الحرام ٠٠!!

ومن المعقول : أن تحتاج هذه المناسك والعبادات إلى من يدافع عنها ضد هؤلاء الصادين عن سبيل الله ٠٠

وبالطبع هذه المدافعة : سيكون فيها قتال.

ولهذا ٠٠ وغيره : كان التمهيد للإذن بالقتال :

فى قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ }
[الآية ٣٨]

يعنى : إن الله يدافع بقدرته عن الذين آمنوا به، وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه ٠٠ شر الأشرار ، وكيد الفجار.
حيث إن الله لا يحب كل خوان للأمانة كفور للنعمة.
وفى هذه الآية : وعد من الله بنصرة المؤمنين حيث يجعلهم فى غاية الثقة، والاطمئنان.

* * *

ومن ثم ٠٠ كان الإذن لهم بالقتال :

{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }
[الآية ٣٩]

يعنى : أذن أى: أذن الله للذين يقاتلون من أعدائهم، وهم المؤمنون ٠٠ بأن يقاتلوا من يقاتلونهم.
ذلك الإذن بأنهم بسبب أنهم ظلموا من أعدائهم الكافرين.
هذا ٠٠ وإن الله سبحانه على نصرهم بدون قتال لهم لقدير.
ولكن يريد تبارك وتعالى من عباده أن يبذلوا جهدهم فى طاعته، ونشر دعوته، وإعلاء كلمته، وتطبيق منهجه.

* * *

ومن صور هذا الظلم الذى وقع على المؤمنين ما يذكره ربنا فى قوله تعالى:

{ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }
[الآية ٤٠]

يعنى : الذين أذن لهم بالقتال ٠٠ هم من أخرجوا من دياهم بغير حق ولكن ظلماً وعدواناً.
وما ذلك الإخراج لهم إلا بسبب إيمانهم، وقولهم ربنا الله وحده.
ثم يبين ربنا جلت حكمته ٠٠ أنه يحفظ دينه بهذا الأمر، وهو رد العدوان ٠٠ حيث يقول :
ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض أى : إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار وقتالهم، ونصره لهم فى كل العصور : لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان ولَهُدمت بأيدى أهل الكفر صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً.

يقول عز وجل ولينصرن الله من عباده من ينصره أى من ينصر دينه دينه بالعمل بأحكامه، والالتزام بتشريعاته، وإعلاء شأنه، وكذلك بالدفاع عن أهله، وصيانة حرماته.
حيث إن الله لقوى على هذه النصرة عزيز لا يمنعه منها أحد.

* * *

وبعد ذلك ..
يبين الله عز وجل .. أن هؤلاء الذين يدافع سبحانه عنهم، والذين أذن لهم بالقتال .. هم أيضاً :

{ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ }
[الآية ٤١]

هذا وصف من الله تعالى لمن يستحقون نصره.
يعنى : هؤلاء الذين ظلموا، وأذن لهم بالقتال، ونصروا دين الله .. إن مكناهم فى الأرض بنصرنا لهم على أعدائهم : فعلوا هذه الأمور :
أقاموا الصلاة.
وآتوا الزكاة .
وأمروا بالمعروف.
ونهوا عن المنكر.
و علموا جيداً .. أن لله عاقبة الأمور فتوكلوا عليه، وفوضوا الأمر فى كل شيء إليه.

* * *

ولما كان قتال الأعداء للمسلمين ناتجاً عن تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم بيَّن الله للنبى عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين تثبيتاً لهم أن هذا التكذيب وهذا الإيذاء .. طبيعة الكافرين لأهل الحق فى كل العصور، ولستم وحدكم فى ذلك .. فاصبروا .. وجاهدوا، حتى يأتى نصر الله.
يقول تعالى :

{ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ }
[الآيات ٤٢ – ٤٥]

يعنى : وإن يكذبوك أى كفار أمتك ٠٠ فلا تبتئس، ولا تتأثر من تكذيبهم لك ٠٠ فسأمهلهم، ثم آخذهم، وأعذبهم عذاباً شديداً.

فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى ٠٠!!

فأمليت للكافرين هؤلاء، وأمهلتهم ثم أخذتهم وأهلكتهم.

فكيف كان نكير أى : انظر ٠٠ كيف إنكارى عليهم وعقابى لهم.

وهؤلاء مثلهم ٠٠ لا يفلتون منى، ولا ينجون من عقابى ما داموا مصرين على : الكفر، والعناد، والتكذيب.

أيضاً ٠٠ أين قراهم ومساكنهم ٠٠؟

هلك أهل هذه القرى، وخربت بيوتهم، وتعطت آرباهم، وسكن الهواء وانهدمت قصورهم الرائعة.

* * *

أفلا يعتبر بهؤلاء، وما حدث لهم ٠٠ كفار هذا العصر ٠٠؟!!

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }

[الآية ٤٦]

أى : أغفلوا فلم يسيروا فى الأرض ليعتبروا بما حدث لهذه الأمم، وهم يمرون على ديارهم ٠٠؟!!

فليسيروا فتكون لهم خلال سيرهم قلوب يعقلون بها ما حدث، أو آذان يسمعون بها عما حدث ٠٠ ليعتبروا ويؤمنوا.

ولكنهم لم يعتبروا ولم يؤمنوا، بعد أن ساروا، ورأوا، وسمعوا.

حقاً فإنها لا تعمى الأبصار ولكن العمى الحقيقى ٠٠ هو أن تعمى القلوب التى فى الصدور وقد عميت قلوبهم.

ولذلك ٠٠ لم يعتبروا، ولم يؤمنوا.

* * *

بل أكثر من هذا ٠٠

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ }

[الآية ٤٧]

يعنى : و من تكذيبهم، واستهزائهم أنهم يستعجلونك بالعذاب أى : يطلبون نزوله بهم سريعاً.

و هم لا يعلمون أن الله لا يخلف وعده بقيام الساعة، وبعث الناس، وتكريم المؤمنين، وتعذيب الكافرين.
و هم لا يعلمون أيضاً أن يوماً عند ربك مقداره كألف سنة مما تعدون أنتم.
ولذلك ٠٠ هم يستعجلون العذاب؛ ظناً منهم أنه لن يكون.

* * *

ثم يقول تعالى لهم :

{ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ }
[الآية ٤٨]

يعنى : فلا تغتروا بإمهالى لكم ٠٠ فكم من أهل قرية أمليت لها وأخرت العذاب عن أهلها وهى ظالمة بكفرها، مثل ظلمكم بكفركم، ثم أخذتها بالعذاب، كما سأعذبكم فى الدنيا وإلىّ المصير أيضاً فى الآخرة، فيكون العذاب الأليم الأبدى.
فهل تعتبرون، فتؤمنون ٠٠؟

* * *

يا محمد ٠٠

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٤٩]

أى : قل لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، المستهزئين به، وللدنيا كلها معهم يا أيها الناس جميعاً ٠٠ إنما أنا لكم نذير بالعذاب مبين واضح، وكذلك : بشير للمؤمنين بالنعيم.

* * *

وعلى ذلك : فالاختيار ٠٠ بين الكفر والإيمان لكم، وبكامل حريتكم.

{ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }
[الآيتان ٥٠ ، ٥١]

أى : فالذين هداهم الله، وآمنوا وعملوا الصالحات فقد فازوا؛ حيث إن لهم عند ربهم مغفرة ورزق كريم.

و أما الذين شقوا، وسعوا فى إبطال ومعاندة ومقاومة آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، والهادية لعبادنا معاجزين لها بالإفساد والإبطال، فقد خسروا؛ حيث أولئك هم أصحاب الجحيم.

* * *

وبعد هذا البيان النبوى من محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ أنه نذير مبين ، يكون بيان الله عز وجل لسنة من سننه.

حيث يقول :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٥٢]

يعنى : وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول ولا نبى إلا كانت له أمانى كبيرة، فى هداية أمته إلى الإيمان، فـإذا تمنى هذه الأمانى، ومارس دعوته ألقى الشيطان فى قلوب بعض الناس الذين هم محل أمنيته أى : أتباعه، الذين يمارس فيهم دعوته.

نعم ٠٠ ألقى الشيطان فى قلوب هذا البعض من الناس الشكوك والأوهام، المتصلة بالله تعالى، أو بالرسول، أو بالرسالة، أو بالقرآن، أو بغير ذلك.

فينسخ الله ويذهب من قلوب المخلصين الصادقين ما يلقى الشيطان من الشكوك والأوهام.

ثم يحكم الله فيها أى : قلوب المخلصين آياته ويثبتها.

والله عليم بما يلقى الشيطان فى القلوب.

حكيم فيما ينسخ منها ويذهب، وفيما يبقى من آياته ويثبت.

* * *

والحكمة فى تمكين الله تبارك وتعالى للشيطان من إلقاء هذه الشكوك والأوهام فى بعض القلوب : تتضح فى قوله تعالى :

{ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }
[الآية ٥٣]

أى : ليجعل الله سبحانه ما يلقى الشيطان من أوهام وشكوك فتنة واختباراً للذين فى قلوبهم مرض أى : شك، وكذلك اختباراً لـــ القاسية قلوبهم من عباد الله، الذين لا يتأثرون بموعظة، ولا تنفع فيهم دعوة.

حقاً ·· وإن الظالمين من المشركين والمنافقين والفاسقين لفى شقاق بعيد عن الحق والصواب، فيما يتوهمون ويظنون نتيجة إلقاء الشيطان ما يلقيه فى قلوبهم.

* * *

وليست هذه هى الحكمة فقط من تمكين الله للشيطان من هذا الإلقاء :
حيث يقول ربنا أيضاً ··

{ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ٥٤]

أى : وليعلم الذين أوتوا العلم بالله، وبدينه، وبالقرآن أنه أى : القرآن هو الحق من ربك لا شك فيه، ولا أوهام حوله فيؤمنوا به وبما جاء فيه.

وعلى ذلك فتخبت أى : تطمئن له ولما جاء فيه قلوبهم.

حقاً ·· وإن الله تعالى لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.

* * *

وبعد أن اتضح ما يلقيه الشيطان فى القلوب حول الرسالة ··
كما اتضح كذلك موقف الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم منه ··!!
وثالثاً : موقف المؤمنين أيضاً مما يلقيه الشيطان ··
يقول تعالى :

{ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ }
[الآية ٥٥]

والمعنى: أنه لا إفادة عند الذين كفروا من هذا التوضيح السابق ..

حيث إنهم سيظلون فى مرية شك منه أى : القرآن، أو الصراط المستقيم حتى تأتيهم الساعة القيامة بغتة فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا رجاء فى الخلاص منه، ولا راحة فيه.

وساعتها ٠٠ يوقنون ٠٠!!

ولكن : بعد فوات الأوان.

* * *

حيث يكون :

{ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ }

[الآيتان ٥٦ ، ٥٧]

نعم ٠٠ الملك يومئذ أى : يوم يوقنون فى يوم القيامة لله وحده، هو الذى يحكم بينهم ويفصل فى أمرهم.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلون فى جنات النعيم.

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك يدخلون جهنم لهم فيها عذاب مهين.

* * *

ثم يخص الله بعض هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين يدخلون جنات النعيم بالذكر؛ تشريفاً لهم ٠٠

فقال :

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ }

[الآيتان ٥٨ ، ٥٩]

يعنى : و من الذين أوتوا العلم وعلموا أن القرآن هو الحق من ربك، ويدخلون فى جنات النعيم الذين هاجروا من ديارهم فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، ونصرة دينه ثم قتلوا فى الجهاد أو ماتوا فى غير ساحات الجهاد.

هؤلاء ليرزقهم الله فى الجنة رزقاً حسناً تسعد به قلوبهم، وتقر به أعينهم.

و هذا فضل من الله؛ حيث إن الله لهو خير الرازقين.

نعم ٠٠ ليدخلنهم الله سبحانه مدخلاً فى الجنة يرضونه حيث يكون فيه ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين.

وإن الله تبارك وتعالى ٠٠

لعليم بأحوال عباده ٠٠ من قضى نحبه ومات شهيداً فى سبيل الله، ومن مات فى فراشه، وكان يجاهد قبلاً ويتمنى الشهادة فى سبيل الله.

حليم يصفح عنهم، ويغفر لهم.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل :

{ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }
[الآية ٦٠]

أى : ذلك الفضل من الله فى الآخرة للذين هاجروا فى سبيل الله، ثم قتلوا أو ماتوا ٠٠ و كذلك فى الدنيا ٠٠ لا أترك نصرة الباقين منهم؛ حيث إنه ٠٠

من عاقب من المؤمنين بمثل ما عوقب به أى بمثل العدوان الذى وقع عليه ثم بغى عليه بعد ذلك : لينصرنه الله على من بغى عليه.

وهذه سنتنا فى نصرة المظلومين.

حيث إن الله تعالى لعفو لمن عاقب بمثل ما عوقب به غفور لمن اجتهد فى رد العدوان فأخطأ.

* * *

ثم يقول سبحانه مؤكدا هذه السنة الربانية ، وهي نصرة المظلوم :

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }
[الآية ٦١]

يعني : ذلك النصر الرباني للمظلوم ؛ لأن الله عز وجل قادر ، ومن قدرته أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل يدخل هذا في ذاك ، ويزيد من هذا في ذاك بقدرته تبارك وتعالى.

وأن الله سميع لأقوال عباده بصير بأفعالهم ، ينصر من ظلم وبُغي عليه منهم.

***

ثم يقول :

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }
[الآية ٦٢]

أى : ذلك النصر الربانى؛ بسبب أن الله هو الحق فهو ينصر أهل الحق.
وأن ما يدعون من دونه من الأصنام، وسائر المعبودات هو الباطل.
وأن الله سبحانه هو العلى فلا أعلى منه شأناً الكبير فلا أكبر منه سلطاناً.
وهكذا ٠٠ أصبح واضحاً : أن النصر من الله القادر لمن أخلص النية وهو يجاهد فى سبيل الله.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠
لما نبه ربنا عز وجل على كمال قدرته فى نصر أوليائه بأنه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليلأكد على كمال هذه القدرة ٠٠ بذكر ستة أشياء، هى من آثار قدرته :
حيث يقول عن الأول :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ]
[الآية ٦٣]

* * *

ثم يقول تعالى عن الثانى من آثار قدرته :

{ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }
[الآية ٦٤]

* * *

ثم يقول تبارك وتعالى :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٦٥]

هذه الآية الكريمة ٠٠ فيها :

الأثر الثالث ٠٠ الدال على قدرته تعالى، وهو أن الله سخر لكم بقدرته ما فى الأرض من الحيوانات، والنباتات، والجمادات؛ للانتفاع بها.

والأثر الرابع كذلك، وهو والفلك وهى السفن ٠٠ أى: وسخر لكم السفن تجرى فى البحر بأمره وقدرته وتيسيره، دون أن تغرق.

والأثر الخامس أيضاً ٠٠ ويمسك السماء بقدرته من أن تقع على الأرض أو أى شيء منها إلا بإذنه كبعض النيازك والشهب.

حيث إن الله بالناس فى هذا التسخير لما فى الأرض، والتسيير للسفن، وإمساك السماء حتى لا تقع على الأرض لرءوف رحيم.

* * *

وعن الأثر السادس من قدرة الله يقول سبحانه :

{ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ }
[الآية ٦٦]

يعنى : من دلائل قدرته تعالى، التى ينصر بها أولياءه ٠٠ إحياؤكم من العدم، ثم إماتتكم، ثم إحياؤكم للبعث والحساب.

وقد نبه بالإحياء الأول على ٠٠ إنعامه فى الدنيا على خلقه، بكل ما تقدم ذكره.

ونبه بالإحياء الثانى على ٠٠ إنعامه فى الآخرة على المؤمنين، بكل فضل وإحسان.

ولما فصل تعالى هذه النعم فى الدنيا على هذا النحو ٠٠ قال إن الإنسان لهذه النعم لكفور جحود لفضل الله عليه (مبين) .

أيها الكرام ٠٠

لما كان الحديث عن نعم ٠٠ كلها فضل من الله بلا تكليف.

يأتى حديث عن نعم ٠٠ كلها فضل من الله وتكليف.

حيث يقول تعالى :

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ * وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ }
[الآيتان ٦٧ ، ٦٨]

يعنى : لكل أمة نبى جعلنا لهم منسكاً أى : شرعاً هم ناسكوه عاملون به، وهو خاص بهم.

فلا ينبغى أن ينازعنك يجادلنك، أهل الشرائع والأديان السابقة فى الأمر أى أمر الإسلام ومناهجه، ومناسكه.

وكان ذلك : لما قالوا عن الذبائح ما قتل الله منها بالموت، أحق أن تأكلوه ·· عما قتلتم أى : ذبحتم بأيديكم !!

ولا تنازعهم وتجادلهم ··

ولا تلتفت إليهم.

وادع إلى دين ربك وشريعته، وعبادته، كما أنزل عليك.

حيث إنك لعلى هدى أى : طريق مستقيم وشرع قويم.

هذا ··

وإن جادلوك ونازعوك بعد بعدك عنهم، وتلاشى نزاعهم ··!!

فقل لهم الله أعلم بما تعملون من أعمال ظاهرة، أو خفية، ولن أجادلكم، وكان ذلك قبل الأمر بالقتال.

* * *

ثم يقول تعالى للمؤمنين والكافرين.

{ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }
[الآية ٦٩]

يعنى : أن الله وحده هو الذى يحكم بينكم ويفصل يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون فيثيب المؤمنين، ويعاقب الكافرين.

* * *

هذا ··

ولما كان الحكم يقتضى العلم بما يستحقه كل أحد؛ ليتم العدل فقد بين ربنا عز وجل أنه العالم بكل شيء.

حيث يقول مطمئناً حبيبه صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن معه :

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }
[الآية ٧٠]

يعنى : ألم تعلم بمعنى اعلم أن الله القادر هو الذى يعلم وحده كل ما فى السموات والأرض.
حيث إن ذلك الذى فى السماء والأرض مدون فى كتاب وهو اللوح المحفوظ.
إن ذلك التدوين والإثبات للموجودات فى اللوح المحفوظ على الله يسير فلا يغيب عنه سبحانه من ذلك كله شيء.
وفى هذا : بشارة للمؤمنين، وتهديد للكافرين.

* * *

هذا ..
ومع عظيم النعم التى أنعم الله بها على خلقه .. فإن الكفار يفعلون ما لا يليق.
اقرأ معى ما يقوله رب العزة عنهم :

{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ }
[الآية ٧١]

أى : و مع وضوح الدلائل على وحدانيته تعالى وقدرته لهؤلاء الكافرين، فإنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً أى دليلاً وما ليس لهم به علم يعنى : لا دليل لهم من الوحى، ولا من العقل على صحة ما يعبدون، وهذا ظلم منهم.
ولذلك يهددهم المولى على ظلمهم .. بقوله وما للظالمين فى عبادتهم من نصير يدفع عنهم العذاب يوم القيامة.

* * *

كذلك ..

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآية ٧٢]

يعنى : وإذا تتلى عليهم آياتنا من القرآن بينات واضحات الدلالة على وحدانية الله وقدرته ٠٠ تعرف أى : ترى فى وجوه الذين كفروا المنكر أى : أثر الإنكار لها من العبوس والضيق والكراهة، بل إنهم يكادون يسطون يبطشون بالذين يتلون عليهم آياتنا هذه، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون.

والعجيب ٠٠ أن هذه عادة الطغاة مع الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان.

قل لهم أفأنبئكم بشر من ذلكم الذى تسمعون ٠٠؟

إنه : النار التى وعدها الله الذين كفروا بأن يكون مصيرهم إليها، وعذابهم فيها وبئس هذا المصير مصيرهم.

* * *

أيها الأحبة ٠٠

لما قال ربنا تبارك وتعالى عن الكافرين ويعبدون من دون الله أى : آلهة غير الله القادر ٠٠!!

بين عجز هذه الآلهة بقوله :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ }

[الآية ٧٣]

يعنى : يا أيها الناس ضرب الله عز وجل لما تعبدونه من دون الله من الأصنام وغيرها ٠٠ مثلاً فاستمعوا له.

وهذا هو ٠٠

إن الذين تدعون أى : تعبدون من دون الله من آلهة باطلة : عاجزون ٠٠

حيث إنهم أى : هذه الآلهة لن يخلقوا ذباباً إذا أرادوا ذلك ٠٠ حتى ولو اجتمعوا كلهم له أى : لخلق هذا الذباب.

وأكثر من هذا دلالة على عجزهم ٠٠

وإن يسلبهم الذباب هذا المخلوق الضعيف شيئاً ولو تافهاً لا يستنقذوه منه لعجزهم عن ذلك.

حقاً ٠٠ ضعف الطالب وهى الآلهة والمطلوب منه، وهو الذباب، وأيضاً ضعف الطالب : وهو العابد الكافر، والمطلوب، وهو الصنم المعبود.

* * *

بئس هؤلاء ٠٠ إنهم :

{ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }
[الآية ٧٤]

يعنى : ما عظموا الله كما يستحق، حيث جعلوا هذه الأصنام مع نهاية خستها وعجزها شريكة لله سبحانه.
إن الله تعالى لقوى لا يصعب عليه فعل شيء عزيز لا يقدر أحد على مغالبته.
فكيف يجعلون له شريكاً ٠٠؟!!
وكيف يعبدون هذا الشريك ٠٠؟!!

* * *

إخوتى فى الله ٠٠
لما أبطل الله مواقف الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، وأبطل آلهتهم ، وأثبت عجزها.
قالوا على النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ لِمَ أنزل عليه القرآن من بيننا، وليس بأشرفنا ولا بأكبرنا ٠٠
فرد الله عليهم بقوله فى النبوات :

{ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ }
[الآيتان ٧٥ ، ٧٦]

والمعنى : الله يصطفى ويختار من الملائكة رسلاً كجبريل وغيره ومن الناس رسلاً، كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، كما يشاء ٠٠ فالأمر له وحده.
إن الله سميع لأقوال هؤلاء بصير بمن يختاره لرسالته،.
لذلك : فهو يجعل رسالته حيث يشاء.
كما أنه يعلم ما بين أيديهم مما سيقولونه وسيعملونه وما خلفهم مما قالوه، وما عملوه.
وإلى الله ترجع الأمور كلها، وسيحاسبهم على أقوالهم هذه، وعنادهم هذا.

* * *

هذا ٠٠
ولما تحدث ربنا عز وجل : عن الإلهيات، وعن النبوات ٠٠ تحدث عن التشريعات والتكليفات مخاطباً بها أهل الإيمان.
حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ }
[الآيتان ٧٧ ، ٧٨]

فى هاتين الآيتين الكريمتين : يخاطب ربنا تبارك وتعالى المؤمنين مشرفاً لهم بهذا الخطاب الإلهى، ومشجعاً لهم على حسن تنفيذ ما يطالبهم به يا أيها الذين آمنوا.

مع العلم أن المطلوب هنا : مطلوب من الناس جميعاً.

أقول يطالبهم ربنا بأربعة أشياء :

أولها : الصلاة اركعوا واسجدوا.

ثانيها : العبادة عامة واعبدوا ربكم أى : وحدوه، وأطيعوه، ولا تتوجهوا بالعبادة إلى غيره.

ثالثها : فعل الخير كله وافعلوا الخير كله، من عبادة الله، وإحسان إلى خلق الله.

لعلكم تفلحون بالسعادة فى الدنيا، والجنة ونوال الرضوان فى الآخرة.

رابعها : الجهاد فى سبيل الله وجاهدوا فى الله أى : فى سبيل إقامة دين الله حق جهاده أى : ببذل كل الطاقة فى ذلك الجهاد.

وبعد أن وضحت الآيات هذه المطالب.

تبين ما يوجب قبولها ويساعد على تنفيذها .. على النحو التالى :

أولاً : أن الله قد اختاركم لدينه، وشرفكم بذلك هو اجتباكم أى : اصطفاكم من دون الناس جميعاً.

ثانياً : أن الله يسر لكم، وخفف عنكم فى هذا الدين، وتنفيذ أحكامه؛ حيث إنه ما جعل عليكم فى هذا الدين وتنفيذ أحكامه، وتطبيق تعاليمه من حرج أى : ضيق.

ثالثاً : أن هذا الدين .. ليس بغريب عنكم، فهو ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام، فأنتم أولى الناس باتباعه، والالتزام بملته.

رابعاً : أن الله شرفكم بتسميتكم مسلمين، يعنى مطيعين، مستسلمين له سبحانه هو سماكم المسلمين من قبل هذا الكتاب وفى هذا الكتاب أيضاً، وهو القرآن، وفى ذلك بيان لفضلكم على سائر الأمم.

خامسا : أنكم شهداء على الناس فى الدنيا وفى الآخرة ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس.

وفى الخاتمة .. تؤكد الآيات على ما مضى من المطالب.

حيث يقول المولى :

فأقيموا الصلاة أى : داوموا عليها.

وآتوا الزكاة من أموالكم لمستحقيها.

واعتصموا بالله ثقوا به، وتمسكوا بدينه، واجتمعوا حوله، وطبقوا له؛ إذ هو مولاكم وناصركم ومؤيدكم.

ولا ناصر لكم ولا لأحد سواه.

فنعم المولى هو ونعم النصير لكم هو سبحانه وتعالى.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

وهى : سورة مكية ٠٠
تهتم : بإثبات التوحيد، والنبوة، والبعث .
وتختم : بذكر صفات عباد الله المتقين.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً }
[الآية ١]

تبارك الله الذى : أى : تزايد خيره وتكاثر، وتزايد وتعالى عن كل شئ فى ذاته وصفاته وأفعاله.
وهى : كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده.
الذى نزل الفرقان أى : القرآن، الفارق بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين من إنس وجن، إلى يوم القيامة نذيراً يخوفهم من عذاب الله.

* * *

ثم وصف الله الذى نزل الفرقان على عبده ذاته بأربع صفات من صفات الكبرياء ٠٠ فقال :

{ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً }
[الآية ٢]

أى : هو الذى له هذه الصفات.

الأولى : له وحده ملك السموات والأرض.
الثانية : ولم يتخذ لنفسه ولداً لعدم احتياجه إلى ذلك، كما زعم اليهود والنصارى.
الثالثة : ولم يكن له شريك فى الملك كما زعم المشركون.
الرابعة : وخلق كل شئ وحده فقدره تقديراً بما يناسب الحكمة من خلقه.

* * *

هذا : هو الإله الواحد ‧‧ تبارك وتعالى ‧‧
الذى ينبغى الإيمان به وحده، وأن تكون العبادة له وحده.
ولكن ‧‧
هناك فريق من الناس ‧‧ يقول عنهم ربنا سبحانه :

{ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً }
[الآية ٣]

يعنى : واتخذوا لأنفسهم من دونه أى : غيره وهو الله آلهة يعبدونها.

***

هذه الآلهة ، التى اتخذوها لأنفسهم ‧‧ موصوفة بهذه الصفات :

الأولى : لا يخلقون شيئاً فهى عاجزة عن ذلك، والإله يجب أن يكون: قادراً على الخلق والإيجاد.
الثانية : وهم يُخْلَقون والمخلوق : محتاج .
والإله يجب أن يكون : غنياً.
الرابعة : ولا يملكون موتاً ولا حياة لغيرهم فى زمن التكليف ولا نشوراً فى زمن الحساب والجزاء .
والإله : يجب أن يملك هذا.
هذه : هى آلهتهم العاجزة.
فكيف يعبدونها من دون الله ‧‧؟

* * *

وبعد أن تحدثت الآيات على وحدانية الله، وأبطلت صحة اتخاذ الكافرين من دون الله آلهة غير الله ‧‧!!
يكون حديثها :
عن الشُبَه التى أثاره عند إنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
يقول تعالى :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً }
[الآية ٤]

وهذه هى الشبهة الأولى.

قالوا على القرآن :إنْ هذا أى القرآن إلا إفك كذب افتراه أى : اختلقته محمد – صلى الله عليه وسلم – وألفه من نفسه وأعانه عليه قوم آخرين من أهل الكتاب.

ويرد الله عليهم، وعلى شبهتهم هذه ٠٠ بقوله فقد جاؤا وقالوا ظلماً وزوراً لأنه تحداهم فعجزوا .

ولو كان هو الذى أتى به وألفه : لفعلوا مثله وما عجزوا ٠٠

فلما عجزوا : علم أن القرآن ليس من عند محمد .

فلما أنكروا ذلك : كانوا ظلمة كاذبين.

* * *

فلنستمع إلى شبهة أخرى :

{ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }
[الآية ٥]

وهذه : هى الشبهة الثانية.

قالوا على القرآن : إنه أساطير وحكايات الأولين التى سطروها واختلقوها اكتتبها محمد منهم ٠٠ فهى تملى وتقرأ عليه ليحفظها بكرة وأصيلاً أى: وقتاً بعد وقت.

* * *

ويرد الله عليهم، وعلى شبهتهم هذه ٠٠ بقوله :

{ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً }
[الآية ٦]

أى : قل لهم ٠٠ ليس القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله أنزله الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض.

ولولا رحمة الله : لعاجلكم على كلامكم هذا بالعذاب.

حيث إنه كان حليماً غفوراً فأمهلكم حلماً بكم ؛ لتتوبوا، فتؤمنوا، فيغفر لكم.

* * *

فلنستمع إلى شبهة أخرى، ليست على القرآن .
بل على محمد صلى الله عليه وسلم.

{ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً }
[الآيتان ٧ ، ٨]

أى : أنه مع ظهور فساد اتخاذهم آلهة من دون الله، وبطلان أقوالهم على القرآن ٠٠ لم يؤمنوا، ولم يسكتوا.
بل قالوا على محمد صلى الله عليه وسلم هذه الأشياء :

الأول : مال هذا الرسول إن كان رسولاً كما يدعى يأكل الطعام كما نأكل نحن الطعام ٠٠؟
الثانى : مال هذا الرسول ٠٠ إن كان رسولاً كما يدعى يمشى فى الأسواق كما يمشى الناس فى قضاء حوائجهم ٠٠؟
الثالث : لولا أنزل عليه ملك من السماء فيكون معه يصدقه، ويشهد له، و يكون نذيراً مخوفاً لمن خالفه ٠٠!!
الرابع : أو يلقى إليه كنز من السماء، ينفق منه، ولا يحتاج إلى الشئ فى الأسواق ٠٠!!
الخامس : أو تكون له جنة بستان يأكل منها أى : من ثمارها، فى هذا البلد الذى لا ماء فيه ولا نبات، فيكون له ميزة علينا٠٠!!
السادس : إنه مسحور إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً٠٠!!
أى : لهذه الأشياء ٠٠ نحن لا نؤمن به ولا نتبعه.

* * *

هذا ٠٠
وقد رد الله عز وجل على شبههم بطرائق فى الرد بديعة.
وهى على النحو التالى ٠٠ إجمالاً ٠٠
رد الله على الشبه الأربع الأخيرة بقوله انظر كيف ضربوا لك الأمثال.
ورد على الشبهتين الأولين بقوله الآتى وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق [الآية : ٢٠].

ورد أيضاً على الشبهتين الرابعة والخامسة بقوله تعالى تبارك الذى إن شاء جعل الله خيراً من ذلك جنات ٠٠ الآية.

حيث يقول رداً إجمالياً على هذه الشبه.

{ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً }
[الآية ٩]

أى : انظر إلى عقولهم وتفكيرهم، وتعجب كيف ضربوا لك الأمثال بما ذكروا فضلوا بذلك عن الهدى فلا يستطيعون بهذا التفكير الوصول إلى الصواب والحق سبيلاً.

* * *

ثم يقول تعالى:

{ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً }
[الآية ١٠]

يعنى : تبارك الله الذى عاندوا وكفروا به.

وهو إن شاء جعل لك خيراً من ذلك الذى قالوه ٠٠من أن يلقى إليك كنز، أو تكون له جنة تأكل منها جنات متعددة، وليست واحدة تجرى من تحتها الأنهار فى هذا البلد الصخرى مكة ويجعل لك قصوراً فيها الخدم والحشم، وكل ما يخطر وما لا يخطر ببالهم.

ولكنا لم نشأ ذلك، ولم نجعله لك ؛ حتى لا يكون الإيمان بسبب هذا الغنى عند النبى، ولا بسبب هذه النعم التى يتمناها البشر، وقد يؤمنون لأجلها.

* * *

ثم يوضح ربنا السبب الحقيقى لإثارتهم هذه الشبه، وكذلك لعدم إيمانهم، وهو فى ذات الوقت جريمة أخرى من جرائمهم.

إذّ يقول :

{ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً }
[الآية ١١]

أى : أنهم زادوا فى عنادهم وكفرهم، وكذبوا بالساعة وهى يوم القيامة، وما فيها من حساب، وثواب وعقاب.

و قد أعتدنا لمن كذب منهم أو من غيرهم بالساعة ولم يستعد لها بالإيمان والعمل الصالح سعيراً أى : ناراً موقدة مسعرة، شديدة اللهب والحرق.

* * *

هذه النار ..

{ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً }
[الآية ١٢]

يعنى : إذا رأتهم ورأوها من بعيد قبل أن يدخلوها، أو يقتربوا منها سمعوا لها من شدة لهيبها وغليانها تغيظاً وزفيراً.

* * *

وأما هم ..
فيقول عنهم ربنا عز وجل :

{ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً }
[الآية ١٣]

أى : وإذا ألقوا فى مكان منها وكان مكاناً ضيقاً بطبيعة الحال ، وكانوا هم مقرنين مقيدين فى الأصفاد وهى الأغلال : دعوا هنالك فى هذه اللحظة ثبوراً أى : قالوا يا هلاكنا.

* * *

فيقال لهم :

{ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً }
[الآية ١٤]

أى : ليس هلاكاً واحداً، بل هو ٠٠ هلاك وهلاك، وويل ودمار كثير.

* * *

يا أيها الناصح الأمين

{ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً }
[الآيتان ١٥ ، ١٦]

يعنى : قل لهم أذلك المذكور من صفة النار خير لكم أم جنة الخلد التى وُعِدَ المتقون بها من ربهم ٠٠؟
كانت لهم جزاءً على إيمانهم وتقواهم ومصيراً حسناً يستقرون فيه.
وليس هذا فقط ٠٠
بل لهم فيها ما يشاؤن مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر خالدين فيها كان ذلك على ربك وعداً منه سبحانه مسئولاً أى : مطلوباً.
وقد سأله المؤمنون والملائكة من ربهم فى دعواتهم.

* * *

وأما المعاندون الكافرون :
فيقول عنهم العزيز الحكيم :

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ }
[الآية ١٧]

يعنى : ويوم القيامة ٠٠ يبعثهم، ويحشرهم ويحشر معهم كذلك ما كانوا يعبدون من دون الله من آلهة ٠٠
فيقول الرب سبحانه لهذه الآلهة أأنتم الذين أضللتم عبادى هؤلاء، الذين كانوا يعبدونكم فى الدنيا أم هم ضلوا بأنفسهم عن السبيل الصواب.

* * *

فيكون جواب الذين عُبدوا من دون الله هكذا :

{ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً }
[الآية ١٨]

أى : تعجبوا من هذا السؤال، وقالوا لربنا سبحانك أنت منزه عن الشريك والند، فكيف يعبد غيرك ٠٠؟
يا ربنا ٠٠ ما كان ينبغى لنا ولا يصح منا أن نتخذ من دونك من أولياء وما فعلنا ذلك.
ولكن هؤلاء الضالين متعتهم وآباءهم بالأموال والأولاد وطول العمر، والسلامة من العذاب، فشغلوا بالنعمة ونسوا المنعم حتى نسوا الذكر لك، والإيمان بك، فكفروا وكانوا بسبب ذلك قوماً بوراً أى : هلكى، لا نجاة لهم.
وفى الآية : تنبيه على أن كثرة النعم دون شكر عليها ٠٠ قد تكون طريقاً إلى الكفر والعياذ بالله ٠٠!!

* * *

هذا ٠٠
وحين يقول الذين عبدوا من دون الله ذلك.
يقول ربنا لمن كانوا يعبدونهم فى الدنيا :

{ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً }
[الآية ١٩]

يعنى : فقد كذبوكم أى : هؤلاء الذين كنتم تعبدونهم على أنهم آلهتكم، أو على أنهم يقربونكم إلى الله زلفى، وتبرؤا منكم.
فما تستطيعون لقولهم صرفاً أى رداً ولا لأنفسكم من عذاب الله نصراً وخلاصاً.
ثم يقول ربنا لأهل الدنيا كلها إلى يوم القيامة :
ما فعله الكافرون ظلم ومن يظلم منكم كما ظلموا نذقه فى جهنم عذاباً كبيراً أى : نخلده فيها.

* * *

وبعد ذلك :
تعود الآيات إلى رد شبهات الكافرين التى أنكروا فيها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

فتقول :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً }
[الآية ٢٠]

يعنى : قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ٠٠؟ فما الذى يعيبك فى ذلك ٠٠؟

وما أرسلنا قبلك من رسول من المرسلين إلى أمة من الأمم إلا إنهم كانوا على هذه الصفة ليأكلون الطعام لحاجتهم إلى التغذية به ، شأن البشرية جميعاً ويمشون فى الأسواق للتكسب والتجارة وقضاء المصالح ؛ شأن البشر جميعاً.

وما نقص ذلك من قدرهم شيئاً، ولا قلل من صفاتهم الحسنة، وأقوالهم الفاضلة، وأفعالهم الكاملة، وأنت كذلك مثلهم ٠٠!!

فلماذا يعيبون عليك ذلك ٠٠؟

و على كل حال ٠٠ فقد جعلنا بعضكم لبعض فتنة وابتلاءً وامتحاناً؛ حيث جعلهم يقولون ما يقولون ٠٠ من مثل :

قولهم : محمد بشر مثلنا، فلم خص بالرسالة من دوننا ٠٠؟

وقولهم على الدعاة إلى الله : هم مثلنا، فلم يقومون بالدعوة لنا، هل يريدون الفضل علينا، أو انتزاع الخير منا ٠٠؟

يقول ربنا ٠٠ فى سؤال مُثَبّت :

أتصبرون على أذاهم لكم بالفعل، والقول ٠٠؟

ولم لا ٠٠ وأنتم على الحق ٠٠ ؟

إذن : فاصبروا.

وكان ربك بصيراً بهم وبكم، فيجازى كل واحد منكم بما يستحق، فاطمئنوا، واصبروا، واثبتوا.

***

ثم يعرض الله عز وجل علينا شبهة جديدة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ حيث يقول تعالى :

{ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً }
[الآية ٢١]

يعنى : وقال الذين كفروا بالله، وأنكروا البعث.

و هم الذين قالوا عن القرآن إنه كذب.

وقالوا على النبى صلى الله عليه وسلم ما قالوا، و هم لا يرجون لا يخافون لقاءنا وما يحدث لهم ساعته ..

ماذا قالوا ..؟

قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أى أنزلت علينا الملائكة تشهد على صدق محمد ونبوته أو نرى ربنا فيخبرنا بصدق محمد فى دعواه النبوة..!!

ويكون الرد الإلهى عليهم ..

لقد استكبروا فى أنفسهم واغتروا، وطلبوا هذا الطلب كبراً وغروراً وعناداً وعتو وظلموا كذلك عتواً كبيراً أى : ظلماً فظيعاً شنيعاً، بطلبهم هذا .

* * *

ثم يقول ربنا .. إنهم :

{ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً }
[الآية ٢٢]

أى : يوم يرون الملائكة كما طلبوا .. يكون الأمر قد انتهى؛ حيث إنهم لا يرونها إلا عند الموت ، أو يوم البعث.

وساعتها : تقول لهم الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين بل البشرى للمؤمنين، وأنتم عاندتم وكفرتم، فلا بشرى لكم.

ويقولون لهم أيضاً حجراً محجوراً عليكم البشرى ؛ فهى ليست لكم .

* * *

وليس هذا فقط ..

بل يقول تعالى :

{ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً }
[الآية ٢٣]

يعنى : وقدمنا وقصدنا إلى كل ما عملوا من عمل كانوا يحسبون أنهم يحسنون فيه وبه صنعاً، وينتظرون منه الخير فجعلناه هباءً كالغبار الدقيق جداً منثوراً فى الهواء ..

يعنى : لا قيمة له، ولا وزن، ولا ثواب عليه.

* * *

وبعد أن بين الله حال هؤلاء الكافرين ٠٠ بين حال أهل الإيمان.
بقوله تعالى :

{ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً }
[الآية ٢٤]

أى : أن أصحاب الجنة وهم المؤمنون يومئذ فى يوم القيامة ٠٠ يكونون على أحسن حال ٠٠
فهم خير مستقراً أى : مقرهم وسكنهم وإقامتهم، هى الخير كله.
وهم أحسن مقيلاً أى : راحتهم، وتفكههم، هو الحسن كله.

* * *

ثم يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ٠٠ أن يتذكر مشهدين من مشاهد يوم القيامة ٠٠ فيهما العزاء والسلوى من عناد الكفار له.
فى المشهد الأول يقول سبحانه له :

{ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً }
[الآيتان ٢٥ ، ٢٦]

يعنى : و اذكر يوم تشقق السماء وتنفرج بالغمام وهو ظلل النور العظيم، الذى يبهر الأبصار ونزّل الملائكة مع هذا الغمام تنزيلاً يحيطون بالخلائق فى مقام الحشر، يوم القيامة.
الملك يومئذ هو الحق الثابت للرحمن فلا ملك لغيره.
وكان ذلك اليوم يوماً على الكافرين عسيراً شديداً عليهم، سهلاً يسيراً على المؤمنين.

* * *

وفى المشهد الثانى يقول تبارك وتعالى :

{ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً }

[الآيات ٢٧ – ٢٩]

يعنى : و اذكر أيضاً يوم يعض الظالم الذى كفر بالله، وعاند الرسول على يديه ندماً لموقفه فى الدنيا.

وهو يقول ساعتئذ يا ليتنى اتخذت مع الرسول فى الدنيا سبيلاً لصاحبته، والإيمان به، ومتابعة ما جاء به، لأدخل الجنة الآن ٠٠!!

كما يقول متحسراً يا ويلتّى ليتنى لم أتخذ بدلاً منه فلاناً الكافر ، العاصى لربه، المعاند لرسوله خليلاً صديقاً فى الدنيا ورفيقاً.

نعم ٠٠ لقد أضلنى هذا الصديق عن الذكر وهو القرآن بعد إذ جاءنى من الله، ووصل إلى.

إن هذا لمن عمل الشيطان، الذى كنت أطيعه وكان الشيطان للإنسان خذولاً وقد أصابنى الخذلان والخسران.

* * *

هذا ٠٠

ولما أكثر الكفار – كما سمعنا سابقاً – من الاعتراضات الفاسدة، ووجوه التعنت الكثيرة : ضاق صدر النبى صلى الله عليه وسلم، واشتكى إلى ربه ٠٠

{ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً }

[الآية ٣٠]

أى : وقال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ شاكياً لربه يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن وجعلوه مهجوراً متروكاً.

حيث أهملوا ٠٠ تلاوته، والاعتناء به، والخشوع له، والعمل بأحكامه.

ويلاحظ : أن سبب هذه الشكوى ٠٠ موجود بيننا، وليس إهمالاً فقط، بل معاداة له، وحرباً لأحكامه .

ولا حول ولا قوة إلا بالله ٠٠!!

* * *

ولما اشتكى النبى لربه ٠٠!!

قال له : لست وحدك، وأسوتك، إخوانك من الأنبياء، الذين أوذوا وصبروا ٠٠ فلتصبر ٠٠

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً }

[الآية ٣١]

أى : وكذلك الذى يفعلونه معك ٠٠ فعله السابقون من الكافرين مع إخوانك من النبيين؛ حيث جعلنا لكل نبى منهم، مثل ما يحدث معك عدواً من الكافرين المجرمين.

ولا تبتئس من أعمالهم، وصدهم للناس عن الإيمان ٠٠ فإن ربك لهم بالمرصاد، وكفى بربك هادياً لمن أراد الهداية ونصيراً لمن آمن بك واتبعك.

* * *

ثم يعرض الله عز وجل شبهة أخرى لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

حيث يقول :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }
[الآية ٣٢]

يعنى : وقال الذين كفروا بالله، وأنكروا البعث .

و هم الذين قالوا عن القرآن إنه كذب، وهم الذين قالوا على النبى صل الله عليه وسلم ما قالوا ٠٠!!

ولكن ٠٠ ما الذى قالوه هذه المرة ٠٠؟

قالوا لولا نزل عليه القرآن الذى يدعيه جملة واحدة لو كان صادقاً، كما نزلت التوراة جملة واحدة على موسى، والإنجيل جملة واحدة على عيسى، ولم ينزل مفرقاً كما يحدث الآن !! ؟

والجواب

كذلك أى أنزلناه مفرقاً ٠٠ لأمرين :

الأول : لنثبت به فؤادك وأفئدة المؤمنين معك، من خلال هذه المعايشة المستمرة مع نزوله المفرق المتتابع مع الحوادث والأحوال.

الثانى ورتلناه عليك، وعلى المؤمنين ترتيلاً تفهمه ويفهمونه ٠٠٠ وتسعد به ويسعدون به أيضاً.

* * *

ثم ختم ربنا الحديث عن شبههم هذه بقوله :

{ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً }

[الآيتان ٣٣ ، ٣٤]

يعنى ..

و هكذا .. هؤلاء لا يأتونك بمثل أى : بسؤال عجيب من شبههم السابقة كلها إلا جئناك أى جئنا لك بالحق فى الجواب عليهم، بما يدفع باطلهم، ويكون أحسن تفسيراً بياناً وتوضيحاً لما يسألون عنه، ويعترضون عليه.

هؤلاء المعاندون : هم الذين سوف يحشرون على وجوههم يوم القيامة مع غيرهم إلى جهنم ..

أولئك مكانهم شر مكاناً وهو جهنم، و طريقهم الذى يسيرون فيه أضل سبيلاً أى طريقاً ..

فاحذروهم ..

أيها الأحباب الكرام ..

بعد أن أكد ربنا على قضية التوحيد، وإثبات النبوة، ورد الشبهات ..!!

وبعد أن بين أن لكل نبى عدواً من المجرمين ..!!

بدأ يذكر قصص بعض الأنبياء، الذين كُذبوا من أممهم .

وكأنه يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم : لست وحدك، فمن قبلك الأنبياء قد كذبوا.

وهذه هى القصة الأولى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً }

[الآيتان ٣٥ ، ٣٦]

يعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب وهو التوارة، وأرسلناه إلى فرعون وقومه وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً له.

فقلنا لهما اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا لدعوتهم إلى الإيمان، وهم فرعون وقومه.

فذهبا، وبلغاهم، ودعواهم .. فكذبوا.

فماذا كانت النتيجة ..؟

يقول العزيز الجبار فدمرناهم تدميراً أى : أهلكناهم إهلاكاً عجيباً.

فليحذر المعاندون المكذبون ..!!

* * *

والقصة الثانية ..

{ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً }

[الآية ٣٧]

أى : وقوم نوح من قبلهم لما كذبوا الرسل إليهم أيضاً أغرقناهم بالطوفان وجعلنا إغراق هم على هذا الشكل للناس آية تدل على قدرتنا على إهلاك المكذبين.
وأعتدنا فوق ذلك للظالمين فى يوم القيامة، نظراً لتكذيبهم عذاباً أليماً.

* * *

والقصة الثالثة :

{ وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً }
[الآيتان ٣٨ ، ٣٩]

يعنى : و أهلكنا عاداً وثمود وأصحاب الرَّسّ وقروناً بين ذلك كثيراً لما كذبوا رسلهم.
وكلا منهم ضربنا له الأمثال ووضحنا لهم الأدلة ٠٠ فكذبوا.
و لما كذبوا كلا تبرنا منهم تتبيراً أهلكنا إهلاكاً قاسياً.

* * *

القصة الرابعة :

{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً }
[الآية ٤٠]

يعنى : ولقد أتوا ومروا على القرية وهى قرية قوم لوط التى أمطرت بالحجارة عليهم مطر السوء.
أفلم يكونوا أى هؤلاء الكفار من أهل مكة يرونها فى سفرياتهم، ويشاهدونها بأعينهم، فيتفكروا، ويؤمنوا ٠٠ ؟
بل إنهم كانوا لا يرجون نشوراً لا يخافون منه؛ لأنهم لا يؤمنون به.

* * *

ثم يبين الله عز وجل أن هؤلاء الكافرين ٠٠ لم يكتفوا بإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقط : بل كانوا يسخرون منه ويهزؤن به.

يقول تعالى :

{ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً]
[الآية ٤١]

يعنى : و هؤلاء إذا رأوك إن أى : ما يتخذونك إلا هزواً.
أى : مادة لاستهزائهم، ويقولون أهذا هو الذى بعث الله إلينا رسولاً ..!! ؟

* * *

ثم يقولون ساخرين :

{ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً }
[الآية ٤٢]

أى : إنه أوشك أن يضلنا ويصرفنا عن عبادة آلهتنا بسحره لولا أن صبرنا عليها وتمسكنا بها، لصرفنا عنها.
ويرد الله عليهم مهدداً متوعداً مُبْطِلا كلامهم .. من ثلاثة أوجه :
الأول : هم يقولون ذلك ..
وسوف يعلمون نتيجته حين يرون العذاب الشديد.
وسوف يعرفون أيضاً من أضل سبيلاً هم أو محمد صلى الله عليه وسلم ..؟

* * *

الثانى :

{ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً }
[الآية ٤٣]

يعنى : أنهم اتخذوا أهواءهم آلهة لهم .
ومن كان كذلك : لا فائدة منه، ولا رجاء فيه أفأنت تكون عليه وكيلاً يأخذ عنك ويسمع لك، ويقبل منك.
أبداً .. أبداً ..!!

* * *

الوجه الثالث :

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }
[الآية ٤٤]

يعنى : أم أنك تحسب وتظن أن أكثرهم أى : الكفار يسمعون لك أو يعقلون عنك ٠٠؟
إن هم إلا كالأنعام فى عدم انتفاعهم بالقرآن وآياته بل هم أضل من الأنعام سبيلاً.

* * *

وبعد أن بين المولى جهلهم وعنادهم ٠٠
قدم للدنيا كلها، وأهلها كلهم إلى يوم القيامة، بعض الدلائل على وحدانيته تعالى، وقدرته سبحانه.
حيث ٠٠
يقول فى النوع الأول من هذه الدلائل :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً }
[الآيتان ٤٥ ، ٤٦]

يعنى : ألم تر وتنظر إلى صنع ربك الدال على قدرته ووحدانيته ٠٠!!
انظر كيف مد الظل أى : بسطه ولو شاء سبحانه لجعله ساكناً دائماً.
ثم جعلنا الشمس بضوئها عليه دليلاً يعرف به.
ثم بعد هذا المد للظل قبضناه إلينا بطلوع الشمس قبضاً يسيراً هادئاً .
وهذه : آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

* * *

ويقول تعالى فى النوع الثانى من هذه الدلائل :

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً }
[الآية ٤٧]

يعنى : وهو سبحانه الذى جعل لكم الليل للوجود لباساً يستره و جعل النوم سباتاً تستريح فيه الأبدان، حيث يقطع مواصلة الأعمال.

وجعل النهار نشوراً ينتشر فيه الناس، لمعايشهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

وهذه : آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

* * *

ويقول سبحانه فى النوع الثالث من هذه الدلائل :

{ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً }
[الآيات ٤٨ – ٥٠]

يعنى : وهو سبحانه الذى أرسل الرياح بقدرته بشراً أى : بشارة بين يدى رحمته أى : قدام المطر.

وأنزلنا به من السماء أى : السحاب ماءً طهوراً.

وذلك لنحيى به أى : بماء هذا المطر بلدة ميتاً أرضاً طال عطشها، وقل نباتها.

و كذلك نسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً إنعاماً عليهم، وعطفاً بهم.

هذا ..

ولقد صرَّفناه أى ذكرنا نعمة نزول المطر بينهم أى : بين الناس، فى القرآن، وفى الكتب السابقة من قبله.

وذلك : ليذكروا فيعرفوا نعمة الله، فيؤمنوا ..

فأبى أكثر الناس إلا كفوراً بهذه النعمة، وعدم إيمان بالمنعم بها وهو الله عز وجل.

* * *

ثم يقول ربنا لحبيبه صلى الله عليه وسل فى وسط هذه الدلائل.

{ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً }
[الآيتان ٥١ ، ٥٢]

أى : ولو شئنا لخففنا عنك، وبعثنا فى كل قرية نذيراً يخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، ولكن لم

نفعل ٠٠

حيث جعلناك النذير الخاتم، وجمعنا فيك كل صفات الكمال والنجاح.

لذلك :

فلا تطع المكذبين ولا تتأثر بأكاذيبهم عليك، وعنادهم لك، وجاهدهم به أى : بالقرآن وما فيه جهاداً كبيراً عظيماً عند الله، حيث يتقبله منك، وينفع لك فيه.

* * *

ثم يقول القوى القادر فى النوع الرابع ٠٠ من هذه الدلائل.

{ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً }
[الآية ٥٣]

يعنى : وهو سبحانه الذى مرج البحرين بقدرته ، أى أرسلهما وجعلهما متجاورين هذا عذب فرات شديد العذوبة وهذا ملح أجاج شديد الملوحة.

و مع ذلك جعل بينهما بقدرته حاجزاً غير يابس بحيث لا يختلطان، ولا يبغى أحدهما على الآخر وحجراً محجوراً أى : ستراً يمنع اختلاطهما.

وهذه ٠٠ آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

* * *

وفى النوع الخامس من دلائل الوحدانية والقدرة ٠٠ يقول تعالى :

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً }
[الآية ٥٤]

يعنى : وهو سبحانه الذى خلق بقدرته من الماء أى : المنى بشراً أى : إنساناً.

فجعله أى : جعل هذا الإنسان نسباً أى : ذكوراً ينسب إليهم وصهراً يعنى إناثاً يصاهَرون، والأصهار أهل بيت المرأة.

وكان ربك قديراً أى : قادراً، حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر، هما : الذكر والأنثى.

وهذه : آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

* * *

هذا ..
وبعد أن قدم ربنا هذه الدلائل والآيات : المؤدية إلى الإذعان، والاعتراف، بتوحيده عز وجل وقدرته ..!!
عاد سبحانه إلى تقبيح تصرف الكافرين، وبيان سوء فعلهم ..
فقال :

{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً }
[الآية ٥٥]

أى : و مع وضوح هذه الدلائل وكثرتها .. فهم يعبدون من دون الله من الآلهة ما لا ينفعهم شيئاً إن عبدوه ولا يضرهم بشئ إن تركوه، وهى الأصنام.
و بهذا كان الكافر مطيعاً للشيطان، وعلى ربه له ظهيراً أى : معيناً.

* * *

يا محمد ..
لا تبال بهم، ولا تحزن لعدم إيمانهم، ولا عليك منهم ..

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً }
[الآية ٥٦]

يعنى : وما أرسلناك بآياتنا إلا مبشراً للمؤمنين بالجنة .. ونذيراً للعصاة الكافرين بالنار.
وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة.
فلا تقصير منك، بل منهم، ولا عيب عليك، بل عليهم.

* * *

وبما أنه صلى الله عليه وسلم مبشر ومنذر فقط ..
فإن الله تبارك وتعالى يوجه إليه هذه الأوامر :
الأمر الأول :

{ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً }

[الآية ٥٧]

أى : قل لهم ما أسألكم عليه يعنى : على تبليغى لكم رسالة الله، وحبى لإنقاذكم من النار، أى شئ من أجر آخذه منكم.

إلا أنه من آمن منكم، وشاء أن يتخذ إلى مرضاة ربه سبيلاً عن طريق الإيمان، والطاعة، والإنفاق فى سبيل الله : فذلك أجرى ؛ حيث إن الله يأجرنى أيضاً عليه.

* * *

الأمر الثانى :

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً * الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً }

[الآيتان ٥٨ ، ٥٩]

وفى الآية : أمر من الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم، وهو بالتالى أمر لكل مسلم ٠٠ أن يتوكل على الله.

أى : وتوكل على الله فى كل أمورك ٠٠

وقد وصف الله نفسه بهذه الأوصاف.

أنه الحى الذى لا يموت ولذلك من توكل عليه لا يضيع، بخلاف من توكل على من يموتون.

و لذلك سبح بحمده أى : نزهه عن صفات النقصان، بصفات الكمال طلباً لمزيد الإنعام.

الوصف الثانى : أنه العالم بكل شئ وكفى به سبحانه بذنوب عباده من الكفر وغيرها خبيراً عالماً بها، مجازياً عليها.

الوصف الثالث : أنه القادر على كل شئ فهو الذى خلق السموات والأرض فى مدة مقدارها بمقدار ستة أيام ثم استوى على العرش.

هذا هو الرحمن الذى أمرَ محمد – صلى الله عليه وسلم – بالتوكل عليه ٠٠

ولتزداد معرفة به وقرباً منه فاسأل به واستعلم عنه من هو به خبيراً وهو محمد صلى الله عليه وسلم، واتبعه فيما يخبرك به، ويطلبه منك.

* * *

هؤلاء الكافرون ٠٠ يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً }
[الآية ٦٠]

يعنى : وإذا قيل لهم اخضعوا، واعبدوا، واسجدوا للرحمن : استكبروا، وعاندوا ..
ثم قالوا استهزاءً، وعتوًّا، وطغياناً :
وما الرحمن هذا ..؟
أنسجد لما تأمرنا أنت يا محمد بالسجود له ..؟
وزداهم طلب السجود نفوراً منك ومن الإيمان، وبعداً عنك وعن الإيمان.

* * *

يا سبحان الله ..!!
إنهم ما عرفوا الله الذى أمروا بالسجود له حق المعرفة، وما قدروه حق قدره، وإلا لخضعوا له سبحانه :

{ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }
[الآيتان ٦١ ، ٦٢]

تبارك تعاظم الله، الواحد، القادر ..
الذى جعل بقدرته فى السماء بروجاً أى : أماكن ومسارات للكواكب والنجوم.
و الذى جعل فيها أى : السماء سراجاً وهى الشمس، مضيئة وقمراً منيراً بضوء الشمس حال اختفائها.
وهو الذى جعل بقدرته الليل والنهار خلفة أى : يخلف كل واحد منهما صاحبه، إذا ذهب واحد جاء الآخر.
وهذه آيات لمن أراد أن يذكر نعم الله، فيعتبر، فيؤمن ويهتدى أو أراد شكوراً لله على هذه النعم.

* * *

أيها الأحباب فى الله ..
بعد أن حدثتنا السورة عن الكافرين ومواقفهم، ومجادلاتهم وعنادهم للنبى صلى الله عليه وسلم ..!!
تعرض لنا لوناً آخر من عباد الرحمن.
وهم الصالحون، الذين يعملون على مرضاة ربهم، ليلاً ونهاراً .
جعلنا الله وإياكم منهم، إنه ولى ذلك والقادر عليه.
وقد وصفهم ربنا بثلاث عشرة صفة.
فلنستمع إلى قوله تعالى :

{ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً }
[الآية ٦٣]

يعنى : وعباد الرحمن الذين يحبهم الله، ويبشرهم برضوانه ٠٠
هم الموصوفون بهذه الصفات.
الصفة الأولى ٠٠ أنهم الذين يعيشون على الأرض هوناً أى : أنهم متواضعون لله، مترفقون مع خلقه، من غير ضعف ولا ذل ولا انكسار.
الصفة الثانية : و أنهم إذا خاطبهم الجاهلون أى : السفهاء بغلظة، أو بما يكرهون ٠٠ لم ينفعلوا عليهم، ولم يعاملوهم بالمثل، بل قالوا سلاماً أى : قولا فيه سلامة من الإثم والأذى.

* * *

الصفة الثالثة :

{ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً }
[الآية ٦٤]

و أنهم الذين يبيتون الليل، فى طاعة لربهم سجداً وقياماً.

* * *

الصفة الرابعة :

{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً }
[الآيتان ٦٥ ، ٦٦]

و أنهم الذين يقولون فى دعائهم ربنا اصرف وأبعد عنا عذاب جهنم ونجنا منه.
حيث إن عذابها لمن تعذبه فيها كان غراماً أى : شراً لازماً له.
يا رب ٠٠ إنها ساءت وبئست مستقراً لعصاة المؤمنين ومقاماً للكافرين، فلا تجعلها مستقراً لنا ولا مقاماً.

* * *

الصفة الخامسة :

{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً }
[الآية ٦٧]

و أنهم الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا أى : لا إسراف منهم، ولا بخل فيهم .
وكان إنفاقهم بين ذلك أى : وسطاً، لا إسراف فيه، ولا تقتير قواماً أى : عدلاً.
ويقولون : خير الأمور الوسط.

* * *

يقول تعالى عنهم :

{ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً }
[الآيتان ٦٨ ، ٦٩]

وفى هاتين الآيتين ٠٠
الصفة السادسة : وهى ٠٠
أنهم الذين لا يدعون لا يعبدون مع الله إلهاً آخر أى لا يشركون بالله شيئاً .
وكأنه تعالى يقول للكافرين : وأنتم تشركون.
الصفة السابعة :
أنهم الذين لا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق كقصاص، أو رجم، أو لردة، أو لسعى فى الأرض بالفساد ، أى : وأنتم تقتلون.
الصفة الثامنة :
أنهم الذين لا يزنون أى : وأنتم أيها الكافرون ٠٠ تزنون.
ثم يقول ربنا للذين يرتكبون هذه الجرائم الثلاث، أو واحدة منها :
ومن يفعل ذلك كله، أو شيئاً منه، يلق آثاماً أى نتائج آثامه فى الدنيا، عقوبة له ٠٠ من الهموم والغموم، والضيق النفسى ٠٠ إلخ.
ثم يضاعف له العذاب يوم القيامة ويكرر عليه ويخلد فيه أبد الآبدين، ويكون مهاناً وذليلاً.
ويستثنى ربنا بكرمه وعفوه ٠٠ من هذا العذاب، ومن مضاعفته ومن الخلود فى النار، والإهانة فيها : من تاب.
فيقول :

{ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً }
[الآيتان ٧٠ ، ٧١]

يعنى : يعذب الله ٠٠ من أشرك، أو قتل، أو زنى إلا من تاب عن ذلك، وندم، ورجع إلى الله وآمن به واتبع نبيه وعمل عملاً صالحاً يرضى الله، ويصلح البلاد، ويسعد العباد.
فأولئك يعفو الله عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، بل يبدل الله سيئاتهم حسنات.
وكان الله غفوراً لذنوب عباده رحيماً بهم يبدلها حسنات.
و هكذا من تاب عن ذنوبه، ورجع إلى الله بالطاعة، وعمل صالحاً يحقق به توبته ٠٠!!
فإنه يتوب بذلك إلى الله متاباً مقبولاً منه، مرضيا به عنه.

* * *

ثم تعود الآيات إلى كمال بيان صفات عباد الرحمن.
فيقول تعالى :

{ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً }
[الآية ٧٢]

الصفة التاسعة :
أنهم الذين لا يشهدون الزور وهو الكذب ٠٠ أى : لا يحضرون مجالس الكذب، أو لا يقومون بأداء الشهادة الزور.
الصفة العاشرة :
و أنهم الذين إذا مروا باللغو من الكلام الفاحش وأهله : مروا كراماً معرضين عنهم، مكرمين لأنفسهم بالبعد عنه.

* * *

الصفة الحادية عشر :

{ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً }

[الآية ٧٣]

يعنى : و أنهم الذين إذا ذكروا بآيات ربهم فى الكون، وفى القرآن لم يخروا عليها صماً وعمياناً بل خروا عليها .

أى : على الاهتداء بها، وهم سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية : وليسوا كغيرهم، الذين لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، ولا ينتفعون.

* * *

ثم يقول المولى عز وجل عنهم :

{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً }
[الآية ٧٤]

وفى هذه الآية ·· نجد :

الصفة الثانية عشر ·· وهى :

أنهم الذين يقولون لربهم فى دعائهم ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا أفراداً صالحين، يكونون لنا قرة أعين فى الدين، وطاعة لله، وفى الآخرة، بدخولهم معنا الجنة بإذن الله.

الصفة الثالثة عشر ·· هى :

أنهم الذين يدعون ربهم و يقولون فى دعائهم : ربنا اجعلنا للمتقين إماماً أى : بلغنا فى طاعتك الحد الذى نكون فيه قدوة المتقين من عبادك.

* * *

وفى النهاية يقول ربنا عن عباد الرحمن هؤلاء :

{ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً }
[الآيتان ٧٥ ، ٧٦]

يعنى : أولئك الموصوفون بهذه الصفات الجميلة، والذين هم عباد الرحمن ·· يكون جزاؤهم على الوجه التالى :

أولاً : جزاؤهم الجنة يجزون الغرفة وهى : أعلى ما فى الجنة بما صبروا على الطاعة، وعن المعصية، وعلى البلاء.

ثانياً : لا يسمعون فيها إلا سلاماً ويلقون فيها تحية وسلاماً من الله، ومن الملائكة، ومن أهل الجنة أيضاً.

ثالثاً : لهم الخلود فيها خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً.

وأنعم به من ثواب ..

اللهم اجعلنا من أهله يا رب العالمين.

* * *

يا محمد ..

أنذر الكافرين فى هذه السورة .. إنذاراً أخيراً ..

{ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً }

[الآية ٧٧]

أى : قل لهؤلاء الكافرين ما يعبأ ما يبالى، وما يكترث بكم ربى لو لم تعبدوه؛ لأن عبادتكم لا تنفعه، وعدم عبادتكم لا يضره.

هذا .. ولولا دعاؤكم إياه فى الشدائد : ما كشفها عنكم.

ومع أنه سبحانه : يكشفها عنكم لدعائكم إياه .. فلم تستفيدوا بذلك، ولم تطيعوه، ولم تؤمنوا به.

فقد كذبتم بالقرآن، وعاندتم الرسول فسوف يكون العذاب بسبب ذلك لزاماً أى : ملازماً لكم فى الدنيا وفى الآخرة.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي

رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء ٠٠ سورة مكية .
سوى آيات أربع فى آخرها : فهى مدنية.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ }
[الآيتان ١ ، ٢]

و {طسم} : هى من الحروف المقطعة التى بدئت بها أوائل بعض السور؛ لفتاً لأنظار المشركين، وجذباً لاهتمامهم، حتى يسمعون القرآن؛ فيؤمنون، أو تلزمهم الحجة، التى كانوا عن سماع دليلها يعرضون.
وقوله تعالى تلك أى هذه آيات الكتاب دلائل القرآن المبين الواضح ٠٠ فى وحدانية الله وقدرته.

* * *

ثم يخاطب الله رسوله قائلاً :

{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }
[الآية ٣]

أى : لعلك باخع قاتل نفسك غمًّا على أى : من أجل ألا يكونوا مؤمنين.
يعنى : لعلك حرصك على إيمانهم : يؤدى إلى أن تقتل نفسك حسرة عليهم يا محمد ٠٠ لذا ٠٠ أشفق على نفسك ، وهوّن عليها.

* * *

فنحن ٠٠

{ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ }

[الآية ٤]

يعنى : إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية مخوفة لهم، تلجؤهم إلى الإيمان، مثل أن نرفع الجبل فوق رؤسهم كما حدث لبنى إسرائيل، أو أية آية أخرى فظلت أعناقهم لها من غرابتها عليهم، وخوفهم منها خاضعين أى : ينقادون فيؤمنون.

ولكنا ٠٠ لم نفعل ذلك، حتى لا يكون إيمانهم قهرياً، ونحن لا نريد من أحد إلا أن يكون حراً فى اختياره لما يؤمن به ويعتقده.

وذلك : ليكون ثوابنا وعقابنا على اختياره الحر.

* * *

وهؤلاء ٠٠ مع قدرة الله تعالى على أن يجعلهم مؤمنين، رغماً عنهم ٠٠

إلا أنه سبحانه أنزل لهم القرآن، ويذكرهم بما فيه حالاً بعد حال ٠٠

لكن ٠٠!!

{ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ }

[الآيتان ٥ ، ٦]

أى : وما يأتيهم من ذكر من القرآن، دال على توحيده وقدرته، وهو منزل من الرحمن سبحانه محدث ينزل عليهم حالاً بعد حال، فى كل حادثة، يدعوهم إلى الإيمان ٠٠ إلا كانوا عنه معرضين لكفرهم به.

وعلى هذا فقد كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، والقرآن، وكفروا بالله تعالى.

وبالتالى فسيأتيهم أنباء عواقب ما كانوا به يستهزؤن ويعرفون أنه الحق ؛ إذا مسهم العذاب فى الدنيا وفى الآخرة.

* * *

هذا ٠٠

ومع أن الله أنزل القرآن دليلاً لهم على وحدانيته وقدرته، وكان ينزل عليهم، ويدعوهم للإيمان ٠٠ حالاً بعد حال : فقد لفت أنظارهم إلى آيات كونية كثيرة ٠٠ تدعوهم إلى الإيمان – أيضاً – حالاً بعد حال.

فمثلاً ٠٠

{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }

[الآية ٧]

يعنى : أ غفلوا، ولم يروا وينظروا إلى ما فى الأرض ويعرفوا كم أنبتنا فيها بقدرتنا من كل زوج أى : صنف من النبات كريم أى : كثير المنافع، عظيم الفوائد، للناس والأنعام ٠٠؟

* * *

إنهم لو لم يغفلوا، ونظروا إلى ما فى الأرض، وعرفوا قدرتنا : لآمنوا ٠٠!!
حيث :

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيتان ٨ ، ٩]

نعم ٠٠ إن فى ذلك الخلق لآية دالة على وحدانيته وقدرته سبحانه، وهى كافية لإيمانهم.
و لكن ٠٠ مع وجود هذه الآية ما كان أكثرهم مؤمنين بسببها.
وإن ربك سبحانه لهو العزيز الغالب فى انتقامه من الكفرة الرحيم بمن آمن به، وتاب إليه وأناب.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠
ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم ٠٠ كان كثير الهَمّ لعدم إيمان الناس، حتى كاد ذلك يهلكه :
فقد نبهه ربه تبارك وتعالى إلى التخفيف عن نفسه من ذلك ، أكثر من مرة.
كما خفف عنه سبحانه : بذكر قصص إخوانه من النبيين، وما لا قوه من أقوامهم ، فى أكثر من سورة من سور القرآن.
وقد فعل معه ذلك هنا : فى سبع قصص من هذه.
ففى الأولى ٠٠
وهى قصة موسى عليه السلام :
يقول له :

{ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ }
[الآيتان ١٠ ، ١١]

يعنى : و اذكر إذ نادى ربك يا محمد موسى ليلة سفره من مصر إلى إلى الشام، ورأى النار والشجرة.

وقال له أن ائت القوم الظالمين رسولاً لهم، ادعهم إلى الإيمان بالله، وعدم استعباد بنى إسرائيل، وذبح أولادهم.

ولكن ٠٠ من هؤلاء ٠٠ ؟

إنهم قوم فرعون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا عباد الله بالطغيان عليه.

ألا يتقون الله، فيخافون عقابه.

* * *

ماذا فعل موسى ٠٠؟

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ }

[الآيات ١٢ – ١٤]

أدرك موسى عليه السلام المهمة، وعرف عقباتها ومصاعبها، فذكرها ليساعده الله فى إزالتها؛ لتنجح مهمته، وليبلغ رسالته.

حيث :

قال يا رب ٠٠!!

إنى أخاف أن يكذبون فى أنى رسولك إليهم.

و بالتالى يضيق صدرى بتكذيبهم هذا ولا ينطلق لسانى بما كلفت به من تبليغ.

فأرسل جبريل إلى هارون أخى، ليكون نبياً، يأتى معى اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً [طه ٣١-٣٤] وننجح فى مهمتنا.

ثم قال :

ولهم على ذنب بقتل أحدهم، وقد غفرت لى ذنبى، أما هم فأخاف أن يقتلون قبل تبليغ الرسالة ٠٠ فاحمنى منهم ٠٠

* * *

فماذا قال له ربه سبحانه وتعالى ٠٠؟

أولاً : أجاب طلبه، وأرسل إلى هارون، وجعله نبياً.

ثم ٠٠ ثانيا :

{ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ }

[الآيات ١٥ – ١٧]

أى : قال لهما كلا لا تخافا فاذهبا إليه بآياتنا ورسالتنا إنا معكم مستمعون وحافظون .

فأتياه أى : فادخلا عليه .

فقولا له :

أولاً : إنا رسولا رب العالمين إليك.

ثانياً : أن أرسل معنا إلى الشام بنى إسرائيل الذين يقيمون عندك، وتستعبدهم بمصر.

وبالفعل : ذهبا إلى فرعون، ودخلا عليه، وقالا له ذلك.

* * *

ولما قالا له ذلك ٠٠!!

وجه الخطاب لموسى وحده.

{ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ }

[الآيتان ١٨ ، ١٩]

يعنى : قال فرعون لموسى متعجباً ومستنكراً ألم نربك فينا عندنا، وفى قصورنا وليداً يا موسى ولبثت أقمت فينا عندنا، تنعم بنعمنا من عمرك سنين ٠٠ !!

أنسيت ٠٠؟

و كذلك فعلت فعلتك التى فعلت وهى قتل القبطى ٠٠ !!

أنسيت ٠٠؟

وأنت الآن من الكافرين بنعمى عليك؛ حيث تجعل لك رباً غيرى، ثم تطالبنى بإخراج بنى إسرائيل من مصر ٠٠!!

أتدرون ماذا كان رد موسى عليه السلام ٠٠؟

{ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ }

[الآيات ٢٠ – ٢٢]

اعترف موسى بقتل القبطى، وأنه كان خطأ منه بلا تعمد ؛ حيث قال : وأنا من الضالين المخطئين في ذلك ففرت منكم إلى بلاد مدين لما خفتكم أن تقتلون فوهب لى ربى حكماً نبوة وعلماً وجعلنى من المرسلين وأرسلنى إليك.

وكان هذا رداً منه عليه السلام على موضوع القتل.

وأما بالنسبة لموضوع التربية لموسى.

فقد قال عليه السلام وتلك أى تربيتى عندك نعمة تمنها أى : تمن بها على ٠٠

وهى فى الحقيقة : ليست مِنَّةً منك ولا نعمة .

بل الحقيقة هى : أن ك عبَّدت استبعدت بنى إسرائيل وذبحت أبناءهم.

وهذا سبب وجودى عندك.

* * *

ولم يستطع فرعون رداً ٠٠

وانصرف إلى موضع آخر ٠٠ كان يتشاغل عن الخوض فيه، بما سبق من الكلام ٠٠

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٢٣]

أى : مَنْ رب العالمين هذا، الذى تزعمان أنه أرسلكما ٠٠؟

وهل هناك إله غيرى ٠٠؟

* * *

وأجاب موسى عليه :

{ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ }
[الآية ٢٤]

قال موسى : رب العالمين، هو رب السموات والأرض وما بينهما

أى : خالق كل ذلك.

فآمنوا به، واخضعوا له إن كنتم موقنين بأنه لا بد لهذا الكون من خالق.

* * *

وهنا ٠٠
التفت فرعون إلى وزرائه وكبار مسئوليه مستنكراً، مستهزءاً.
ثم ٠٠

{ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ }
[الآية ٢٥]

أى : ألا تسمعون هذا الهراء الذى يقوله موسى ٠٠؟

* * *

والتقط موسى الخيط من فرعون، وخاطب مَنْ حول فرعون، يحرك فيهم ضمائرهم، ويستثير فيهم فطرتهم.
حيث ٠٠

{ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ }
[الآية ٢٦]

أى : قال موسى إن الذى أرسلنى هو ربكم لا كما يزعم فرعون، وهو رب آبائكم الأولين الذين لم يدع فرعون أنه ربهم ٠٠
فمن ربهم إذاً ٠٠؟
إنه الله رب السموات والأرض وما بينهما وليس فرعون.
ألا تؤمنون به ٠٠؟

* * *

يا ألله ٠٠!!
وجد فرعون أن موسى بدأ ينفذ بدعوته إلى عقول الملأ من حوله ٠٠ فجُنَّ جنونه .
وبدأ يُوَجّه هو خطابه إليهم، ليغلق عليهم باب الإيمان بموسى.

{ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ }

[الآية ٢٧]

أى : قال لهم فرعون ٠٠
ماذا حدث لكم ٠٠؟
لم تستمعون إليه ٠٠؟
إنه مجنون، فلا تستمعوا إليه.
ولم يَأبَهْ موسى عليه السلام بما قال عنه فرعون ٠٠
بل :

{ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }
[الآية ٢٨]

أى : استمر يخاطب الملأ من حول فرعون ٠٠
حيث قال لهم : ربكم ورب آبائكم الأولين هذا، هو رب المشرق والمغرب ولم يدع ذلك فرعون ٠٠!!
فمن ربهما وخالقهما إذاً ٠٠؟
إنه الله ٠٠ رب السموات والأرض وما بينهما وليس فرعون.
ألا تؤمنون إن كنتم تعقلون ٠٠!!؟

* * *

لا ٠٠ !!
إلى هنا والأمر بدأ يفلت من يد فرعون ٠٠!!
إذا : فليغلق باب النقاش.
وليكون البدء فى استعمال أسلوب الطغاة عندما يعجزون عن مواجهة الحق.

{ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }
[الآية ٢٩]

يعنى : قال فرعون لموسى ٠٠ لابد أن تؤمن بى فقط رباً لك، ولئن اتخذت وجعلت لك إلهاً غيرى لأجعلنك سجيناً من المسجونين فى سجونى، وهى كثيرة.
منتهى التهديد، ممن يملك التنفيذ.
فهل خاف موسى ٠٠؟

* * *

كلا ٠٠

{ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٣٠]

أى: قال موسى عليه السلام لفرعون : أتجعلنيى من المسجونين، حتى ولو جئتك بشئ مبين يدل على نبوتى، وإرسالى إليك من رب العالمين، وهو فى غاية الوضوح٠٠ ؟

* * *

ودفع الفضولُ ، وحبُّ معرفة المجهول، والرغبةُ فى عجز موسى عن ذلك ٠٠فرعونَ ، إلى أن :

{ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآية ٣١]

أى : هات دليلك إن كنت صادقاً.

* * *

وعلى الفور ٠٠

{ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ }
[الآيتان ٣٢ ، ٣٣]

يعنى : فألقى موسى عليه السلام عصاه من يمينه على الأرض، أمام فرعون، والحاضرين معه .
فإذا هى فجأة : تتحول إلى ثعبان مبين حية عظيمة، ضخمة، تتحرك.
ودهش الجميع ٠٠!!
ونزع موسى يده من جيبه، وأخرجها، أمام فرعون والحاضرين معه.
فإذا هى الأخرى : بيضاء ذات شعاع منير للناظرين إليها، وإلى الحية، المندهشين.

* * *

نعم : إنها آية بينة ، بل آيتان واضحتان ..
فليؤمن فرعون ومن معه إذاً.
لا .. لقد عاند فرعون، وخشى على من حوله أن يؤمنوا.
حيث :

{ قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ }
[الآيتان ٣٤، ٣٥]

أى : قال فرعون للملأ حوله ليصرفهم عن الإيمان بموسى وربه إن هذا أى : موسى لساحر عليم.
وما فعله أمامكم : هو من السحر ..
فلا تنخدعوا به.
ثم بدأ يخوفهم من موسى على مصالحهم ومراكزهم ..
فقال : إنه يريد أن ينتزع الملك منكم، ويتسبد بالحكم دونكم، ويخرجكم من أرضكم بسحره.
ثم استشارهم على غير العادة ، قائلاً فماذا تأمرون ..؟

* * *

يقولون : أذل الحرص أعناق الرجال.
نعم .. حرصهم على مصالحهم ومراكزهم ومكاسبهم : أعماهم عن صدق موسى، وجعلهم يشاركون فرعون عناده وطغيانه.

{ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ }
[الآيتان ٣٦ ، ٣٧]

يعنى : اجعل لموسى وأخيه موعداً آخر، واجمع السحرة من أنحاء البلاد، ولتكن مبارزة بين الفريقين ..
يظهر فيها : كذب موسى أمام الناس أجمعين.

* * *

واستجاب فرعون لهذا القول.

وضرب الموعد المؤجل لموسى وأخيه.
وجمع السحرة من أنحاء البلاد.

{ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ }
[الآيات ٣٨ – ٤٠]

أى : جمع فرعون السحرة لهذا اليوم المحدد، وجمع الناس، وكان فى يوم عيد، يوم الزينة ؛ أملاً فى رؤية انتصار السحرة على هذا الساحر الجديد.

* * *

وجاء السحرة ..

{ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ }
[الآيتان ٤١ ، ٤٢]

يعنى : طلبوا ثمن انتصارهم، وأجر عملهم أولاً .
فقال فرعون لهم : لكم ما طلبتم، وزيادة .. هى : قربكم منى، وعطفى عليكم، وإنعامى إليكم، واهتمامى بكم، إذا انتصرتم على موسى، وأبطلتم سحره، وفضحتموه أمام جموع الناس.

* * *

ثم اتجه السحرة لموسى – بعد ضمان المكافأة من فرعون – وقالوا لموسى عليه السلام إما أن تلقى ما معك وإما أن نكون نحن لما معنا الملقين [الأعراف : ١١٥].

{ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ }
[الآية ٤٣]

أى : ألقوا ما تريدون من سحركم.

* * *

{ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ }
[الآية ٤٤]

فألقوا حبالهم وعصيهم على الأرض ، أمام موسى وفرعون والناس أجمعين.
ونظر إليها موسى ..
فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى [طه : ٦٦ – ٦٩].
نعم ..

{ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ }
[الآية ٤٥]

يعنى : فألقى موسى عليه السلام عصاه من يده فإذا هى تتحول إلى حية عظيمة ، صارت تلقف تبلع ما يأفكون ما يزورون به على الناس، من حبالهم وعصيهم.

* * *

وشاهد السحرة ذلك، وهم أهل العلم بهذا الفن، وهذا الخداع ..
ولكن ما حدث من عصا موسى : ليس من عملهم، ولا هو بخداع، إنما هو حقيقة، رأوها بأعينهم.
إن موسى : ليس بساحر.
إن موسى : صادق.
إن موسى : نبى.
لابد من الإيمان به، والتصديق برسالته.
وكانت المفاجأة .. أمام الجميع.

{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ }
[الآيات ٤٦–٤٨]

الله أكبر ..!!
آمن السحرة، الذين هم سلاح فرعون، فى حربه لموسى.
حقاً .. والله غالب على أمره[يوسف ٢١].

فهل ٠٠ يؤمن إذاً فرعون ٠٠؟
وهل تؤمن حاشيته ٠٠؟
وينتهى الأمر ، ويعم السلام ٠٠!!
لا ٠٠ إنه فرعون، إنه الطغيان، الذى توجه بالتهديد الشديد، والوعيد المخيف.
ولكن ٠٠ لا لموسى هذه المرة، بل لسحرته هو :

{ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }
[الآية ٤٩]

قال فرعون لهم ثلاثة أشياء :

الأول : أنتم آمنتم له أى لموسى قبل أن آذن لكم وهذا لم يحدث فى مملكتى من قبل، فكل شئ بأمرى وإذنى فقط، وإيمانكم له بدون إذنى جريمة لا أغفرها لكم.
الثانى : إنه لكبيركم الذى علمكم السحر وكنتم تلتقون به من خلفى، وبعيداً عن أجهزة رقابتى على الناس، وتخططون فى هذه اللقاءات للإفساد بالبلاد، وإضرار العباد ، وقل نظام الحكم ، وانتزاع الملك منى ٠٠
وهذه جريمة لا أغفرها لكم.
الثالث : فلسوف تعلمون ما أنزله بكم من عذاب، وأفعله فيكم من عقاب.
ثم شرح هذا التهديد المجمل تفصيلاً ؛ ليخفيهم، ويصرفهم عن إيمانهم بموسى وربه ٠٠ حيث قال :
لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، والعكس ولأصلبنكم أجمعين فى جذوع النخل ؛ لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل مثلكم.

* * *

إن الرجل جاد ٠٠
ويملك التنفيذ ٠٠
ومع ذلك ٠٠

{ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيتان ٥٠ ، ٥١]

يا سبحان الله ٠٠!!
ما أهون ألم العذاب إن كان فى سبيل الله ٠٠!!

إنّ قالوا لا ضير أى : لا ضرر علينا؛ حيث إنا لا نخلد فى الدنيا، بل إلى ربنا بعد موتنا بأى شكل منقلبون راجعون، وسيجازينا من عنده .

إنا نطمع فى كرمه وعفوه أن يغفر لنا من خطايانا السابقة، التى اقترفناها.

خاصة : وأن كنا أول المؤمنين من هذه الجموع الحاشدة، وأمام هذا الطاغوت الأكبر، ومع موسى عليه السلام ، هذا النبى الأعزل إلا من عناية الله.

وهكذا : انقلب السحر على الساحر، وانتصر الحق، وزهق الباطل.

* * *

وهكذا ٠٠

انفض الجميع، وانتهى يوم الزينة.

وبقى فرعون على كفره وعناده.

وصار موسى عليه السلام : يدعو لربه، ويبلغ للناس رسالته.

ومرت الأيام ٠٠!!

وأراد الله أن يحقق النصر الكامل لعبده موسى على فرعون الذى طغى.

يقول تعالى :

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ }
[الآية ٥٢]

يعنى : وأوحينا إلى موسى أن أسر اى سر ليلاً بعبادى بنى إسرائيل؛ لتخرج بهم من مصر، وتبعدهم عن ذل فرعون، ويكون ذلك الخروج ليلاً؛ حيث إنكم متبعون مراقبون من فرعون.

إنّ لابد من الحركة ؛ حتى يتخلصوا من الذل، ولو لم يتحركوا لن يتخلصوا.

* * *

وعلم فرعون بخروجهم، وعرف وجهتهم ٠٠

{ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ }
[الآيات ٥٣ – ٥٦]

أى : فأرسل فرعون فى المدائن والقرى ٠٠ من يجمع الناس، وجنود الاحتياط؛ ليلاحقوا موسى ومن معه، ويأتون بهم حاشرين لهم.

وقال فرعون يحمس جنوده وأتباعه : إن هؤلاء الذين فروا مع موسى لشرذمة طائفة قليلون فى العدد .

ولن يفلتوا منا .

وإنهم لنا لغائظون أى : وما كنا نهتم بم إلا أنهم كانوا يغيظوننا، وهذه الفعلة زادتنا غيظاً على غيظ منهم.

و على كل إنا لجميع حاذرون واعون لهم، وهم تحت سيطرتنا.

* * *

وتحرك فرعون بجيوشه : لملاحقة موسى ومن معه.

{ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ }

[الآيات ٥٧ – ٦١]

وبهذا التحرك، وبهذه الملاحقة من فرعون وقومه : أخرجناهم من جنات بساتين وعيون وأنهار جارية وكنوز أموال طائلة ومقام كريم يتنعمون فيه.

كذلك يكون الإخراج ..!!

وأورثناها أى : هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم فيما قضينا بنى إسرائيل أى : يرثها بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون.

المهم .. أن فرعون وجنوده على الفور : أتبعوهم يطاردونهم مشرقين جهة الشرق.

وبالفعل .. لحقوا بهم، ورأوهم، واقتربوا منهم.

* * *

{ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ }

[الآيتان ٦٢ ، ٦٣]

ووقع أصحاب موسى فى حيرة .. !!

وقالوا لموسى إنا لمدركون أى : سيلحقوننا، ويكونون من خلفنا، والبحر من أمامنا.

فماذا نفعل ..؟

قال موسى بكل هدوء وثقة فى نصر الله : كلا لن يلحقوكم، فلا تخافوهم؛ حيث إن معى ربى سيهدين طريق النجاة منهم، والنصر عليهم.

* * *

{ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }

[الآيات ٦٣ – ٦٨]

أى : فأوحينا إلى موسى فى هذه اللحظة أن اضرب بعصاك البحر وهو البحر الأحمر فانفلق الماء إلى اثنى عشر طريقاً فكان كل فرق أى جزء منه كالطود العظيم أى : الجبل الكبير الضخم العالى.

ودخل موسى وبنوا إسرائيل إلى البحر، وساروا فى هذه الطريق الجديدة.

ورآهم فرعون وجنوده.

وخدع الغرورُ الطاغيةَ ، وخُدِعَ قومه.

يقول تعالى وأزلفنا ثم الآخرين أى قربناهم من الماء.

ودخلوا فى البحر، وساروا فى طرقه.

ووصل موسى وقومه إلى الشط الآخر .

وخرج موسى وقومه من البحر.

وفرعون – ما يزال وقومه – فى البحر؛ يلاحقون موسى ومن معه.

وفجأة.

ينطبق الماء، ويموج البحر.

و هكذا أنجينا موسى ومن معه أجمعين لم يغرق منهم أحد.

ثم أغرقنا الآخرين فرعون وقومه، لم ينج منهم أحد.

* * *

يعنى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك لآية دالة على وحدانية الله وقدرته، آية توصل من يعتبر بها٠٠ إلى الإيمان والهداية .

و مع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين.

وإن ربك لهو العزيز حيث انتقم من أعدائه الرحيم حيث نجَّا أولياءه.

* * *

هذا ٠٠

وفى القصة الثانية ٠٠

وهى قصة إبراهيم عليه السلام .

يقول ربنا تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ }
[الآيتان ٦٩ ، ٧٠]

يعنى : واتل عليهم أى : واقصص على قومك، وعلى كفار الدنيا كلها نبأ أى : خبر إبراهيم عليه السلام؛ لتقتدى هذه الأمة به فى إخلاصه، وثقته فى الله.
وذلك إذ أى : وقت أن قال لأبيه وقومه ما هذا الذى تعبدون منكراً عليهم عبادتهم للأصنام ٠٠؟

* * *

وبغباء ٠٠ أجابوه :

{ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ }
[الآية ٧١]

أى : هى أصنام نعبدها ، وسنظل على عبادتها عاكفين أى : مستمرين.

* * *

واستدرجم ٠٠ ليبين خطأهم، حيث :

{ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ }
[الآيتان ٧٢ ، ٧٣]

يعنى : قال لهم ٠٠
هل هى تعقل ٠٠؟
وهل هى تسمع ٠٠؟
وهل هى تنفع أو تضر ٠٠؟

* * *

ولم يستطيعوا الإجابة على أية واحدة من هذه التساؤلات بنعم ..
لذلك ..

{ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ }
[الآية ٧٤]

أى : هى .. لا تعقل، ولا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر .
ولكن وجدنا آباءنا كذلك كما نفعل ، كانوا يفعلون : فقلدناهم.

* * *

فرد عليهم .. حيث :

{ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات ٧٥ – ٧٧]

يعنى : قال لهم أفرأيتم هذه الأصنام، التى تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون الأولون : إنها لا تساوى شيئاً.
فإنهم عدو لى فليفعلوا ما يشاؤن .. إن استطاعوا، ولن يستطيعوا، وأنا عدو لها ، أسخر منها، وأهزاؤ بها.
إلا رب العالمين فهو ربى، وأنا خاضع له، مطيع لأمره.

* * *

وتعالوا .. معى أعرفكم به.

{ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ }
[الآيات ٧٨ – ٨٢]

هذه أوصاف ثمانية، من جملة أوصاف كثيرة يتصف بها ربى ..
فهل تتصف آلهتكم بمثل ذلك، أو بشئ منه ..؟
وهو بذكره هذه الأوصاف : قد أثنى على ربه، وبين – فى ذات الوقت – عجز آلهتهم، وفساد عبادتهم لها.

* * *

ومع ذلك ٠٠ لم يدافعوا، بل لم ينطقوا ٠٠
فتوجه إلى ربه بالدعاء، بعد تقديم الثناء ٠٠
حيث قال :

{ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }
[الآيات ٨٣ – ٨٩]

هذه دعوات ست، سألها إبراهيم عليه السلام ربه.

الأولى : هب لى حكماً أى : علماً .
وقد كان.
الثانية : وألحقنى بعبادك الصالحين فى الدنيا والآخرة، وهم الأنبياء والمرسلون .
وقد كان.
الثالثة : واجعل لى لسان صدق أى : ثناءً حسناً وذرية مسلمة فى الآخرين .
وقد كان.
الرابعة : واجعلنى من ورثة جنة النعيم أى : من أهلها، الخالدين فيها.
وسيكون بإذن الله .
الخامسة : واغفر لأبى أى : اجعله مسلماً إنه كان من الضالين الكافرين.
السادسة : ولا تخزنى بالفضيحة والعذاب أمام الخلق يوم يبعثون للحساب، والجزاء يوم لا ينفع أحدا مال ولا بنون بشئ إلا من أتى الله يومئذ بقلب سليم من الكفر والنفاق.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل عن هذا اليوم :

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ }
[الآيات ٩٠ – ٩٣]

أى : وأزلفت قربت الجنة للمتقين الذين أطاعوا ربهم فى الدنيا.
وبرزت أظهرت الجحيم وهى النار للغاوين الكافرين .
وقيل لهم أى : لهؤلاء الكافرين؛ استهزاءً ٠٠!!
أين ما كنتم تعبدون من دون الله ٠٠؟
هل ينصرونكم الآن ويدفعون عنكم العذاب ٠٠؟
أو ينتصرون هم، فيدفعون عن أنفسهم ٠٠؟
ولا يجيبون ٠٠!!

* * *

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

{ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ }
[الآيتان ٩٤ ، ٩٥]

فكبكبوا فيها يعنى : فألقى بعضهم على بعض فى النار، هم أى : الأصنام والغاوون أى : الكافرون.
و ألقى معهم كذلك فيها جنود إبليس وهم كل من أطاعه من الجن والإنس أجمعون.

* * *

فإذا دخلوا فيها، وألقى بعضم فوق بعض : تخاصموا
نعم ٠٠

{ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيات ٩٦ — ١٠٢]

قالوا أى : الكفار وهم فيها يختصمون مع آلهتهم فى جهنم تالله إن كنا لقد كنا فى ضلال مبين واضح ٠٠!!
و الحقيقة : أنه ما أضلنا هذا الضلال إلا المجرمون أى الشياطين، والكبار الذين اقتدينا بهم فى هذا الضلال.
ثم قالوا بكل حسرة : واليوم ٠٠
فما لنا من شافعين يشفعون لنا عند ربنا فى تخفيف العذاب عنا .

ولا لنا أيضاً : من صديق حميم كما نرى للمؤمنين كثرة الأصدقاء.

آه ..!!

فلو أن لنا كرة عودة إلى الدنيا فنؤمن، ونعمل صالحاً فنكون من المؤمنين الذين لا يعذبون، بل يدخلون الجنة وينعمون ..!!

* * *

حقاً ..

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤]

يعنى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك لآية دالة على وحدانية الله وقدرته .

آية توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية ..

و مع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين.

وإن ربك لهو العزيز الذى ينتقم من أعدائه الرحيم الذى ينجى أولياءه.

* * *

هذا ..

وفى القصة الثالثة ..

وهى قصة نوح عليه السلام ..

يقول العزيز الرحيم :

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }
[الآيات ١٠٥ – ١١٠]

يعنى : كذبت قوم نوح نوحاً ..

ولأنه واحد من المرسلين : فكأنهم كذبوا جميع المرسلين.

وذلك إذ أى : وقت أن قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون الله، فتؤمنون به.

يا قوم إنى لكم رسول من الله أمين على تبليغكم ما أرسلت به إليكم فاتقوا غضب الله بإيمانكم وأطيعون فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

و اعلموا جيداً أنى ما أسألكم عليه وهو تبليغى لكم من أجر آخذه منكم إن أجرى وثوابى إلا على رب العالمين وليس عليكم.

فاتقوا غضب الله وآمنوا به وأطيعون فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

* * *

بلغ نوح قومه رسالته، ودعاهم إلى الإيمان بالله .

وقال لهم : إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون.

فهل آمنوا، واتبعوه ٠٠؟

كلا ٠٠ بل :

{ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ }

[الآية ١١١]

أى : قالوا له ٠٠ أنؤمن لك ونتبعك و قد اتبعك الأرذلون رعاع الناس، وفقراؤهم، طمعاً فى العزة والمال ؟٠

* * *

{ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ }

[الآيات ١١٢ – ١١٥]

يعنى : قال لهم مجيباً عليهم وما علمى بما كانوا يعملون ويهدفون بإيمانهم، ويخفون فى صدورهم، وليس لى منهم إلا ظاهر أمرهم، وأما ما يخفون من أغراض إن حسابهم فيه إلا على ربى الذى يعلم السر وأخفى لو تشعرون.

ولن أطردهم من عندى كما تريدون ٠٠ فهم مؤمنون وما أنا أبداً بطارد المؤمنين.

كما أن مهمتى ليست الحكم على الناس، ولا التحكم فيهم، وما أنا إلا نذير مبعوث لإنذار المكلفين جميعاً، وتخويفهم من غضب الله وعذابه مبين واضح فى مهمتى، وتبلغ رسالتى.

* * *

الكلام واضح، وقوى ٠٠

ولا رد عندهم، ولا تعقيب لهم عليه.
ولذلك فالمناسب : إسكاته وتخويفه ..

{ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ }
[الآية ١١٦]

أى : قالوا له لئن لم تنته وتسكت عما تقول وتدعونا إليه وتجمع به حولك أراذل الناس : لتكونن من المرجومين الذين نرجمهم بالحجارة، ونعذبهم حتى الموت.
وكانوا جادين ..
ولا غرابة فى ذلك : فهى عادة الطغاة الظالمين، مع الدعاة الصالحين.

* * *

وبعد أن طالت دعوته لهم.
واشتد تهديدهم له، مع إصرارهم على كفرهم ..
لجأ إلى ربه ..

{ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيتان ١١٧ ، ١١٨]

دعا نوح عليه السلام ربه ..
حيث قال رب إن قومى كذبون فيما بلغتهم به، ودعوتهم إليه وأصروا واستكبروا استكباراً [نوح : ٧].
لذلك فافتح أى : فاحكم بينى وبينهم فتحاً من عندك.
و إذا كان حكمك عليهم بالعذاب لهم على كفرهم هذا نجنى منه أنا ومن معى من المؤمنين بك، الذين اتبعون، وأطاعوا أمرى.

* * *

واستجاب الله دعاءه ..
يقول تعالى :

{ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ }

[الآيتان ١١٩ ، ١٢٠]

أى : فأنجيناه ومن آمن معهمن الهلاك فى الفلك المشحون المملوء بالأمتعة وغيرها ٠٠
ثم أغرقنا بالطوفان بعد أى بعد إنجائه الباقين الكافرين من قومه.

* * *

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيتان ١٢١ ، ١٢٢]

يعنى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك من خبر نوح عليه السلام لآية دالة على وحدانيتنا، وقدرتنا.
آية ٠٠ توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية .
و مع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين.
و إن ربك لهو العزيز الذى ينقم من أعدائه الرحيم الذى ينجى أولياءه.

* * *

هذا ٠٠
وفى القصة الرابعة ٠٠
وهى قصة عاد قوم هود عليه السلام.
يقول سبحانه وتعالى :

{ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات ١٢٣ – ١٢٧]

يعنى : كذبت عاد وهم قوم هود ، هوداً عليه السلام .
ولأنه واحد من المرسلين فكأنهم كذبوا – كذلك – جميع المرسلين.
قال لهم هود : نفس ما قاله نوح عليه السلام.

* * *

ثم زاد عليها الأمور الخاصة بهم ٠٠
حيث قال لهم :

{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ }
[الآيات ١٢٨ – ١٣٠]

هذه ثلاثة أشياء : كانوا يفعلونها ، وذكرهم بها ٠٠

الأول : أتبنون بكل ريع مكان مرتفع آية بناءً ضخماً فخماً تعبثون فيه وتلهون.
وهذا لا يليق بكم، ولا يقبل منكم.
الثانى : وتتخذون أى تبنون لأنفسكم مصانع قصوراً مشيدة لعلكم تخلدون فيها، وتقيمون أبد الآبدين.
وهذا لن يكون ؛ حيث إنه كل نفس ذائقة الموت[آل عمران ١٨٥].
الثالث : وإذا بطشتم عاقبتم أحداً بطشتم به جبارين.
إذّ فيكم قسوة وغلظة وظلم للآخرين.

* * *

ولما ذكرهم بهذه الأشياء.
وعظمهم مرة أخرى، وزجرهم عن حب الدنيا القاتل، ورغبهم فى الآخرة ونعيمها.
إذّ قال لهم :

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }
[الآية ١٣١]

أى : فاتقوا غضب الله وآمنوا به وأطيعون فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

* * *

ثم وصل هود عليه السلام هذا الوعظ لهم، بتذكيرهم بنعم الله عليهم ؛ ليكون وعظه أقرب لقبولهم .
فقال :

{ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }

[الآيات ١٣٢ – ١٣٤]

والمعنى : واتقوا غضب الله الذى أمدكم بما تعلمون من النعم الكثيرة.
ومنها ‥ أنه سبحانه أمدكم بأنعام تتمتعون بها وبنين تساعدكم فى رعايتها وحفظها.
و كذلك جنات بساتين وعيون ينابيع وأنهار.

* * *

فهل اتعظوا ‥؟
كلا ‥
وكذلك : خوفهم بقوله :

{ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
[الآية ١٣٥]

يعنى : إنى شفوق لكم حريص على مصالحكم أخاف عليكم إذا أصررتم على العناد والكفر عذاب يوم عظيم فى الدنيا والآخرة.

* * *

وهنا ‥ نطقوا وتكلموا، مستهزئين :

{ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ }
[الآيات ١٣٦ – ١٣٨]

أى : قالوا لهود عليه السلام سواء علينا يستوى عندنا وعظت لنا أم لم تكن من الواعظين فلن نقبل كلامك، ولن نرجع عما نحن فيه.
إن هذا أى ما هذا الذى نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين أى : دينهم من الآباء والأجداد، ونحن راضون به، باقون عليه.
و كذلك ما نحن بمعذبين لا فى الدينا ولا فى الآخرة، كما تقول وتهددنا به؛ حيث لا بعث ولا حساب.

* * *

وهذا هو قمة التكذيب والعناد .. الذى يستحق العقاب.
لذلك يقول ربنا :

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ١٣٩]

يعنى : فكذبوه فى رسالته، وعاندوه فى دعوته.
فأهلكناهم فى الدنيا بالريح العقيم، كما يقول تعالى وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم [الذاريات : ٤١ ، ٤٢].
وهكذا .. انتهى أمرهم.

* * *

يقول تعالى :

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيتان ١٣٩ ، ١٤٠]

يعنى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك من أمر عاد قوم هود لآية دالة على وحدانيتنا وقدرتنا .
آية .. توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية .
و مع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين.
وإن ربك لهو العزيز الذى ينتقم من أعدائه الرحيم الذى ينجى أولياءه.

* * *

هذا ..
وفى القصة الخامسة ..
وهى قصة ثمود، قوم صالح عليه السلام.
يقول تعالى :

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات ١٤١ – ١٤٥]

يعنى كذبت ثمود وهم قوم صالح – صالحاً عليه السلام .
ولأنه واحد من المرسلين : فكأنهم كذبوا – كذلك – جميع المرسلين.
فقال لهم صالح عليه السلام : نفس ما قاله نوح وهود عليهما السلام.

* * *

ثم زاد عليه الأمور التالية ٠٠ الخاصة بقومه :
قال لهم :

{ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ }
[الآيات ١٤٦ – ١٤٩]

هذه أمور ٠٠ كانوا يفعلونها، وذكرهم بها.
الأول : هل تظنون أنكم ستتركون هكذا فى دياركم آمنين من الموت، وأنه لا دار للجزاء أتتركون فيما ها هنا فى الدنيا آمنين.
ثم فسر الذى هم فيه، والذى يخدعهم ويجعلهم آمنين، حيث قال فى جنات وعيون * وزروع كثيرة ونخل طلعها ثمرها هضيم لطيف جميل.
الثانى : طلب الاستعلاء فى الدنيا وتنحتون من الجبال بيوتاً ضخمة رائعة، وأنتم بها فارهين مترفين، عابثين.

* * *

ولما ذكرهم بهذه الأشياء ٠٠ !!
وعظهم مرة أخرى، وزجرهم عن حب الدنيا القاتل، ورغبهم فى الآخرة ونعيمها ٠٠ قائلاً لهم.

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }
[الآية ١٥٠]

أى : فاتقوا غضب الله وآمنوا به وأطيعون فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

* * *

فهل اتعظوا ..؟

كلا ..

ولذلك : نهاهم صراحة، عما هم فيه .. بقوله :

{ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ }
[الآيتان ١٥١ ، ١٥٢]

يعنى : اتقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يكثرون من ملذات الدنيا وشهواتها الذين يفسدون فى الأرض بعدم إيمانهم، وعدم طاعتهم لله، وعدم إسعادهم للعباد ولا يصلحون فيها.

* * *

وهنا : نطقوا ، وتكلموا، مستهزئين :

{ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآيتان ١٥٣ ، ١٥٤]

أى : قالوا له أمرين ..

الأول : إنما أنت من المسحرين وهم الذين سحروا كثيراً، حتى غلب السحر على عقولهم، فأصبحوا لا يدرون ما يقولون.

الثانى : ما أنت إلا بشر مثلنا فكيف تكون نبياً ..؟

ولو أنك تريد أن نصدقك فأت بآية تدلنا على صدقك إن كنت من الصادقين فى دعوى الرسالة.

* * *

وهنا سأل صالح ربه : أن يأتى لهم بآية.

وأجابه ربه.

وكانت الناقة.

{ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
[الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦]

يعنى : قال لهم هذه ناقة وهى الآية التى طلبتموها دلالة على صدقى لكم.
وهذه الناقة لها شرب أى نصيب من الماء تشربه فى يوم ولكم شرب فى يوم معلوم لكم ولها، دون تزاحم على الماء بينكما.
وهى : تعطيكم فى يومها الذى تشرب فيه الماء ، لبناً يكفيكم.
و لذلك لا تمسوها بسوء من ضرب أو ذبح، وإلا فيأخذكم لو آذيتموها عذاب يوم عظيم أى : عذاباً شديداً.

* * *

وأقامت الناقة بينهم، وصاروا ينتفعون بها.
ولما طال عليهم الأمد، وحضر أشقاهم إليهم، وعبث بهم الشيطان ٠٠ أجمعوا أمرهم على قتلها وذبحها.

{ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآيتان ١٥٧ ، ١٥٨]

ثلاثة أشياء ٠٠
فعقروها ٠٠ يعنى ذبحها بعضهم، ولكن برضى الجميع.
فأصبحوا خائفين من العذاب نادمين على ذبحها، ولكن بلا إيمان، ولا توبة.
فأخذهم العذاب وهى الصاعقة، التى أخذتهم وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين [الذاريات : ٤٤ ، ٤٥].
وهكذا ٠٠ انتهى أمرهم.

* * *

يقول تعالى :

{ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيتان ١٥٨ ، ١٥٩]

يعنى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك، من أمر قوم صالح لآية دالة على وحدنيتنا وقدرتنا.
آية ‥ توصل من يعتبر بها ‥ إلى الإيمان والهداية .
و مع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين.
وإن ربك لهو العزيز الذى ينتقم من أعدائه الرحيم الذى ينجى أولياءه.

* * *

هذا ‥
وفى القصة السادسة ‥
وهى قصة لوط عليه السلام .
يقول سبحانه :

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات ١٦٠ – ١٦٤]

وهو نفس الذى كان مع نوح وهود وصالح، عليهم السلام.

* * *

ولكن زاد عليه ‥ هذا الخاص بهم.
حيث قال لهم :

{ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ }
[الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦]

يعنى: أتأتون الذكران وتطأونهم دون الإناث، وأنتم وحدكم تفعلون هذه الفاحشة، دون غيركم من العالمين.
وتذرون تتركون – فى ذات الوقت – وطء ما خلق لكم ربكم من أزواجكم فى الحلال.
هذه : فاحشة كبرى .
لا ‥
بل أنتم قوم عادون تعديتم حدود الفواحش، وتجرأتم على ما أحل لكم ربكم وما حرم عليكم.

* * *

فهل اتعظوا ٠٠؟
كلا ٠٠
بل نطقوا، وتكلموا مهددين.

{ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ }
[الآية ١٦٧]

أى : قالوا محذرين يا لوط لئن لم تنته عن كلامك هذا، وتسكت لتكونن من المخرجين من ديارنا، طرداً لك.

* * *

وأجابهم قائلاً :

{ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ }
[الآية ١٦٨]

يعنى : حتى ولو أسكتمونى، أو أخرجتمونى، فــ إنى لعملكم الفاحش هذا من القالين المبغضين الكارهين.

* * *

ثم اتجه إلى ربه عز وجل بقوله :

{ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٦٩]

أى : يا رب نجنى وأهلى من عقاب ما يعملون فى الدنيا، وفى الآخرة.

* * *

وأجاب الله عز وجل دعاءه سريعاً ٠٠
حيث قال تعالى :

{ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ }
[الآيات ١٧٠ – ١٧٣]

يعنى : فنجيناه وأهله أجمعين من الهلاك والدمار إلا عجوزاً وهى امرأته، كانت فى الغابرين الهالكين ؛ حيث كانت راضية بهذه المعصية، غير منكرة لها.
ثم دمرنا الآخرين تدميراً كاملاً شاملاً.
وأمطرنا عليهم كذلك مطراً من حجارة، زيادة على جعل عالى بلادهم سافلها.
فساء مطر المنذرين هذا المطر.

* * *

يقول تعالى :

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيتان ١٧٤ ، ١٧٥]

وهكذا ٠٠ انتهى أمرهم.

* * *

هذا ٠٠
وفى القصة السابعة ٠٠
وهى قصة شعيب عليه السلام.
يقول تعالى :

{ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }

[الآيات ١٧٦ – ١٨٠]

وهو نفس الذى كان من : نوح، وهود، وصالح، ولوط، عليهم السلام.

* * *

ولكنه زاد عليه ‥ ما هو خاص بهم.
حيث قال :

{ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ }
[الآيات ١٨١ – ١٨٤]

يعنى : طلب منهم هذه الأمور.

أولاً : أوفوا الكيل وأتموه لصاحبه ولا تكونوا من المخسرين المغتصبين حق الغير وزنوا بالقسطاس بالميزان المستقيم العادل.
ثانياً : ولا تبخسوا بصفة عامة الناس أشياءهم المادية والمعنوية.
ثالثاً : ولا تعثوا فى الأرض وتبالغوا فى إفسادها، حال كونكم مفسدين بأية صورة من صور الفساد.
رابعاً : واتقوا الله الذى خلقكم وخلق كذلك الجبلة الأولين أى : الخليقة السابقين عليكم.

* * *

فهل اتعظوا ‥؟
كلا ‥
بل نطقوا، مكذبين، مهددين، شأن الطغاة الظالمين :

{ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآيات ١٨٥ – ١٨٧]

أى : قالوا له عدة أمور ‥

الأمر الأول : إنما أنت من المسحرين وهم الذين سحروا كثيراً، حتى غلب السحر على عقولهم، فأصبحوا لا يدرون ما يقولون.

الأمر الثانى : وما أنت إلا بشر مثلنا فكيف تكون نبياً ٠٠؟

الأمر الثالث : وإن نظنك لمن الكاذبين فيما تدعيه؛ لِتَتَرأس علينا.

الأمر الرابع : أنت تهدد بالعذاب فأسقط علينا كسفاً قطعاً من السماء تهلكنا بها إن كنت من الصادقين فى أنك نبى مرسل ٠٠!!

* * *

ولما سمع شعيب منهم ذلك : فوض الأمر لله تعالى ٠٠

{ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ }

[الآية ١٨٨]

أى : إن ربى عالم بعنادكم، ويجازيكم عليه، وينصرنى عليكم .

وواضح أنه لجوء منه إلى الله، وتسليم الأمر إليه.

* * *

يقول تعالى :

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }

[الآية ١٨٩]

يعنى : فكذبوه فى رسالته، وعاندوه فى دعوته.

فأخذهم عذاب يوم الظلة فأهلكهم إنه كان عذاب يوم عظيم.

حيث يروى أنه : حبس عنهم الريح سبعاً، وسلط عليهم الرمل، فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم ظل ولا ماء، فاضطروا إلى أن خرجوا من بيوتهم، فأظلتهم سحابة، وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها؛ فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا.

وهكذا ٠٠ انتهى أمرهم.

* * *

يقول سبحانه :

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيتان ١٩٠ ، ١٩١]

بهذه الآيات الكريمة ٠٠ انتهت قصة شعيب عليه السلام .
بل انتهت القصص السبع، التى قصها الله على حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليثبته بها، ويواسيه على ما يلاقيه من قومه من خلالها، ويؤازر المؤمنين فى مواقفهم القوية فى مواجهة الباطل وأعوانه بدروسها.

* * *

وبعد هذا القصص ٠٠
يكون حديث السورة : عن القرآن الكريم، والتحذير من الإعراض عنه، وعن الرسول صلى الله عليه وسلم، والتحذير من العصيان له.
يقول عز من قائل :

{ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ }
[الآيات ١٩٢ — ١٩٥]

وإنه أى القرآن، الذى وردت فيه هذه القصص لتنزيل رب العالمين وليس من تأليف محمد.
بل نزل به إليه من عند الله تعالى الروح الأمين وهو جبريل عليه السلام.
وذلك النزول به : كان على قلبك يا محمد لتكون بما فيه من المنذرين المخوفين من عذاب الله.
وقد نزل بلسان عربى مبين أى : فصيح، كامل، شامل؛ لتنفع به الحجة، وينقطع به العذر.

* * *

أيضاً ٠٠

{ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ]
[الآية ١٩٦]

وإنه أى : صفة القرآن، وأنه تنزيل من رب العالمين، أو هذا القصص لفى أى : موجود فى زبر الأولين كتب الأنبياء السابقين.

وهذا : دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ حيث لم يسبق أن تعلم، أو عرف ما فى هذه الكتب السابقة.

* * *

هذا ٠٠

ولأن صفة القرآن كانت فى كتب السابقين : فقد عَلِمَها علماء بنى إسرائيل ٠٠

وفى هذا دلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم.

لذلك يقول تعالى موبخاً للكفار :

{ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ }

[الآية ١٩٧]

يعنى : أو لم يكن لهم آية على صدق نبوته أن يعلمه بصفته علماء بنى إسرائيل فيؤمنوا به، ويصدقوا محمداً فى رسالته ٠٠؟

* * *

يا سبحان الله ٠٠

نزل القرآن عليهم بلسان عربى فصيح، واضح، معجز ٠٠!!

وظهر لهم أن علماء بنى إسرائي كانوا يعلمون وصفه قبل نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم، كورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام، وغيرهم من أهل الكتاب، حتى يومنا هذا ٠٠!!

ومع ذلك : لم يؤمن هؤلاء الكفار.

{ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ }

[الآيتان ١٩٨ ، ١٩٩]

يعنى : و حتى لو نزلناه على بعض الأعجمين الذين لا يعرفون العربية فقرأه هذا البعض عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم لما يقول.

والمعنى : أنهم فهموا القرآن، أو لم يفهموه ٠٠ ما هم بمؤمنين.

* * *

{ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ }
[الآيات ٢٠٠ – ٢٠٣]

أى : كذلك العناد سلكناه أى : الكفر، وأدخلناه فى قلوب المجرمين الكافرين من أعدائك الذين لا يؤمنون به ويصدقون حتى يروا بأعينهم، ويشهدوا العذاب الأليم ينزل بهم.
فيقولوا ساعتها هل نحن منظرون أى ٠٠ نُعْطَى مهلة ؛ لنعمل صالحاً ٠٠؟

* * *

عجيب أمر هؤلاء الكفار، الذين يطلبون المهلة الآن ٠٠!!
إنهم كانوا يستعجلون العذاب فى الدنيا ٠٠
لذلك ٠٠ يقول المولى :

{ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ }
[الآيات ٢٠٤ – ٢٠٩]

يعنى : أفبعذابنا حين يرون العذاب الأليم يستعجلون ٠٠؟
أبداً ٠٠ ولكنهم يطلبون المهلة، ويقولون هل نحن منظرون٠٠!!
أفرأيت أخبرنى إن أجبناهم إلى ما يطلبون من المهلة، ومتعناهم سنين٠٠!!
ثم جاءهم بعدها ما كانوا يوعدون به من العذاب .
ما أغنى عنهم وما منع هذا العذاب ما كانوا يمتعون به، من بريق الدنيا، ومتاعها، وزخرفها.
و هكذا ٠٠
ما أهلكنا بالعذاب من قرية كافر أهلها إلا لها منذرون أرسلناهم؛ يخوفونهم من غضب الله وعذابه.
وذلك ذكرى وموعظة لها وما كنا ظالمين فى إهلاكهم بعد إنذارهم.

* * *

هذا ٠٠

ولما قال بعض الكفار : إن هذا القرآن من جنس ما تتنزّل به الشياطين ٠٠!!
رد الله عليهم بقوله :

{ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ }
[الآيات ٢١٠ – ٢١٢]

أى : إن القرآن من عند الله.
وما تنزلت به الشياطين كما يدعى الكفار.
وذلك : لثلاثة أسباب.
السبب الأول : أنه ما ينبغى لهم وما يصح منهم، لأنه هداية، وهم أهل فساد ولا يحبون الهداية.
السبب الثانى : أنهم ما يستطيعون ذلك.
حيث إنهم ٠٠
وهذا هو السبب الثانى : إنهم عن السمع لمعزولون بقدرة الله.

* * *

وما دام قد ثبت بهذا الشكل : أن القرآن من عند الله، وليس مما تنزلت به الشياطين.

{ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيات ٢١٣ – ٢١٥]

وفى هذه الآيات ٠٠ يأمر ربنا محمداً صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء.

أولها : فلا تدع مع الله إلهاً آخر ومن المحال أن يفعل محمد ذلك ٠٠!!
ولكنه: دعوة لزيادة الإخلاص، وتربية لغيره عليه السلام ٠٠
وإلا فتكون وكل من يفعل ذلك من المعذبين.
ثانيها : وأنذر عشيرتك الأقربين وكان ذلك فى بدء الدعوة.
ثالثها : واخفض جناحك وألِنْ جانبك، وأحسن معاملتك لمن اتبعك من المؤمنين .
وأما من كفر : فالأدب معه يختلف باختلاف الأحوال.

* * *

ثم يقول له ربه ..

{ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * }
[الآيات ٢١٦ – ٢٢٠]

أى: فإن عصوك أى : عشيرتك وأهلك الأقربون.
فقل لهم إنى برئ مما تعملون من عبادة غير الله.
وتوكل فى جيمع أمورك على .
العزيز الذى يقهر أعداءك بعزته وسلطانه الرحيم.
الذى ينصرك عليهم برحمته .
الذى يراك فى جوف الليل حين تقوم للتهجير، و يرى تقلبك فى الساجدين بالصلاة.
إنه سبحانه هو السميع لما تقول ويقولون العليم بما تفعل ويفعلون، الذى يجازيك خيراً، ويجازى أعداءك شراً.

* * *

يا محمد ..
إنهم يقولون .. تنزل الشياطين عليك بالقرآن ..؟
إسمع، ويسمعون ..

{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ }
[الآيات ٢٢١ – ٢٢٣]

هل أنبؤكم يعنى : هل أخبركم على من تنزل الشياطين حقيقة..؟
إنها تنزل على كل أفاك كذاب أثيم فاجر، مثل مسيلمة وسلمان رشدى، وغيرهما.
حيث إنهم : أى الشياطين يلقون السمع رغبة منهم فى معرفة أخبار السماء وأكثرهم كاذبون فما يدعونه.

* * *

إذن : ليس هذا القرآن مما تنزلت به الشياطين، كما يدعون.

* * *

ولا من باب الشعر كذلك، ولا من قول الشعراء.
يقول سبحانه :

{ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ }
[الآيات ٢٢٤ – ٢٢٦]

محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ يتبعه المهتدون و أما الشعراء يتبعهم الغاوون الضالون.
بدليل :
أنهم فى كل واد من أودية الكلام وأنواعه، حقاً كان أو باطلاً يهيمون يخوضون، دون تفرقة بين النافع والضار، والصواب والخطأ.
وأنهم كذلك يقولون ما لا يفعلون ومحمد صلى الله عليه وسلم بشهادة أعدائه يفعل ما يقول.

* * *

ولكن ليس كل الشعراء كذلك :
يقول تعالى، ويستثنى منهم :

{ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} [الآية ٢٢٧]

إذا وصف الشاعر بهذه الصفات الأربع ٠٠ فليس هو ممن يتبعهم الغاون.

الوصف الأول : الإيمان إلا الذين آمنوا.
الوصف الثانى : والعمل الصالح وعملوا الصالحات.
الوصف الثالث : ذكر الله وذكروا الله كثيراً.
الوصف الرابع : الانتصار ممن ظلمهم وانتصروا من بعد ما ظلموا.

* * *

و بعد ٠٠
سيعلم الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن الاهتداء بالقرآن، وبما فى هذه السورة من آيات : أى منقلب سيّئ ينقلبون إليه.
ألّا فلينتبه العقلاء ٠٠!!

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت : سورة مكية .
تبدأ بقوله تعالى :

{ الـم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ }
[الآيتان ١ ، ٢]

{ألم} هى من الحروف، التى بدأت بها بعض السور للفت أنظار المشركين، وجذب اهتمامهم لسماع ما بعدها من القرآن .. حال إعراضهم عن ذلك.

أحسب أظن الناس أن يقولوا آمنا يعنى : يؤمنون، ويتمسكون بدينهم، ويعلنون مبادئه وهم لا يفتنون لا يتعرضون للفتن، والمشقات، والأذى، والابتلاءات ..؟

أبداً لن يتركوا دون ابتلاءات.

* * *

وهذا : ليس خاصاً بهم ..
بل هى سنتنا فى أصحاب المبادئ والدعوات.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }
[الآية ٣]

يعنى : ولقد فتنا اختبرنا بالابتلاءات، وأنواع الفتن الذين من قبلهم من مؤمنى الأمم السابقة، فما كان يصرفهم ذلك عن دينهم.

ونحن نختبر بهذه الفتن كذلك مؤمنى هذه الأمة؛ ليتميز الصادق منهم من الكاذب .

فليعلمن الله الذين صدقوا منهم فى إيمانهم وليعلمن الكاذبين المكذبين منهم بعد وقوع ذلك، كما علمه سبحانه قبل وقوعه.

* * *

وبعد أن بين ربنا أن فى الناس من هو صادق فى إيمانه، ومن هو كاذب فيه: وضح أن لكل منهما جزاءه. حيث يقول :

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآيتان ٤ ، ٥]

يعنى : أم حسب الذين يعملون السيئات أى : الكفر، أو المعاصى أن يسبقونا ويفلتوا من عقابنا لهم ..؟
إن ظنوا ذلك : فقد ساء ما يحكمون لأنفسهم، ويظنون بها.
إذ .. أننا لن نتركهم ، وسنعاقبهم .
وأما .. من كان يرجو الثواب، ويخاف العقاب، عند لقاء الله بالموت، وما بعده : فإن أجل الله المحدد للثواب والعقاب لآت لا محالة ..
وسنجازيه على رجائه هذا، واستعداده بالإيمان والعمل الصالح : خيراً.
و الله هو السميع لكل ما يقال من خير أو شر العليم بكل ما يفعل من خير أو شر.

* * *

هذا ..
ولأن الصبر على الفتن والابتلاءات، نوع جهاد :
فإن الله عز وجل يقول :

{ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٦]

أى : ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات، والبعد عن المعاصى، وجاهد الشيطان، وجاهد الأعداء فإنما يجاهد لنفسه لأن منفعة ذلك تعود إليه.
حيث إن الله لغنى عن العالمين وعن جهادهم، وعن طاعاتهم.

* * *

ثم يخبر ربنا – تبارك وتعالى – أنه مع غناه عن خلقه : فهو يجازيهم على الخير أفضل الجزاء.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٧]

يعنى : والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات التى ترضى الله، وتصلح البلاد، وتسعد العباد : لنكفرن نستر ونصفح عنهم ونسقط سيئاتهم فلا نعاقبهم عليها، ولنجزينهم جزاءً أحسن من العمل الذى كانوا يعملون.

ولما بين ربنا سبحانه أنه يجزى على العمل الصالح : ذكر من الأعمال الصالحة هنا .. بر الوالدين.
فقال :

{ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية ٨]

ووصينا يعنى : وأمرنا الإنسان بوالديه الذين هما سبب وجوده، ولهما عليه غاية الإحسان حسناً لهما، وبهما، فى القول وفى الفعل.
و لكن إن جاهدك لتشرك بى فى الألوهية ما ليس لك به علم أى : ما لا يصلح أن يكون إلهاً- وكل ما سوى الله : لا يصح أن يكون – فلا تطعهما لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.
إلى مرجعكم جميعاً فى يوم القيامة فأنبؤكم وأجازيكم بما كنتم تعملون من الإحسان إليهما وبرهما، أو عدم ذلك، ومخالفتهما فى الإشراك بالله، وعدم طاعتهما.
لذلك : اثبتوا على الإحسان إليهما، مع عدم الطاعة لهما فى المعصية.

* * *

ولهذا يقول ربنا :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ }
[الآية ٩]

* * *

ولما بين تعالى أن الناس بالنسبة للإيمان : قسمان .. مؤمن وكافر .

حيث قال فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين.
بدأ يذكر قسماً ثالثاً منهم ... وهو المذبذب فى إيمانه ..
يقول تعالى :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ }
[الاية ١٠]

أى : ومن الناس فريق ثالث بالنسبة للإيمان ..
وهم من يقول بلسانه آمنا بالله ولما يدخل الإيمان قلبه.
بدليل قول الحق فإذا أوذى فى الله بسبب الدين، انتساباً إليه، أو عملاً والتزاماً به، أو نشراً له ودفاعاً عنه : اهتز إيمانه وجعل فتنة الناس ما يناله من أذاهم كعذاب الله فارتد عن الإسلام.
هذا فى حال البلاء.
وأما فى حال الرخاء : فيقول سبحانه عنه ولئن جاء نصر من ربك للمؤمنين على أعدائهم ليقولن أشركونا فيما نالكم من خير إنا كنا معكم ومتابعين لكم.
وهذا منهم عين الكذب والخداع.
والله لا يغيب عنه ذلك أوَ ليس الله أعلم بما فى صدور العالمين جميعاً ..؟
بلى ..!!
لذلك : هو يعلم ما فى صدورهم.

* * *

وبالتالى : فهو عز وجل يعد المؤمنين بالخير، ويوعد المنافقين ويهددهم بالسوء ..
إذّ يقول :

{ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ }
[الاية ١١]

يعنى : وسيجازى كل واحد من الفريقين بما يناسبه ويستحقه.

* * *

وبعد أن بين الله هذه الفرق الثلاث : يوضح أن الكفار لا يكفون عن دعوة المؤمنين إلى مذاهبهم وباطلهم ، بشتى الوسائل.

حيث يقول جل وعلا :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }
[الآيتان ١٢ ، ١٣]

المعنى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا ليصرفوهم عن دينهم، وعن استقامتهم اتبعوا سبيلنا طريقنا ومنهجنا، فى السلوك، وفى التشريع، وفى الحكم، وفى ...، وفى كل شئ نحن عليه ؛ لتتقدموا .

واتركوا ما أنتم عليه، مما هو سبب فقركم، أو تخلفكم .. إلخ ولنحمل خطاياكم وآثارها وأضرارها عنكم إن كان فيما ندعوكم إليه من أخطاء.

ويكذبهم الله تعالى، ويرد عليهم .. فى تنبيه المؤمنين، وتحذير لهم من الانخداع بهذه الدعوات الهدامة.

إذّ يقول سبحانه :

أولاً : وما هم بحاملين كما يقولون من خطاياهم إذا تركوا دين الله، أو هديه وشرعه، واتبعوهم من شئ أبداً؛ حيث لا يحمل أحد يوم القيامة وزر أحد، فضلاً عما نشاهده فى الدنيا من تنصل القوى من الضعيف ، بعد أن يتخلى عن مبادئه ؛ مرضاة لهذا القوى الكافر.

ثانياً : إنهم لكاذبون فيما يقولون.

ثالثاً : وليحملن يوم القيامة أثقالهم أى : أوزارهم، وأثقالاً لغيرهم ممن أضلّوهم، بسبب إضلالهم لهم مع أثقالهم.

رابعاً : وليسألن يوم القيامة سؤال عقاب عما كانوا يفترون من إنكار البعث والحشر والحساب.

* * *

أيها الأحبة فى الله .. من المؤمنين والمؤمنات ..

لعلكم تذكرون فيما استمعنا إليه فى أول السورة، قوله تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا.

وهنا : يرينا الله تعالى ..

بعض الذين فتنوا فى دينهم ، وأذوا فىالله من السابقين .

وكيف كان صبرهم على هذا الإيذاء ..؟

وكيف أن الصبر مع الإعداد .. يعقبه النصر..؟

يقول تعالى :

}

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ }

[الآيتان ١٤ ، ١٥]

أى : ولقد أرسلنا نوحاً عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادته فلبث أى : مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى توحيد الله .

ولكنهم : كذبوه، وسخروا منه، وآذوه ٠٠فأخذهم الطوفان عقاباً لهم، فغرقوا وهم ظالمون.

وأما هو فأنجيناه، و معه أصحاب السفينة وهم المؤمنون، الذين صبروا معه، وتحملوا الأذى من أجل إيمانهم وجعلناها أى : السفينة وقصتها آية وعبرة للعالمين.

هذه : قصة نوح عليه السلام.

* * *

ثم .. قصة أخرى :

وهى قصة إبراهيم عليه السلام.

يقول سبحانه :

{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }

[الآيات ١٦-١٨]

يعنى : و اذكر إبراهيم عليه السلام إذ قال لقومه وهم يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته .. ما يلى :

أولاً : دعاهم إلى دين الله .. يا قوم اعبدوا الله واتقوه.

ثم حببهم فيه ذلكم خير لكم مما أنتم عليه إن كنتم تعلمون.

ثانياً : بين فساد ما هم عليه .. يا قوم إنما تعبدون من دون الله أوثاناً أصناماً وتخلقون إفكاً كذباً.

ثالثاً : بين عجز آلهتهم .. يا قوم إن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله عاجزون لا يملكون لكم رزقاً فلا تخافوهم.

رابعاً : وجههم إلى الصواب فابتغوا يا قوم عند الله الرزق واطلبوه منه واعبدوه وحده واشكروا له فضله وإنعامه؛ حيث إنكم إليه ترجعون والجزاء عنده وحده.

خامساً : نهاهم عن التكذيب، وخوفهم من آثاره ..

وإن تكذبوا وتكفروا فقد كذب أمم من قبلكم كقوم نوح عليه السلام، فعوقبوا، وأغرقوا، وأهلكوا ٠٠ فلا تفعلوا فعلهم.

سادساً : أخلى مسئوليته عنهم .. و يا قوم لقد أبلغتكم ، وهذا دورى فقط إذّ ما على الرسول إلا البلاغ وليس عليه هداهم.

* * *

وبعد أن رأينا تركيز إبراهيم عليه السلام معهم فى بيان : التوحيد، والرسالة .
يبين الله عز وجل له ولهم : أمر البعث ويوضحه.
فيقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾
[الآية ١٩]

أى : أ غفلوا يا إبراهيم ولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده فيستدلون على صحة البعث ..؟ أخبرهم، وقل لهم إن ذلك على الله يسير وسيعيدهم وسيحاسبهم.

* * *

إن كانوا لم يروا ذلك :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
[الاية ٢٠]

أى : قل لهم سيروا فى الأرض وانظروا إلى مخلوقات الله .
لتعلموا :
كيف بدأ الله الخلق أولاً ..؟
ثم كيف أن الله ينشئ الخلق النشأة الآخرة وهى : البعث٠٠؟
إن الله على كل شئ قدير.

* * *

وما دام الأمر كذلك ..
فهو سبحانه :

{ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }
[الآيتان ٢١ ، ٢٢]

يعنى : يعذب من يشاء ويرحم من يشاء من عباده وإليه تقلبون ترجعون جميعاً ..
فوحدوه إذن ، وأطيعوا رسله، واستعدوا للقائه.
وما أنتم بمعجزين أى : هاربين من عقاب ربكم فى الأرض ولا فى السماء فهما من كونه، وأنتم فى قبضته.
و أيضاً ما لكم من دون الله من ولى يتولى أموركم ولا نصير يدافع عنكم.

* * *

ثم يصدر ربنا حكمه فى الكافرين المصرّين ..
فيقول :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ٢٣]

أى : والذين كفروا بآيات الله الدالة على توحيده، والشاهدة بقدرته، و كفروا كذلك بـــ لقائه فى يوم البعث، لأنهم أنكروا الآخرة.
أولئك يئسوا من رحمتى ودخول جنتى، لعدم إيمانهم بها.
وأولئك لهم عذاب أليم فى هذه الدار التى أنكروها، وكفروا بها.

* * *

وبعد أن اتضحت تماماً هذه الأمور ..
يأتى جواب قوم إبراهيم عليه السلام على دعوته لهم للإيمان، والتوحيد، وترك الأصنام.
يقول القوى القاهر :

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٢٤]

يعنى : فما كان جواب قومه له، حواراً، ولا نقاشاً، ولا حتى جدالاً ..
بل كان رد الطغاة العاجزين عن الحوار ..!!
حيث قالوا اقتلوه أو حرقوه لنستريح منه، ويكون عبرة لغيره.
واتفق القوم على حرقه.
وبالفعل : ألقوه فى النار ..
فقلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم [الأنبياء: ٦٩].
فأنجاه الله من النار.
إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

* * *

وخرج منها إبراهيم عليه السلام .. سليماً معافى من أى أذى.

{ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ }
[الاية ٢٥]

أى : و لما خرج من النار ونجا من المحنة ..!!
قال لهم : مستمراً فى بيان فساد عقيدتهم، وسوء تصرفهم إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً تعبدونها مودة بينكم تجتمعون عليها، وتتوددون لبعضكم البعض حولها فى الحياة الدنيا.
ثم يوم القيامة تتقطع هذه المودة، ويتفرق هذا التجمع، ويكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً بسبب هذا الكفر.
و يكون مأواكم ومقركم النار تقيمون فيها جميعاً، التابع والمتبوع، لا يخرج منها أحد.
وما لكم من ناصرين ينقذونكم من عذاب الله.
فآمنوا .. خيراً لكم.
وبهذا : تبين ثبات إبراهيم عليه السلام فى دعوته، فلم تغيره المحنة، ولم تفتنه النجاة منها.
وفى هذا : درس للدعاة إلى الله تعالى يوم القيامة.

* * *

ورأى الناس المعجزة ..
النار التى تحرق : لم تحرق إبراهيم !!
بل خرج منها سليماً : يواصل دعوته.

{ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ٢٦]

يعنى : فآمن له عندما رأى هذه المعجزة .. لوط عليه السلام.
وواصل إبراهيم دعوته فى قومه.
و بعد مدة من الزمان : أمِر بالهجرة من بينهم، لذلك قال إنى مهاجر حيث أمرنى ربى بالهجرة إنه هو سبحانه العزيز الذى يبعد أذى أعدائى عنى الحكيم الذى لا يأمرنى إلا بما هو خير.

* * *

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ٢٧]

يقول تعالى : وبعد أن نجينا إبراهيم من النار..
وبعد أن هاجر إلى ربه ..
أنعمنا عليه بهذه النعم :

النعمة الأولى : وهبنا له من فضلنا اسحق ويعقوب بعد أن كان وحيداً.
النعمة الثانية : وجعلنا فى ذريته النبوة وآتيناهم الكتاب أى : جنس الكتاب.. كالتوراة، والإنجيل، والقرآن.
النعمة الثالثة : وآتيناه أجره من ثناء حسن عليه، وصلاة كذلك عليه، وجب أهل جمع الملل له، والانتساب إليه فى الدنيا.
النعمة الرابعة : وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ومعهم فى الجنة.

* * *

وأما عن لوط، الذى آمن له، وهاجر معه :
فقد نبئ، وكلف بدعوة قومه .

يقول تعالى :

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ }
[الايات ٢٨ – ٣٠]

يعنى : و اذكر لوطاً عليه السلام إذ قال لقومه وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله إنكم لتأتون الفاحشة أى : الأعمال الفاحشة، التى ما سبقكم بها من أحد أبداً من العالين.
ثم بدأ يفصل لهم بيان هذه الأعمال الفاحشة .. فقال :

أولاً : إنكم لتأتون الرجال دون النساء، وهو : اللواط.
ثانياً : وتقطعون السبيل على المارة فيه، فتسرقونهم، وتقتلونهم.
ثالثاً : وتأتون فى ناديكم أى : فى مجالسكم المنكر فى كل شئ من الأقوال والأفعال، علانية دون تخف به أو خجل منه، أو نهى من بعضكم لبعض.

ولما قال لهم ذلك ..
ماذا كان جواب قومه له ..؟
يقول تعالى : فما كان جواب قومه إلا أن قالوا له : ائتنا بعذاب الله الذى تهددنا به إن كنت من الصادقين فيما تخوفنا به من العذاب.
يعنى : وصل بهم الاستهزاء منه إلى غايته.
ولذلك : لجأ إلى ربه، وطلب نصرته.
قال رب انصرنى على القوم المفسدين الذين يشيعون الفساد بين العباد، ويحملونهم على ارتكاب المعاصى والفواحش.

* * *

يقول ربنا عز وجل :

{ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ }
[الاية ٣١]

يعنى : واستجاب الله دعاء لوط عليه السلام، وطلبه النصرة من ربه على قومه.
يقول تعالى ولما جاءت رسلنا إلى إبراهيم بالبشرى وهى الولد: أخبروه، وقالوا له إنا مهلكوا أهل هذه القرى التى فيها لوط عليه السلام؛ حيث إن أهلها كانوا ظالمين وما زالوا مصرين على ظلمهم وكفرهم، وممارستهم للفواحش، التى نهاهم عنها لوط.

* * *

ولما سمع منهم إبراهيم عليه السلام هذا الكلام.
خشى الهلاك والعذب على لوط.
لذلك :

{ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ }
[الآية ٣٢]

أى : قال إبراهيم للملائكة إن فيها لوطاً وإنى أخاف عليه الهلاك.
قالوا جواباً له وتطميناً نحن أعلم منك بمن فيها من الفاسدين والصالحين لننجينه وأهله من هذا الهلاك إلا امرأته ستهلك؛ لأنها كانت من الغابرين الهالكين بسبب الرضا بما يفعلون، ولها إذاً جزاء ما كانوا يفعلون.

* * *

وخرج الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام، بعد أن بشروه بغلام عليم، وبعد أن أخبروه بهلاك قوم لوط.
وساروا إلى لوط، ودخلوا عليه.
يقول تعالى :

{ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }
[الآيتان ٣٣ ، ٣٤]

يعنى : ولما جاءت رسلنا لوطاً تبشره بنصر الله له، وتخبره بإهلاك الله لقومه.
ولكن – وقبل أن يعرفهم –سئ بهم أى : ساءه مجيئهم؛ خوفاً عليهم من قومه .
وضاق بهم ذرعاً أى : تصرفاً، حيث لا يدرى ماذا يفعل ..؟
فهو إن أبقاهم عنده : لم يستطع منع قومه عنهم .
وإن تركهم يمشون : خاف عليهم من قومه أيضاً.
وأحست الملائكة بحيرته ..
وقالوا له لا تخف علينا ولا تحزن مما تتوقع حدوثه من قومك معنا.
يا لوط إنا منجوك وأهلك من الهلاك بإذن الله إلا امرأتك ستهلك إنها كانت من الغابرين.
يا لوط إنا منزلون بأمر الله على أهل هذه القرية رجزاً أى : عذاباً من السماء بما كانوا يفسقون ويخرجون عن طاعة الله، ويخالفون دعوتك لهم، ويهزأون منك.

* * *

وخرجت الملائكة من عنده.

وجاء أمر الله بعذابهم ..

وبالفعل : نزل بهم عذاب الله ..!!

حيث جعل قراهم سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل * مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد [هود : ٨٢،٨٣].

* * *

يقول تعالى :

{ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

[الآية ٣٥]

أى : ولقد تركنا منها أى : من القرية التى هلكت آية بينة أى : علامة واضحة لقوم يعقلون فيتعظون، فيرتدعون عن المعاصى.

* * *

هذا ..

وبعد أن تنتهى قصة قوم إبراهيم عليه السلام ومعها قصة قوم لوط عليه السلام ..

تبدأ السورة فى ذكر قصة أهل مدين، قوم شعيب عليه السلام.

يقول تعالى :

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }

[الآيتان ٣٦ ، ٣٧]

يعنى : و أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً يدعوهم إلى الإيمان بالله، وتوحيده.

فقال لهم :

أولاً : يا قوم اعبدوا الله وأطيعوه، واعملوا بشرعه، ولا تخالفوه.
ثانياً : وارجوا بعملكم ثواب اليوم الآخر أى : وآمنوا به، واستعدوا له بالعمل الصالح.
ثالثاً : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين لها، ولأهلها.
فماذا كان موقفهم من دعوته هذه ..؟
يقول تعالى
فأخذتهم الرجفة أى : الزلزلة الشديدة ؛ لأنهم كذبوا ، فهلكوا فأصبحوا فى دارهم بلدهم وأرضهم جاثمين ميتين، باركين على ركبهم.

* * *

وإلى بيان نهاية عاد قوم هود عليه السلام، وقصة ثمود قوم صالح عليه السلام؛ ليبين الله ما فعله بهم ، تكون الآيات التالية :
يقول تعالى :

{ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ }
[الآية ٣٨]

المراد : و أهلكنا، كذلك عاداً وثمود لكفرهم وعنادهم.
وقد تبين لكم هذا الإهلاك لهم من آثار وبقايا مساكنهم التى تمرون بها فى سفرياتكم.
و هؤلاء : قد زين لهم الشيطن أعمالهم من الكفر والمعاصى، والعناد .. فصدهم بها عن السبيل المستقيم، الذى أمروا باتباعه.
و العجيب أنهم كانوا مستبصرين أى : يدعون الفهم وبعد النظر، والوعى بكل شئ ..!!

* * *

ثم تنتقل الآيات إلى هؤلاء الطغاة : قارون وفرعون وهامان.
حيث يقول سبحانه :

{ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ }
[الآية ٣٩]

أى : و أهلكنا قارون وفرعون وهامان أيضاً.

ولقد جاءهم كذلك نبى الله موسى عليه السلام بالبينات الدالة على وحدانية الله وقدرته، وهو يدعوهم إلى الإيمان.

فاستكبروا فى الأرض وكذبوه، وعاندوه، وأصروا على كفرهم ..

فأهلكهم الله وما كانوا سابقين عذابه، أى : أدركهم فما هربوا منه.

* * *

هذا ..

ولما بين الله تعالى أنه أهلك وعذب من أشرك، ولم ينفعه أو يمنع عنه العذاب معبوده ..!!

مثّل اتخاذه ذلك المعبود، الذى لا ينفع إلهاً، باتخاذ العنكبوت بيتاً لا ينفع ..

فقال عز وجل :

{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }

[الاية ٤١]

أى : مثل آلهتهم .. كبيت العنكبوت ، فى الضعف وعدم النفع.

وكذلك : كل عقيدة غير الإيمان بالله .

لو كانوا يعملون أى : لو كان عندهم أدنى تفكير، واستعمال للعقل : لعرفوا ذلك.

ولكنه .. العناد ..!!

* * *

ثم يؤكد ربنا ذلك : بقوله ..

{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

[الاية ٤٢]

يعنى : إن الله عز وجل يعلم أن ما يدعون أى : ما يعبدون من دونه ليس بشئ وهو سبحانه العزيز الحكيم.

فكيف لعاقل أن يترك عبادة العزيز الحكيم، ويعبد ما ليس بشئ ..؟

* * *

على كل حال :

{ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ }

[الآيتان ٤٣ ، ٤٤]

لما ضرب الله المثل بالعنكبوت ..!!

قال الكافرون : لم يضرب الله الأمثال بالهوام والحشرات ؟

فرد عليهم سبحانه قائلاً :

وتلك الأمثال نضربها للناس تقريباً لأذهانهم، ودعوة لهم .. فلا تستهينوا بها، ولا تتعجبوا منها.

و بالرغم من ذلك ما يعقلها ويستفيد منها إلا العالمون الذين يعملون بطاعة الله، ويجتنبون سخطه.

ومع ضرب الله الأمثال بهذه الأشياء : فقد خلق السموات والأرض بالحق أى : بقدرته؛ لحكمة وغاية، وليس عبثاً ولا لعباً.

وكذلك : ضرب الأمثال بهذه .. هو لحكمة وغاية، وليس عبثاً ولا لعباً.

إن فى ذلك لآية وعبرة وفائدة للمؤمنين.

* * *

هذا ..

وإن كنت يا محمد ما زلت تأسف على كفر قومك، وتحزن على عنادهم : فافعل ما يلى :

{ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }

[الآية ٤٥]

يعنى : اتل ما أوحى إليك من الكتاب

لتعرف أن إخوانك من الأنبياء عانوا ما عانيت، وتحملوا من الأذى ما يحدث لك، ومع ذلك : ما قصروا فى تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة.

ولتتقرب بهذه التلاوة إلى ربك.

ولتقف على ما أمر به المولى ونهى عنه.

ولتبلغه – كذلك – إلى الدنيا كلها.

و بعد ذلك :

أقم الصلاة أى : داوم على إقامتها؛ حيث إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر جميعه .
وفى الصلاة : ذكر الله .
ولذكر الله أكبر فى النهى عن الفحشاء والمنكر، وأكبر ثواباً عند الله.
والله يعلم ما تصنعون من الخير؛ فيثبتكم عليه.

* * * وإلى توجيه آخر، يبين طريقة إرشاد أهل الكتاب.
إذ يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }
[الآية ٤٦]

يعنى : لا تجادلوا أهل الكتاب أصلاً؛ فإن الجدل غير محبوب.
وإذا كان ولابد من ذلك : فجادلوهم بالطريقة التى هى أحسن من طريقتهم، أسلوباً، ومنهجاً، وغاية .. وهذا مع المعتدلين فيهم.
وأما الذين ظلموا منهم فأفرطوا فى العناد، أو اثبتوا لله تعالى الولد، أو قالوا إن الله ثالث ثلاثة .
ودعت الظروف إلى جدالهم ..!!
فجادلوهم بغلظة وخشونة.
وهذا : مثال للطريقة الأحسن فى النقاش معهم ..
قولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وهو القرآن و بالذى أنزل إليكم وهو التوراة، والإنجيل وإلهنا وإلهكم واحد.
ولكن : لا يفوتكم أن تعلنوا بكل وضوح إسلامكم ؛ حيث قولوا ونحن له مسلمون أى : منقادون، وبرسله جميعاً معترفون، وبشرعه ملتزمون.

* * *

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ }
[الآية ٤٧]

يعنى : و كما أنزلنا الكتاب إلى من قبلك من الأنبياء أنزلنا إليك الكتاب وهو القرآن ..
فمصدر الوحى واحد : وهو الله .

والدين واحد : وهو الإسلام.

فالذين آتيناهم الكتاب من قبلك، وآمنوا به، واتبعوا أنبياءهم :يؤمنون به أى : بالقرآن؛ لأن كتبهم ذكرته، وأنبياءهم بشروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

ومن هؤلاء أى : أهل الكتاب الموجودين فى زمانك وإلى يوم القيامة ..من يؤمن به.

هذا ..

وما يجحد بآياتنا ورسولنا إلا الكافرون المعاندون، المصرون بعد وضوح الحق على ما هم عليه.

* * *

ثم تقدم الآيات الدليل على كون القرآن معجزاً، وأنه من عند الله .

فتقول:

{ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ }

[الآيتان ٤٨ ، ٤٩]

يعنى : والدليل على أننا أنزلنا إليك القرآن ..

أنك ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك أى : ما كنت قارئاً ولا كاتباً.

ولو كنت كذلك :إذاً لارتاب وشك وشكك المبطلون المنكرون نبوتك.

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن.

بل هو أى القرآن آيات بينات محفوظات فى صدور الذين أوتوا العلم من المؤمنين.

و حقيقة : فإنه ما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ؛ لأنهم بعد بيان المعجزة أصروا على كفرهم، فصاروا ظالمين.

* * *

ومن جحودهم : أنهم استمروا على ظلمهم ..

{ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }

[الآية ٥٠]

أى : وقالوا عناداً لولا أنزل عليه آيات من ربه كما أنزل على موسى : لآمنا به ..!!

قل لهم :

أولاً : إنما الآيات عند الله ينزلها كيف يشاء، متى يشاء، مع من يشاء، ولا أملك منها شيئاً.
ثانياً : وإنما أنا فقط نذير لأهل النار مبين لهم المعاصى التى تدخلهم فيها؛ ليتجتنبوها.

* * *

ثم ..

{ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٥١]

يعنى : أو لم يكفهم فيما طلبوا ؛ لإقناعهم بنبوة محمد؛ آية تغنيهم عن كل الآيات..!!
وهى أنا أنزلنا عليك الكتاب أى القرآن يتلى عليهم فى كل زمان ومكان، ومحفوظ بحفظ الله، لا يزول، ولا يُنْسى، بخلاف الآيات المحسوسة، كالعصا واليد.
إن فى ذلك أى : جعل القرآن هو الآية المستمرة، الباقية لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون به، فينتفعون بهديه.

* * *

وبذلك .. أيها الأحبة : ظهرت رسالته صلى الله عليه وسلم، واتضحت أدلته .
ومع ذلك ..لم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب.
لذلك .. يقول له ربنا الحكيم الخبير :

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[الآية ٥٢]

يعنى : قل لهم كفى بالله بينى وبينكم شهيداً بصدقى فى دعوى الرسالة.
ثم بين كونه سبحانه كافياً فى هذه الشهادة .. بكونه عالماً بكل شئ يعلم ما فى السموات والأرض.
فهو مطلع على أمرى وأمركم، وسيجازيكم على كفركم وإنكاركم، وعنادكم.
هذا ..
والذين آمنوا بالباطل وهو كل ما يخالف ما جاء به محمد وكفروا بالله وآياته، وأنتم منهم أولئك هم الخاسرون الحقيقيون؛ لأنهم خسروا أعظم الصفقات؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، فهم الخاسرون يوم القيامة.

* * *

وبعد أن انتهى النقاش مع أهل الكتاب : يعود الحديث عن المشركين.
فيقول تعالى :

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الايات ٥٣-٥٥]

أى : و هؤلاء الكفار يستعجلونك بالعذاب الذى تخوفهم به، ويقولون لك: متى هو ..؟
ولولا أجل مسمى موعد محدد له لجاءهم العذاب فى الوقت الذى يطلبون.
على أية حال : سيأتيهم العذب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون بوقت مجيئه .
وهذا : أنكى بهم، وأكثر إيلاماً لهم.
عجيب ..!!
يستعجلونك بالعذاب وهو آت لهم، ونازل بهم لا محالة؛ حيث إن جهنم لمحيطة بالكافرين الذين هم منهم.
يا للهول .. !!
يوم يغشاهم العذاب وتحيط بهم النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم أى : تغطيهم من كل جهاتهم : لا يكون له مثيل.
و فوق ذلك يقول الله تعالى لهم زيادة فى إيلامهم، وتعذيبهم :ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا.

* * *

هذا ..
وبعد أن تحدث الله عن أهل الكتاب .. وجزائهم ..!!
وكذلك عن المشركين ٠٠ وجزائهم ..!!
التفت بالخطاب للمؤمنين تشريفاً : لهم.
فقال :

{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ }
[الآية ٥٦]

يا عبادى الذين آمنوا إن ضَيَّق عليكم المشركون، أو أهل الكتاب، فى دينكم وعباداتكم، أو آذوكم، أو فتنوكم، وأنتم مقيمون بينهم، وفى دارهم وبلادهم : فهاجروا، واخرجوا من عندهم.

ولا تخافوا ضيقاً، ولا ضياعاً ؛ حيث إن أرضى واسعة وسيفسح الله لكم فيها .
فإياى فاعبدون فى بلد تكونون فيه : أسلم قلباً، وأصح ديناً، وأكثر عبادة.

* * *

ولا تخافوا كذلك موتاً : إذّ يقول تعالى :

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }
[الآية ٥٧]

يعنى : إن الذى تخافون، وتكرهون، وهو الموت..واقع لا محالة .
فليكن فى سبيل الله إذن ..!!
خاصة : وأنكم إلينا ترجعون فنجازيكم على إيمانكم، وهجرتكم، وتحمّلكم ٠٠ خير الجزاء.
بل .. أكثر من هذا ..
يقول الحليم الكريم :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }
[الآيتان ٥٨ ، ٥٩]

أى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأنتم أيها المهاجرون منهم بالطبع لنبوئنهم لننزلنهم من الجنة غرفاً يقيمون فيها تجرى من تحتها الأنهار المنوعة، ويكونون خالدين فيها لا يخرجون ولا يموتون.
الله ..!!
نعم هذا الأجر : وهو أجر العاملين للصالحات ، هؤلاء .
ويأتى على رأسهم.
الذين صبروا على أذى المشركين فى إقامتهم، وألم مفارقة الأوطان فى هجرتهم، وكذلك فى فعل الطاعات، والبعد عن المعاصى والسيئات.
وعلى ربهم يتوكلون فى كل أحوالهم، الدينية والدنيوية.
خاصة : وأنه من المعلوم .. أن الصبر والتوكل هما زاد المهاجر.

* * *

ثم يقول ربنا .. للذين يهاجرون فى سبيل الله :

لا تخافوا – ثالثاً – على الرزق.

{ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ٦٠]

وكم من دابة ضعيفة لا تحمل رزقها معها ، ومع ذلك الله يرزقها وإياكم أيضاً، وإن لم يكن معكم زاد ولا نفقة.
وهو السميع لأقوالكم العليم بإخلاصكم.

* * *

ثم ..
ثم يخاطب الله المؤمن فى شأن الكفار .. تعجيباً من حالهم.
فيقول :

{ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآيتان ٦١ ، ٦٢]

يعنى : ولئن سألت أيها المؤمن هؤلاء المشركين .. عن الذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله .
ويقرون بذلك.
ومع ذلك : يعبدون غيره.
فأنى يؤفكون أى : يصرفون عن عبادته وحده ..؟
وهو هو الله الذى خلق السموات والأرض .. إلخ.
وهو هو الله الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسعه له ويقدر له أى : يضيقه عليه ..
وآلهتهم : لا تفعل ذلك، ولا تستطيعه.
حقاً .. إن الله بكل شئ عليم.

* * *

أيضاً ..

{ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ }
[الاية ٦٣]

يعنى : ولئن سألت أيها المؤمن هؤلاء المشركين ، عن الذى نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بالنبات من بعد موتها ليقولن الله.

ويقرون بذلك.

ومع ذلك : يعبدون غيره.

يقول تعالى للمؤمن قل الحمد لله على أنك تقر بما يقرون به، ثم ينفعك الله بنعمة التوحيد والإيمان ، على خلافهم.

بل أكثرهم لا يعقلون .

ولو عقلوا : لأقروا واتبعوا .

ولكنهم : أقروا ، وخالفوا ..!!

* * *

ومن المعلوم : أن الذى جعلهم يخالفون بين فعلهم وبين ما يقرون به ٠٠ هى الحياة الدنيا، وزينتها، واللهو واللعب فيها.

لذلك : يبين الله لهم أن ذلك ليس بشئ.

إذ يقول :

{ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }
[الاية ٦٤]

أى : أن ما يشغلهم ويلهيهم ، لا يدوم .

وهو كل ما فى الحياة الدنيا.

وإن الدار الآخرة لهى الحيوان أى : الحياة الحقيقة، التى تدوم، فلا فناء لها ولا زوال ولا انقضاء.

لو كانوا يعلمون أنه قد شغلتهم الدنيا عن الآخرة ..

ولكنهم لا يعلمون..!!

* * *

ومع انشغالهم بالدنيا، وكفرهم بوحدانية الله، وتفرده سبحانه بالقدرة ..

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }
[الآيتان ٦٥ ، ٦٦]

يعنى : فـ إنهم مع شركهم وعنادهم إذا ركبوا ذات يوم فى الفلك السفينة، وجاءتها ريح عاصف دعوا الله مخلصين له الدين أى الدعاء له وحده.

فلما استجاب دعاءهم، ونجاهم مما هم فيه، وخرجوا إلى البر وأمِنوا من الغرق :إذا هم مرة أخرى يشركون وينسون ما كانوا له يدعون.

وذلك ..

ليكفروا بما آتيناهم من النعم .

وليتمتعوا بالحياة الدنيا وزينتها .

على كل حال :فسوف يعلمون وبال عملهم عند زوال أملهم.

* * *

وعلى أية حال .. هذا ليس بغريب عليهم ..

{ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ }
[الآية ٦٧]

يعنى : أ نسوا، وغفلوا ولم يروا بعيونهم أنا جعلنا مكة بلدهم حرماً مصوناً آمناً لكل من فيه ، فى الوقت الذى كان يُتخطف الناس فيه من حولهم.

أنسوا هذه النعمة، وكفروا بالله ..!! ؟

هذا باطل.

أَفَبِالْبَاطِلِ أى : الأصنام يؤمنون ..؟

وبنعمة الله والمنعم بها يكفرون ..؟

إنهم .. حقاً ظالمون.

* * *

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ }

[الآية ٦٨]

أى : ليس أظلم من هؤلاء ..
إن لهم فى جهنم مثوى إقامة ، لا يخرجون منها أبداً.

* * *

وهناك فريق آخر : يحسن ذكرهم، وخَتْم السورة بهم.
يقول عنهم ربنا :

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٦٩]

يعنى : والذين جاهدوا فينا فى سبيلنا، ولِوَجْهنا، ونصرة ديننا .
أى : جاهدوا النفس، والشيطان والأعداء ..
هؤلاء : لنهدينهم سبلنا إلى مرضاتنا فى الدنيا وفى الآخرة، وطرقنا إلى النصر على أهوائهم وشياطينهم، وأعدائهم.
وجهادهم هذا : إحسان.
وإن الله لمع المحسنين بالنصر والتوفيق والتأييد.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر